وزارة المعارف العمومية

تاريخ مصر السياسى

فى الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد رفعت

مراقب تعليم البنات المساعد

(والحائز لدرجة أستاذ فى الآداب بدرجة الشرف من الطبقة الأولى
فى التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمى من جامعة ليفربول)

الجزء الأول — للمدارس العالية

(من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٩ م)

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٢٤

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

أ.د. محمد حسين هيكل

رئيس مجلس الشيوخ السابق

وزارة المعارف العمومية

تاريخ مصر السياسى

فى الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد رفعت

مراقب تعليم البنات المساعد

(والحائز لدرجة أستاذ فى الآداب ودرجة الشرف من الطبقة الأولى
فى التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمى من جامعة ليڤربول)

الجزء الأوّل — للمدارس العالية

(من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٩ م)

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤



محمد علي الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الأولى

أقدّم كتابى إلى قراء التاريخ وأنا شاعر بأنى بعيد عن الغرض الذى كنت أرمى اليه . ولكننى وجدت الاحجام عن نشر ما تهيأ لدىّ لفائدة أبناء وطنى ، لمجرد الاعتقاد بأن ذلك دون ما أبغى من الكمال ، ضربا من الجمود العلمى لايتفق مع سنة النشوء والترقى فى العلوم الحديثة ، التى يتوارثها العلماء ناقصة فلا يلبثون أن يورّثوها غيرهم وافية بقدر المستطاع ، إذ العصمة والكمال لله وحده .

لذلك أقدمت على نشر أبحاثى التى يرجع البدء فيها إلى سنة ١٩١٤ أيام أن كنت أواصل الدراسة فى انجلترا فى مكتبة "المتحف البريطانى" ودار "سجلات الحكومة" بلندره . ولقد قصدت إلى أن يكون بحثى مستمدا من أصوله الرسمية ومن المصادر الموثوق بها حتى يحوز الصفة العلمية التى تحتمها الجامعات الأوربية أولا وحتى يتسنى لمصرى مثلى يفهم الروح المصرية أن يضع كتابا مستقلا فى الموضوع بحيث لا يكون جل اعتماده فيه على ما يكتبه العلماء الأوربيون بل على المصادر التى يأخذ عنها هؤلاء العلماء رأسا .

وما أكثر وأعظم ما يعثر عليه الباحث المنقب من أصول ومادة فى تاريخ مصر الحديث ، فسجلات وزارة الخارجية بلندره ، ناهيك بما فى العواصم الأخرى ، حافلة بمجلدات مكدسة بعضها فوق بعض حاوية لجميع أنواع الرسائل الرسمية والخاصة والسرية والتقارير والجرائد وغير ذلك مما يتطلب عدة سنوات للفحص عنه فحصا دقيقا . وقد انتهزت فرصة تعيينى طالبا

للبحث العلمى فى لندره باتفاق جامعة ليفربول مع وزارة المعارف المصرية فقضيت عام ١٩١٦ فى درس الوثائق الهامة الخاصة بحالة مصر فى عهد محمد على . ثم حضرت مصر وواصلت بحثى فى المكتبة السلطانية واستوفيت ما كان ناقصا وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب .

وسيرى القارئ أنى توخيت فى كتابى أسلوبا سهلا ، وطريقة علمية غايتها الوحدة التاريخية ، واتجاه السياسة العامة ، وربط الأسباب بالمسببات ، وإغفال التفاصيل المملة ، وإبداء النقد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ما تمليه العواطف ؛ وهنا الفرق كل الفرق بين المؤلف الذى يجب أن يكتب ويبحث لأجل الحقيقة وبين السياسى الذى يكتب ويجادل إرضاء لعواطفه الخاصة .

وغاية رجائى أن يفى الكتاب بحاجة المتعلمين إلى كتاب فى التاريخ على الطرق العلمية الحديثة ، وأن يتقدّم العاملون للبحث والكتابة العلمية فى موضوعاتهم التاريخية وأن يتكرم أولو الفضل بموافاتى بما يعنّ لهم من الآراء ووجوه الاصلاح التاريخية فى الكتاب .

والله أسأل أن يوفقنى الى إتمام الجزءين الباقيين من الكتاب وأن يوفقنا جميعا الى خدمة بلادنا العزيزة بالصدق والاخلاص ؞

محمد رفعت

القاهرة فى أول رمضان سنة ١٣٣٩ (الموافق ٩ مايو سنة ١٩٢٠)

تعليقات بعض الجرائد

على تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحاضرة

جاء فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٩٢١ :

"بين أيدينا كتب ألفت فى التاريخ المصرى وهذه الكتب على تعددها تكاد تكون كتابا واحدا كثير الطبعات ...

وإنا اليوم فى المرة الأولى فى عهد هذه النهضة نرى من كتاب "تاريخ مصر السياسى" الذى أخرجه المؤرخ المصرى الفاضل محمد رفعت ... أرقى أنموذج عملى ممكن للتأليف فى هذه المادة فان هذا المؤلف فى التاريخ لم يكن فى شىء من أولئك المقلدين الذين حذا بعضهم حذو بعض حتى تشابهوا وحتى كان آخرهم صورة لأولهم . بل هو قبل أن يؤلف كتابه هذا ألف طريقة مثلى لوضعه بحيث يكون فى نفسه مادة علمية صافية من كل شائبة ويكون كذلك حجة قاطعة لكل لبس أو ابهام يحيط بأية مسألة من مسائل التاريخ .

ونحن نشكر لحضرته كل الشكر هذه الخدمة العلمية التى لا ينقضى برها ولا ينقطع شكرها ، نشكر له تلك اليد البيضاء ونرجو أن يوفق الى إتمام ما بدأ فيه بمثل تلك العناية الجميلة" .

وجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ :

"بين أيدينا الآن كتاب "تاريخ مصر السياسى" لمؤلفه الأستاذ رفعت وقد بذل المؤلف عناية كبرى فى البحث والاستقصاء فرجع إلى مصادر تاريخية عديدة ومحررات رسمية كثيرة للالمام بموضوعه من جميع أطرافه لأنه لم يقتصر على ايراد الوقائع على سبيل الرواية بل تخطى الرواية إلى بحث العلل والمعلولات وماترتب على ذلك من النتائج السياسية ... الخ" .

وجاء فى مجلة المقتطف عدد يونيه سنة ١٩٢١ :

"كتاب "تاريخ مصر السياسى" تأليف الأستاذ محمد رفعت ... وقد قال فى مقدمته إنه اعتمد فى جمعه وتأليفه على المصادر الموثوق بها ... وأنه توخى أسلوبا سهلا وطريقة علميــة غايتها الوحدة التاريخيــة وربط الأسباب بالمسببات واغفال التفاصيل المملة و إبداء النقد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ما تمليه العواطف .

لا يكاد القارئ يتصفح أربع صفحات من الفصل الأول من هــذا الكتاب حتى تبدو له الأدلة على ما قاله المؤلف ... الخ الخ" .

فهرس الكتاب

صفحة

الفصل الأول — مصر قبل الحملة الفرنسية... ... ... ١

الفصل الثانى — مشروع الحملة الفرنسية على مصر ٢١

الفصل الثالث — نابليون فى مصر ٢٩

الفصل الرابع — الحملة الفرنسية بعد نابليون ٤٩

الفصل الخامس — نتائج الحملة الفرنسية ٦١

الفصل السادس — تنازع البقاء فى مصر بعد الحملة ٦٧

الفصل السابع — نهضة محمد على... ... ... ٨٦

الفصل الثامن — اصلاحات محمد على الداخلية ١٠٩

الفصل التاسع — ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان ١٢٦

الفصل العاشر — بين الباشا والسلطان ١٤٨

الفصل الحادى عشر — اتفاق الدول ضد محمد على ١٦٩

الفصل الثانى عشر — عند مفترق الطرق ١٨٦

الفصل الثالث عشر — الأزمة السياسية فى سنة ١٨٤٠ ... ... ١٩٩

الفصل الرابع عشر — خاتمة المرحلة الأولى ٢١٩

ملحق (أ) — منشور بونابرت الى المصريين ٢٢٧

ملحق (ب) — محمد على والخلافة... ... ... ٢٢٩

ملحق (ج) — مشروع لجمعية الأمم فى سنة ١٨٤٠ ... ... ٢٣٣

ملحق (د) — أهم مصادر الكتاب ٢٣٧

ملحق (ه) — أسماء أهم الأعلام الأوربية الواردة فى الكتاب ٢٣٩

فهرس الصـــور

	أمام صفحة
محمد على الكبير	(ج)
قاعة استقبال	٧
نافورة	٨
نابليون بونابرت	٢٩
سليمان باشا	١٠١
بوغوص بك يوسف	١١٥
ابراهيم باشا	١٤٧
بالمرستون	١٧٠
لوى فيليب	٢٠٤
القلعة من ناحية المقطم	٢٢٢
القلعة عند دخول الفرنسيين بمصر	٢٢٢

فهرس الخرائط

أمام صفحة

١ — خريطة الحملة الفرنسية فى مصر وسوريا ٣٤
٢ — « موقعة أبى قير البحرية ٣٦
٣ — « اتساع نفوذ محمد على وبلاد العرب ٩٦
٤ — « فتح السودان ١٠٦
٥ — « شبه جزيرة البلقان والمورة ١٣٧
٦ — « حروب الشام ١٥٦

الفصل الأول

مصر قبل الحملة الفرنسية

الحالة السياسية

تمهيد :

تعاقبت على مصر منذ الفتح العربى حكومات أجنبية عدة فمن الطولونيين والأخشيديين الى الفاطميين ثم الأيوبيين[1] وجميعهم من عناصر غير مصرية ، ولكنهم سرعان ما كانوا يتأثرون بالبيئة المصرية وينـدمجون فى مدنيتها فيعلنون استقلالهم ويطبعون حكومتهم بالطابع المصرى ، وهكذا احتفظت البلاد بمميزاتها الاستقلالية طول العصور الوسطى ووصلت فيها الى درجة عظيمة من الرقى ، ثم اغتصب "المماليك" الحكم مع الأيوبيين سـنة ١٢٥٠ فحكموا البلاد مستقلين أيضا حكما مستنيرا لا بأس به ولقبوا أنفسهم سلاطين واستطاعوا الاحتفاظ بأملاك مصر فى الشام ، حتى ظهرت قوة الأتراك العثمانيين واتجهت أنظار السلطان "سليم الأول" نحو الشرق فجهز قوة للقضاء على خصومه : الشاه اسماعيل فى فارس والسلطان "الغورى" فى مصر ، فانتصر سليم على الفـرس أولا ، وعلى أثر هـذا الانتصار توترت العلاقات بين سليم والغورى حليف الشاه اسماعيل ، فأعد الغورى حملة كبيرة فى سنة ١٥١٦ وخرج قاصـدا حدود آسيا الصغرى ، والتقى الفريقان قرب حلب فى موقعة "مرج دابق" فانهزم المصريون

(١) الطولونيون (٨٧٠ — ٩٠٥ م) ، والاخشيديون (٩٣٢ — ٩٦٨ م) ، والفاطميون (٩٦٩ — ١١٧١م) ، والأيوبيون (١١٧١ — ١٢٥٠ م) .

لقلة عددهم وسوء أسلحتهم ونظامهم ولظهور الشحناء بين صفوف المماليك وقتل الغورى فى هذه المعركة واستولى العثمانيون على مدن الشام وحصونها ثم دخلوا مصر وحاول " طومان باى " ابن أخى الغورى الذى خلفه حاكما على مصر مقاومة العثمانيين فانهزم فى عدة مواقع آخرها قرب " وردان " سنة ١٥١٧ م وقبض السلطان على طومان باى وشنقه عند باب زويلة ، وهكذا فقدت مصر استقلالها وصارت أيالة عثمانية .

نظام الحكم العثمانى فى مصر :

بعد أن فرغ سليم من جمع ومصادرة التحف والنفائس والجواهر التى كانت تملأ قصور سلاطين المماليك وخزائنهم وضع نظاما يسير عليه الحكم فى مصر بعد مغادرته البلاد ، وقصد السلطان سليم من النظام الذى وضعه إلى غرض أساسى واحد هو ضمان بقاء تبعية مصر للدولة فعمل لهذا القصد وحده دون الاهتمام بمصالح البلاد وترقية مواردها ، ولما لم يكن للعثمانيين مدنية أو آداب خاصة يمكن ادخالها وترويجها فى البلاد التى فتحوها لم يترك نظام حكمهم فى البلاد أثرا ظاهرا باقيا على الرغم من طول بقائهم بالبلاد التى فتحوها .

الباشا :

رأى السلطان أن مصر بمعزل عن أملاك الدولة وأن بعدها عن مقر الحكم فى الاستانة قد يساعد حكامها على الاستقلال عن الباب العالى فوضع نظاما يقضى بتوزيع السلطة على ثلاث هيئات يكون له من تشاحنها ودوام تنافسها ما يضمن استمرار ضعف هذه الهيئات والتجائها الى الملاذ الأعلى بالقسطنطينية ، فجعل السلطة الرئيسية فى يد وال أو حاكم بلقب " باشا " يعينه السلطان لمدة قصيرة تتراوح عادة بين سنة وثلاث ومقره القلعة ووظيفته تمثيل الباب العالى وتبليغ وتنفيذ أوامره وإرسال الجزية وقيادة الجند فى الحرب .

الديوان :

ويعاون الباشا فى الحكم ديوان مكون من ضباط جيش الاحتلال الذى كان يتألف من سبع فرق أو " أوجقه " واحدها " وجاق " وتتكون هذه الفرق من جنود مختلفة الأجناس أهمها فرقة الانكشارية اذ كان لأغا الانكشارية شأن ومركز ليس لغيره من ضباط الفرق. وللديوان حق الموافقة على قرارات الباشا ومراجعته فيما لم يوافق عليه من القرارات ، وله عند الاقتضاء حق عزل الباشا والاتصال رأسا بالباب العالى ، وعند البحث فى المسائل الهامة يجتمع الديوان ويضاف اليه كبار العلماء والمشايخ والأعيان ولا ينعقد الديوان الكبير بهذه الهيئة الا نادرا .

أمراء المماليك :

أما السلطة الادارية المحلية فرأى السلطان أن يبقيها فى يد أمراء المماليك أو " البكوات " وكان فى مقدوره أن يقضى عليهم بعد انتصاره على "طومان باى" ولكنه تركهم ليحفظوا التوازن بين الوالى والديوان، فعين منهم مديرين أو سناجق وكشاف فى الأقاليم .

وأنشأ السلطان ديوانا خاصا للحاسبة وتسجيل الأملاك ونقلها وجمع الضرائب ، وعرف هذا الديوان " بديوان الأفندية " .

استمر هذا النظام نافذا نحو قرن كانت فيه الدولة العثمانية حافظة لمركزها وسمعتها الحربية بين دول أوربا . فلما ظهر ضعف تركيا الحربى وانتشر الفساد والاضطراب داخل الدولة لم يعد النظام الذى وضعه السلاطين العظام سليم وابنه سليمان نافذا بل سطت عليه يد المسخ والتغيير وتدهورت الحال تدريجيا حتى نمت سلطة المماليك رغم أنف ممثلى السلطان ، وجمعوا النقود فى أيديهم وقصروا سلطة الباب العالى على الاسم والخطبة والجزية .

ضعف الوالى :

أما الوالى فصار مقامه بمصر تحت رحمة المماليك ، يقضى أيامه شبه سجين فى القلعة لا هم له سوى جمع المال بكل الطرق الممكنة قبل أن يستدعيه السلطان من البلاد . فاذا أساء التصرف أو ساءت علاقته مع المماليك أرسلوا اليه رسولا يقرأ عليه كلمة " انزل ياباشا " ويطوى البساط أمامه فاذا هو وال معزول لامندوحة له عن مغادرة البلاد .

ضعف الديوان :

أما ضباط الجيش وفرقه وهم أعضاء الديوان فقد تدهورت حالتهم الأدبية وانحطت أخلاقهم على أثر ضعف الباب العالى وانهزاماته ، وأفقدتهم عيشة الخمول والكسل صفاتهم الحربية الأولى فتقربوا من بكوات المماليك وهم إذ ذاك أصحاب الأمر داخل البلاد وقبلوا منهم الوظائف وصاروا من أنصار المماليك وأعوانهم ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الديوان كله من صنائع المماليك وأتباعهم ، وهم الذين يجمعون ويسيّرون أعضاءه متى وكيف شاءوا .

أصل المماليك :

أما البكوات المماليك الذين سادوا البلاد وعاثوا فيها فسادا فى أثناءالعهد العثمانى المظلم فكانوا من بقايا المماليك الجراكسة الذين حكموا البلاد قبل الفتح العثمانى . وأول من استخدم المماليك الأتراك فى مصر خلفاء الفاطميين الذين أرادوا التشبه بالعباسيين فى بغداد ثم جاء الأيوبيون فاشترى الملك " الصالح بن أيوب " عددا يزيد على الألف من رقيق شمالى وغربى آسيا . وكان "المغول" فى ذلك الوقت قد جعلوا يخربون تلك الجهات ويدمرون قراها ويغيرون عليها بين آن وآخر ، فهاجر أهل البلاد ومعهم أولادهم وبناتهم وانتهز تجار الرقيق الفرصة فملئوا الأسواق بالفتيان والفتيات من أهل قفقاسيا وجورجيا والجركس .

المماليك البحرية :

و يعرف المماليك الأول الذين حكموا بعد الأيو بيين من سنة ١٢٥٠ الى سـنة ١٣٨٢ بالمماليك البحرية لأنهم أقاموا أولا فى جزيرة الروضة حيث بنى لهم الملك الصالح قصورا قرب المقياس . وأكثر هؤلاء المماليك من الأتراك وسكان شمالى آسيا وكانوا فى حكمهم يتبعون النظام الوراثى عادة واشتهر من سلاطينهم الظاهر بيبرس (١٢٩٣ — ١٣٤١ م) والناصر بن قلاوون (١٣٤١ م) .

المماليك الجراكسة :

أما المماليك الجراكسة فأصلهم من جورجيا والقفقاز و بلاد الجركس وقد حكموا من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧ ، وكانوا لايتقيدون بنظام خاص فى الحكم بل كان الأمر للغالب المنتصر من الأمراء . ومن أشهر سلاطينهم الظاهر برقوق (١٣٨٢—١٣٩٨)والغورى(١٥٠١—١٥١٦م).

نشأة المماليك :

ولما كان المماليك مترفعين عن الاختلاط بأهل البلاد اعتمدوا فى زواجهم وحروبهم على ما كانوا يشترونه من الرقيق الجركسى فتيانا وفتيات . وكان الغلمان يدر بون منذ نعومة أظفارهم على أعمال الفروسية والحرب والصيد و يعلمون القراءة والكتابة والقرآن وشيئا من الدين . فاذا كبر الغلمان و بلغوا الثامنة عشرة وظهرت لحاهم حررهم ساداتهم ومنحوهم مالا وأرضا وجوارى ورقوهم الى رتبة البكوية فيتزوجون و يؤسسون بيوتا يملئونها بالرقيق كسادتهم[1] ولم تكن الروابط بين السادة والأتباع شبيهة بالروابط الاقطاعية التى سادت فى أور با فى العصور الوسطى ، فهذه كانت مبنية

---

(١) من المماليك من كان يملك من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مملوك . أما رؤساؤهم كابراهيم بك فكانوا يملكون من ٦٠٠ الى ٨٠٠ مملوك .

على أسس اقتصادية أهمها ملكية الأرض والولاء بين السيد وتابعه ، وأما العلاقات بين المماليك وأساتذتهم فلم تكن مؤسسة على أية قاعدة سوى مجرد الرغبة والشهوة الوقتية .

شيخ البلد :

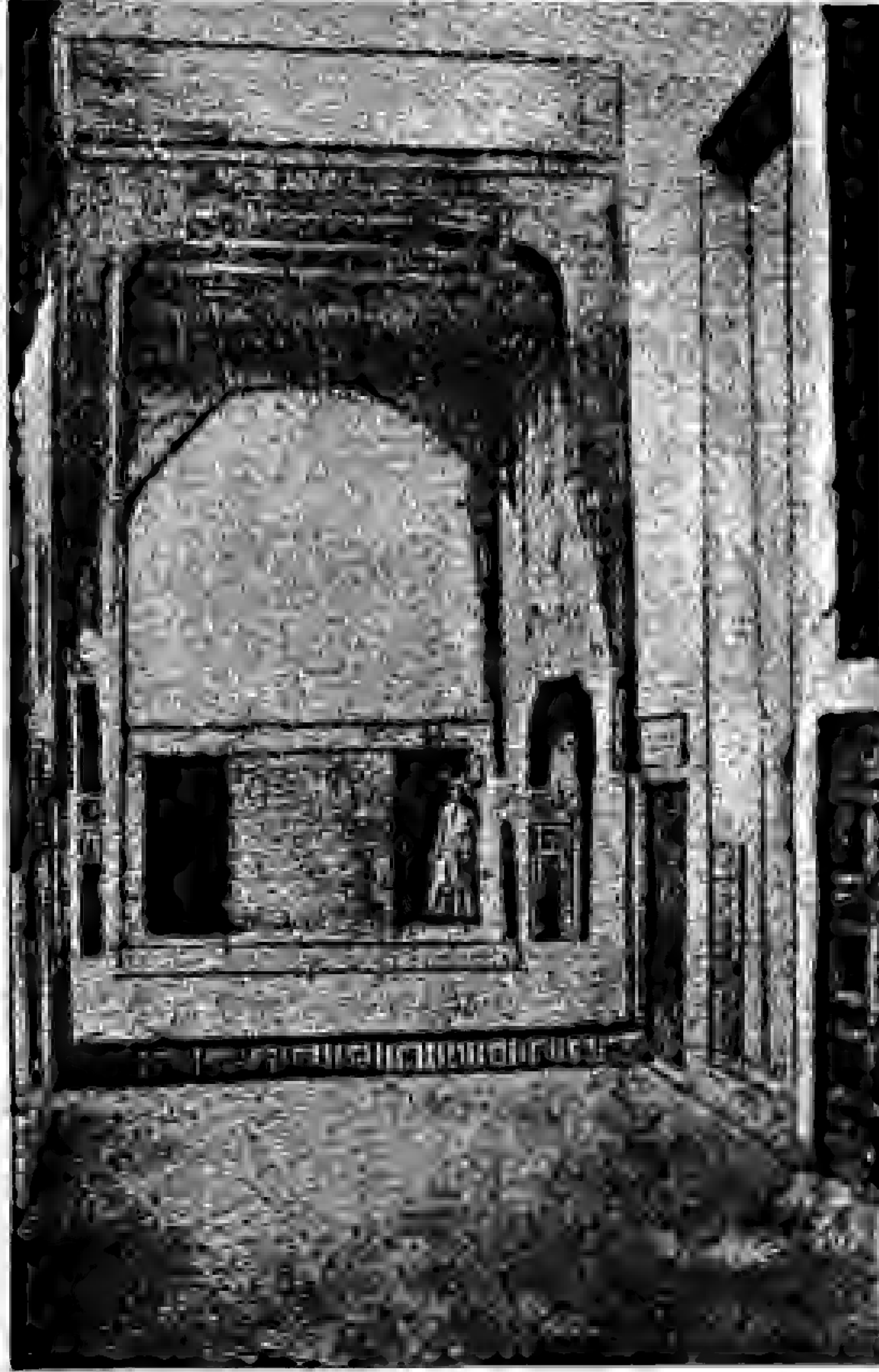
ولما كان الوصول الى الزعامة والحكم لايجيء الا عن طريق التغلب والقوة كان المماليك فى أثناء قيام دولتهم وفى العهد العثمانى فى حروب ومنازعات حزبية مستمرة غايتها الوصول الى الرياسة . ويعرف رئيس المماليك "بشيخ البلد" ومقره القاهرة ومتى ظفر بأعدائه استولى على أموالهم وجواريهم وأملاكهم .

زى المماليك :

وكان المماليك يعيشون عيشة البذخ والنعيم فيرتدون المنسوجات الهندية الرفيعة ، وفوقها القفاطين الحريرية ذات الأكمام التى تتدلى الى أطراف أصابع اليد ثم الجبب ذات الفراء الغالية والسراويل الواسعة من الجوخ الذى كان يرد من فرنسا ثم يتمنطقون بأحزمة حريرية مثبتة فيها الأسلحة المختلفة ويضعون على رءوسهم عمامات من النسيج الرفيع (الشاش) وكانوا يمتطون الخيول العربية الكريمة المطهمة والمزركشة بالفضة والذهب والأحجار الكريمة .

نظامهم الحربى :

ولم يكن للمماليك نظام عسكرى بل كانوا يعتمدون على أنفسهم وأتباعهم للدفاع عن البلاد وكانوا جميعا من الفرسان. أما نظام المشاة فلم يعرفه المماليك وكان محتقرا فى نظرهم غير أنهم كانوا يأخذون معهم الى الحرب عددا كبيرا من الخدم المصريين يقومون بحاجاتهم وحاجات خيولهم . واذا خرجوا للحرب لم يتبعوا قوانين خاصة بل اعتمدوا على الكر والفر السريع وعلى النزال



قاعة استقبال داخل بيت أحد كبراء المماليك

الفردى . وكانوا كفرسان أوربا فى العصور الوسطى اذا أعوزتهم الحروب الحقيقيــة فى الداخل أو فى الخارج لجئوا الى حفلات يقيمونهـا فى الموالد والمواسم للسابقات الرياضية والنزال الفردى مستعملين العصى الطويلة بدلا من الأسلحة والمزاريق .

مساكنهم :

وكان المماليك يسكنون قصورا فخمة منسقة تنسيقا بديعا تتجلى فيه آثار الصناعة العربية الدقيقة، يراها الناظر من الخارج فلا يأبه لها حتى اذا دخلها وجد لهـا فناء واسـعا تحيط به أشجـار الفاكهة ومختلف الأزهار والعطور وتجرى فى عرصاته جداول المـاء فيهب من فوقها النسيم رطبا حتى فى أشدّ ساعات القيظ ، أما الأثاث والرياش والمآكل والمشرب وموائد الطعام والجوارى الحسان ، فكانت مضرب الأمثال من حيث الوفرة وحسن التنسيق والجمـال .

حال الفلاح :

مثل هـذه العيشة عيشة البذخ والترف والنعيم التى كانت تكلف الواحد من بكوات المماليك ٢٥٠٠ جنيه كل سنة على المتوسـط جعلتهم يبالغون فى ظلم واضطهاد الفلاحين من أهل البـلاد الذين صاروا كرقيق الأرض ليس لهم حقوق أمام ساداتهم المـماليك بل جل عملهم أن يدبروا الثروة اللازمة لتهيئة أسـباب النعيم والرفاهيـة للماليك وكانوا كلما ساءت الحـال الاقتصادية فى البلد وزاد فقر الفلاح زادوه ظلما وقسوة وعدوانا ، وكلمـا اشتبهوا فى ثروة واحد منهم عذبوه حتى يبتزوا منه آخر قرش ادخره. ومعنى ذلك أن ثمانيــة آلاف من المـماليك (وعددهم كان يتراوح بين ٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠) كانوا يتحكمون فى رقاب مليونين ونصف مليون من السكان ويستغلون ثروتهم ويستعبدونهم لأجل مصالحهم الخاصة؛ وبدلا من العمل على انماء ثروة البلاد ومواردها عمل المماليك على نقصها وافسادها ولا غرابة

فى ذلك فالمماليك جماعة لم تربطهم بالبلاد روابط وطنية أو أسرية لأنهم اعتمدوا على ما كانوا يبتاعونه من الرقيق ولم يصاهروا الأهالى . زد على ذلك أن شغفهم بالحروب وأعمال الفروسية وعدم ملاءمة الجو لأكثرهم قد ساعد على تقصير أعمارهم وعدم بقاء أسراتهم طويلا فى البلاد . لذلك لم يرحموا أهل البلاد ولم ينظروا فى مصلحة أحد سوى ارضاء ملاذهم وشهواتهم .

لذلك ساءت حال الفلاح وتناوبته المجاعات والأوبئة إذ كان قوام طعامه الذرة وقليل من البصل ، ولا يلبس سوى قميص من القطن أو الكتان ويسكن فى أكواخ حقيرة قليلة المنافذ يعيش فيها هو وأسرته ومواشيه أضنك عيشة . ولولا جو البلاد الصحى وانتظام فيضان النيل الطبيعى وما عرف عن أمراء المماليك من الكرم لكان مصاب الفلاحين ونصيبهم من الحياة أدهى وأمر .

ومع ذلك وعلى الرغم من سوء حالة البلاد الاقتصادية استطاع المماليك أن يحتفظوا بمراكزهم وبقوتهم أكثر من قرنين بعد الفتح العثمانى . ويرجع تفوق المماليك وبقاؤهم فى مراكز قوتهم الى الأسباب الآتية :

أسباب تفوق المماليك

١ — حيويتهم :

إن المماليك كانوا العنصر الحى القوى فى البلاد دون العناصر والهيئات الأخرى ، فقد رأينا أن سلطة الوالى والجيش قد تدهورت وانحطت وأن الأهالى لم يكونوا سوى آلات مسخرة لجمع الثروة فى خزائن المماليك ، ويظهر أن المماليك بسبب شغفهم بالحرب والنزال قد حافظوا على حيويتهم ونشاطهم وبذلك برهنوا على صدق نظرية القائلين بأن الحرب أعظم مساعد على بقاء واستمرار أصلح العناصر وأقواها .



نافورة وسط بيت من بيوت أمراء المماليك

٢ — عصبيتهم :

ولا ننسى قوة عصبية المماليك فانهم لم يندمجوا فى المصريين كغيرهم من الشعوب ، بل ظلوا محتفظين باستقلالهم الجنسى دائبين على ملء صفوفهم بشراء الرقيق وتدريبه . ثم انهم وحدوا قواتهم برياسة زعيمهم شيخ البلد أو حاكم القاهرة ، وكانوا على الرغم من منازعاتهم وحروبهم الحزبية قوة واحدة فى وجه العدو المشترك كالأتراك وغيرهم من الأجانب .

٣ — اتصالهم بالأهالى :

أضف الى ذلك أن المماليك كانوا أكثر الهيئات اتصالا بأهل البلاد وعاداتهم وعلما بلغتهم وحيلهم ، وانهم لذلك كانوا أعرف الناس بحكم داخلية البلاد ، وكان كثير من المماليك على درجة عظيمة من التفقه فى اللغة والشريعة والدين .

٤ — ضعف تركيا :

ثم ان هناك سببا لولاه ما استطاع المماليك أن يجمعوا السلطة فى أيديهم وذلك أن حالة الدولة فى الداخل والخارج قد حالت دون ارسال الحملات الكفيلة باسترجاع نفوذ الباب العالى .

ظهور على بك الكبير وإعلان الاستقلال :

وليس أدل على عظم قوة البكوات المماليك فى ذلك العهد من ظهور "على بك الكبير" الذى صار فى سنة ١٧٥٧ شيخا للبلد ثم مالبث أن أدرك الحقيقة الواقعة ، وهى أنه ليس للعثمانيين ما يبرر وجودهم فى البلاد وأن المماليك هم أصحاب السلطة الحقيقية ، فعمل على اخراج الفكرة الى عالم الوجود ، فجعل يزيد فى اتباعه ويستميل البكوات اليه حتى استطاع

فى سنة ١٧٦٦ أن يعان استقلاله فأرسل الباشا أو الوالى الى القسطنطينية وامتنع عن دفع الجزية وسك النقود باسمه واتخذ لنفسه لقب "سلطان مصر" مجددا بذلك عهد المماليك الأول . ورأى على بك أن يقوى جانبه وخاصة من الناحيــة المعرضة لهجوم الأتراك فاتحد مع "شيخ ضاهر" أمير عكا وبفضل هــذا التحالف أمكنه أن يصد القوات العثمانية التى كان يجمعها ولاة سوريا بأمر السلطان ضد على بك ، ولمـا أمن جانب العثمانيين انتهز فرصة اشتغال تركيا بحروبها فى أوربا فوجه عنايته الى اصلاح حال حكومته ، فعنى بالتجارة الخارجية وسهل مواصلاتها ، وأزل الرعب فى قلوب عربان الصحراء فانتشر الأمن وحصل على المـال اللازم لاعداد جيوشه وحملاته .

فتوحاته :

وكان على بك يعلم ماينتاب الدولة العلية حينئذ من المحن والبلوى فى الداخل والخارج . وانها لذلك لاتقوى على ارسال حملة الى مصر فى وقت انحطت فيه سمعة تركيا الحربية أمام قوات النمسا وروسيا وبولونيا ، فجهز على بك حملة احتلت "اليمن" وأخرى احتلت "جده" و "مكه" ولم تمض ستة شهور حتى خضعت شـبه جزيرة العرب وامتدت سلطة "على بك" على سواحل البحر الأحمر وتجارته وصارت جدة مركزا تجاريا هاما . واستحق على بك لقب "سلطان مصر وخاقان البحرين" .

وفى سنة ١٧٦٩ أعد لفتح ســوريا قوة تبلغ ٤٠٠٠٠ رجل من هؤلاء ٥٠٠٠ من فرسان المماليك و ١٥٠٠٠ من البدو وعين لقيادتها أحب أتباعه اليه محمد بك المعروف "بأبى الذهب" . وكان غرضه من هذه الحملة ضمان سلامة ملكه وتأمين حليفه "الشـيخ ضاهر" ضد تعدى قوات السلطان ومهد على بك الطريق لفتوحه فى سوريا بتوثيق العلاقات وإحكام الروابط بينه وبين أعداء تركيا مثل الروس والبنادقة .

حملته فى سوريا :

ولما دخلت جنود على بك فى سوريا انضمت اليه قوات الشيخ ضاهر ، وسرعان ما استولت على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ، ثم حوصرت " دمشق " بضعة أيام وأخيرا سلمت ، وكان هذا النصر منتهى ما وصلت اليه قوة على بك اذ استطاع الأتراك أن يعوضوا من خسارتهم فى الحرب تفوقهم فى السياسة والدسيسة فاستمالوا الى جانبهم محمد بك أكبر قواد على بك ومنّوه بتوليته حكومة القاهرة ، فعمل على كسب ثقة بعض المماليك وغادر الجميع سوريا بجأة ودخلوا مصر قاصدين الصعيد وهناك استعدوا لملاقاة على بك ، ولما كان أكثر اتباع على بك قد انضم الى محمد بك لم يجد بدا من مغادرة البلاد الى " عكا " ثانية ، وهناك بدأ يجهز جيشا لاسترداد أملاكه فنجح فى سوريا ثم قصد مصر .

وفاته :

وكان محمد بك قد أرصد له من يداهمه فى الطريق فوقع أسيرا وكانت صحته قد تأثرت كثيرا لشدة حنقه وغيظه فمات بعد أيام سنة ١٧٧٣ . ويعد على بك أكبر الشخصيات التى ظهرت فى ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر ، وأعماله تعد سابقة لأعمال محمد على العظيم ، فلا غرابة اذن أن عرف اسمه فى التاريخ " بالكبير " ، ولم يخلفه فى مواصلة مشروعاته أحد من المماليك .

خلفاء على بك الكبير :

ولما مات على بك صار " أبو الذهب " شيخا للبلد وعادت سلطة الباب العالى الى ما كانت عليه فعادت الفوضى والأوبئة والمجاعات ولم يطل عهد أبى الذهب بل مات بعد عامين ، وتنازع ثلاثة من زعماء المماليك على مركز الرياسة بعده وهم البكوات " اسماعيل " و " ابراهيم " و " مراد " فاتحد الأخيران على الأول وأخذا السلطة بيدهما وصارا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج أى السلطتين الادارية والحربية ، فكان ابراهيم بك عادة شيخ البلد ومراد بك أمير الحج وقائد الجند ، وجعلا يتنازعان ويسيئان حكومة البلاد حتى جاء الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨

الحالة الاقتصادية

أثر تحول طريق التجارة :

إن أهم حادث أثر فى مصير البلاد السياسى والاقتصادى معا فى مبد العصور الحديثة هو تحول طريق التجارة بين أوربا والشرق الى طر رأس الرجاء الصالح الذى كشفه " فاسكوده جاما " البرتغالى سنة ٩٨. بعد أن كشف " كولمب " طريق الدنيا الجديدة ، فأحدث هذ الاستكشافان انقلابا ذا شأن فى عالم التجارة اذ انتقل المركز التجارى العا من حوض البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الأطلسى وكان لهذا الانتق أسوأ أثر فى تجارة الدول التى تمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط كالبند ومصر .

وكانت مصر قد وصلت فى العصور الوسطى وهى التى تنتهى بانتهد القرن الخامس عشر الى درجة عظيمة من الثروة والرقى فى جميع شؤونها ح كانت أوربا فى ذلك الوقت فى حالة جهل وجمود عظيمين . فقد خلف أصحاب الأمر فى مصر حينذاك آثارا بديعة من نماذج الصناعة العربية تد على ما كان لهم من وفرة المال وعظيم الجاه . وما ذلك الا لأن موار ثروتهم لم تكن مقصورة على ما كانت تنتجه أرض مصر من المحصولا الزراعية بل كانت خزائنهم تفيض بأموال الأجانب من تجار " البندقية و " جنوه " الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق الى أوربا ويدفعو عنها ضرائب ونفقات مختلفة كانت سببا فى اثراء الحكومة والأهالى معا وكانت مصر حينذاك قابضة على طريق التجارة بين الشرق وأوربا : طريق نهر الفرات وحلب واسكندرونه ومنها الى أوربا ، وطريق البحر الأحم والسويس ومنها بطريق القوافل الى القاهرة ثم على السفن فى فرع رشيد الى قرب الرحمانية على النيل ومنها الى الاسكندرية إما بطريق الترعة التى

كانت توصل بين النيل والاسكندرية ثم انسدت وبطل عملها واما على ظهور الدواب. ومن الاسكندرية تنقل الى موانى ايطاليا ومنها الى ممالك أوربا المختلفة .

فلما تحول طريق التجارة من مصر الى رأس الرجا الصالح حرمت مصر من مرور تجارة الشرق ونضبت منابع الثروة التى كانت تفيض عليها وتملأ خزائنها ذهبا وفضة ، تلك الثروة التى ظهرت آثارها فيما خلفته دولة المماليك فى مصر من مختلف الآثار البديعة مما دعا الناس الى القول بأن مصر يومئذ كانت مهد حكاية ألف ليلة وليلة .

وأراد البرتغاليون فى ذلك الوقت أن يحولوا دون استعادة مصر مركزها التجارى ففكر المستكشف البرتغالى الشهير "البوكرك Albuquerque" فى مشروع شيطانى يقضى بتحويل مجرى النيل حتى يصب فى البحر الأحمر لا الأبيض المتوسط وحاول الغورى سلطان المماليك فى مصر فى ذلك الوقت بالاتفاق مع البنادقة القضاء على قوة البرتغال الاستعمارية فى الشرق فجمعوا أسطولا حاربوا به فى البحر الأحمر فانتصروا فى أول الأمر ثم دارت عليهم الدائرة وانهزموا انهزاما حاسما فى موقعة " ديو " أمام بمباى سنة ١٥٠٩ ، وبهذه الموقعة تقوى مركز البرتغال فى الشرق ، وبدأت الدول الغربية التى تمس سواحلها المحيط الأطلسى تبنى نفوذها التجارى والاستعمارى فى الشرق . أما مصر فأخذت تضعف تدريجيا حتى أصبحت ايالة عثمانية سنة ١٥١٧ وظلت بعد ذلك نحو ثلاثة قرون فى تأخر وعوز اقتصادى عام مما جعل عهد العثمانيين من أنكد عصور التاريخ فى مصر .

ولما ضعفت صلات مصر بالخارج ولم يعد لمصر ذلك المركز التجارى الهام، ولم تعد البلاد تنتج للأسواق الخارجية كثيرا بل اقتصرت فى انتاجها على قدر حاجات أهلها وساداتها المماليك وقف دولاب العمل وقلت موارد البلاد وصارت الحكومة فى حاجة زائدة الى المال تجبيه أو تصادره من الملاك والتجار الوطنيين والأجانب الذين يجرأون على احراز الثروة ، وكثيرا ما كان يشتد العوز فى البلاد وتتهددها المجاعات والأمراض من حين الى

آخر لعدم عناية المماليك بشؤون الزراعة ، وهى المورد الوحيد لثروة البلاد وبالمنافع العامة كتطهير الترع واقامة القناطر وتحسين طرق الرى وتوزيع مياهه .

انحطاط الاسكندرية :

ولما كسدت التجارة انحط شأن الاسكندرية وصار سكانها لا يزيدون على ٨٠٠٠ نفس وقل عدد الأجانب فيها ، ومن بقى بها صار مهددا بتعدى الحكومة واضطهادها ، وساعد على اضمحلال الاسكندرية انسداد الترعة التى كانت توصلها بفرع رشيد ، ووجود قرصان البحر بكثرة فى البحر الأبيض والبحر الأحمر ، وتعرض السفن فى ميناء الاسكندرية للرياح دون وجود أى موئل لها .

علاقات مصر التجارية :

وعلى الرغم من ذلك لم تبق مصر دون تجارة خارجية ، فقد كانت بينها وبين تركيا وفرنسا والحبشه واليمن وبلاد العرب علاقات تجارية ، وقدقدر السائح الفرنسى "فلنى Volney" الذى ساح فى مصر وطبع سياحته سنة ١٧٨٧ قيمة تجارتها الخارجية أى قيمة صادراتها ووارداتها بمبلغ خمسة عشر مليونا من الجنيهات وهو مبلغ عظيم لا يخلو من المبالغة ، أما أهم صادرات البلاد فكانت الغلال والأرز والصمغ والبن والشمع مما كان يرد اليها من السودان والحبشة الخ ، وأهم الواردات المنسوجات الصوفية والحريرية والمعادن .

حالة الصناعة :

أما الصناعة فانها تأخرت لنفس الأسباب التى أثرت فى الحالة الاقتصادية العامة ، وأصبحت مقصورة على عدد قليل من الصناعات الرائجة أهمها المنسوجات وصناعة السكر والزجاج ودبغ الجلود . وكانت القاهرة أهم مركز

صناعى فى القطر، وكان للصناعات نقابات تجمع بين أفراد الطوائف المختلفة ولكل حرفة شيخ مسئول أمام الحكام عن كل مايطلب من أفراد طائفته فعليه جمع العوائد والأعطية التى تفرض على الصناع ، وله أن يقضى بين المتنازعين من أفراد الطائفة وأن يراقب حالة السوق .

نظام الأرض :

أما نظام الأرض فى مصر فقد بقى كما كان منذ عصور الفراعنة اذ كانت الأرض ملكا للملك ، والملوك هم الذين كانوا يولونها الأتباع ، واستمر الحال كذلك الى أن جاء الفتح العثمانى فقرر السلطان سليم بعد أن مسح أراضى القطر أن الأرض ملك للسلطان بمعنى أن مالكها له "حق المنفعة" أو الانتفاع بثمرها دون الأرض، أما الملاك فأصبحوا كأنهم مستأجرون تعود أملاكهم الى بيت المال بعد موتهم الا اذا اشترى ورثتهم الأرض من جديد بدفع مبلغ معين، لذلك عين السلطان موظفا خاصا بلقب الدفتردار لتسجيل جميع أراضى القطر وفرض على كل فدان من الأرض مساحة ٤٠٠ قصبة مربعة ضريبة معلومة .

الالتزام :

ولما كان الأتراك مسيطرين فى البلاد كانت الضرائب تصل الى الديوان من غير صعوبة ، فلما لم يصبح لموظفى السلطان أقل نفوذ داخل البلاد وعجزت الحكومة عن تحصيل المال المطلوب لجأت الى طريقة "الالتزام" وقد انتشرت هذه الطريقة فى منتصف القرن السابع عشر ولو أنها لم تكن مجهولة قبل ذلك .

"والالتزام" أن يتكفل من يشاء من أكابر البلاد سواء أكانوا من المماليك أم الأتراك أم التجار بتحصيل الخراج للحكومة فى قرية واحدة أو فى عدة قرى بالاتفاق أو بالمزايدة ، فيدفع الملتزم للخزانة مال سنة واحدة

معجلا ثم تترك له حرية التصرف فى دائرة التزامه ، وللملتزم أن يحصل على صك الالتزام من " شيخ البلد " أو كبير أمراء المماليك . وكان الالتزام فى بداية الأمر يعطى لمدة محدودة ولكن آل الأمر الى اعطائه لآخر العمر وللملتزم أن يبيع التزامه اذا شاء بشرط اخطار " الرزنامة " أو بيت المال وشيخ البلد . واذا مات الملتزم ورثه فى دائرة التزامة أبناؤه أومن يوصى لهم فاذا لم يكن له وارث رجعت أراضيه الى بيت المال ، وعلى كل حال كان على الوارث أو الموصى له أن يطلب ترخيصا بالالتزام بعد دفع مبلغ معين وبذلك صار للالتزام صفة شبه وراثية قانونية لمعظم أراضى القطر التى صار كل جزء منها مربوطا باسم أحد الملتزمين على الرغم من أن أصحاب الأرض من الفلاحين كان لهم حق الانتفاع بأرضهم وحق التصرف فيها نظريا .

وبفضل صك الالتزام أو " التميقة " التى كانت تخول للملتزم حق التصرف فى القرى والتى بمقتضاها صار على الأعيان والمشايخ أن يساعدوا الملتزم فى تحصيل الضرائب حل الملتزم محل الحكومة فى دائرة التزامه وصار مطلق التصرف فى معاملته للفلاحين وخاصة فى القرن الثامن عشر حين حلت الفوضى محل الحكومة فى ادارة البلاد فكان الملتزم يعين مشايخ القرى والمباشرين من الأقباط لاجراء الحساب اللازم . وكان للملتزم فوق التزامه من الأرض أراض خاصة له تعرف بأرض " الوسية " وكانت معفاة من الضرائب مقابل ما يقوم به الملتزم من التكاليف وتقوم بفلاحتها القرية بطريق السخرة .

أرض الوقف :

على أن جزءا عظيما من الأرض كان موقوفا على المساجد والأعمال الخيرية ويعرف بأراضى الوقف وهى التى لا يجوز فيها التصرف بالبيع ، وكانت معفاة من الضرائب ، وبسبب اضطراب الأمن وخوف أصحاب الأملاك من عبث العابثين بها بعد وفاتهم زادت هذه الأراضى زيادة عظيمة ووصل

الحال الى أن خيف أن تصبح أرض مصر كلها موقوفة ، فاشترطت الحكومة أن لايتم وقف الا باقرارها ، وكان معظم هذه الأراضى الواسعة فى يد كبار العلماء يستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة .

الضرائب :

وكانت ضريبة الخراج أو "الميرى" التى يجمعها الملتزمون إما نقدا وإما من نفس المحصول وتقسم ثلاثة أقسام : قسم لبيت المال ويعرف "بالميرى" وقسم للسنجق أو للكاشف ويعرف "بالكشوفية" ، وقسم يبقى للملتزم باسم "الفائض" وكانت "الجزية" ترسل من مال الميرى وتقدر باثنى عشر ألف كيس فى كل كيس خمسة جنيهات مجيدية (أربعة مصرية) ولم يكن المماليك حريصين على ارسال الجزية بانتظام فى الجزء الأخير من الحكم العثمانى بل كانوا أحيانا يوقفون ارسالها وكثيرا ما كانوا ينتحلون الأعذار لانقاصها كتطهير الترع وبناء القناطر وهى أعمال كان المماليك يهملونها تماما وكان الملتزمون يتعسفون فى جمع الضرائب ويرهقون الفلاح الذى كان عليه دفع الجزء الأكبر من الضرائب ارهاقا دعا الفلاحين الى هجرة أراضيهم .

الحالة الفنية والعلمية

اذا أردنا أن نعرف مبلغ التأثير الذى نشأ عن تحول طريق تجارة الشرق من مصر فى الحالة الفنية فما علينا الا أن نوازن بين الآثار التى خلفها سلاطين المماليك وبين الآثار المخلفة من عهد العثمانيين ، فالأولى تنم عن ثروة وقوة وذوق ومهارة ، وأما الثانية فتدل على ما لحق البلاد من نقص فى الثروة وانحطاط فى الصناعة . وأكثر ما نشاهده فى القاهرة من الآثار العربية التى تزدان بها القاهرة هو من آثار دولة المماليك البحرية والشراكسة ، ومن أبدع نماذج ذلك العصر مساجد السلطان حسن والمؤيد وبرقوق وقلاوون وكلها تنبئ عن عظمة داخل البناء وخارجه ودقة فى الصناعة وجمال فى الزخرفة والبناء .

المبانى :

أما المبانى فى العصر العثمانى فكان الغالب فيها النمط البوزنطى وقد نقله الأتراك عن الأغريق ،وأهم مظاهره القباب التى صارت أهم مميزات المساجد فى ذلك العصر بعد أن كانت القباب رمزا للأضرحة من قبل ومن مظاهره أيضا استعمال "القاشانى" وهو نوع من الفخار مكسو بطلاء أبيض أو ملون عليه رسوم هندسية أو نباتية . ومن مظاهره المنائر الأسطوانية والسبل التى كانت تبنى عادة منفصلة وفوقها المكاتب وأحيانا تابعة للمساجد .

وعلى العموم قلت مساحة المساجد عما كانت عليه وذلك مراعاة للاقتصاد بسبب سوء الحالة كما قلت الدقة فى الصناعة أيضا . على أن هناك آثارا عثمانية جميلة بنيت فى العهد العثمانى كسبيل خسرو باشا بالنحاسين والمبانى التى جددها أو بناها الأمير "عبد الرحمن كتخدا" ومنها تجديد بناء الأزهر والسبل والمكاتب الواقعة قرب مسجد السيدة زينب وفى درب الجماميز .

الحالة العلمية :

أما الحالة العلمية والأدبية فقد تأثرت أيضا كغيرها وصار العلم مقصورا على ما كان يعلم بالأزهر من الموضوعات وأهمها القرآن الكريم والعلوم العربية والشرعية ، والمنطق والجدل وعلم الكلام وقد ينبغ من بين المشايخ أحيانا من يكتب النثر ويقول الشعر وأكثره كلام مقفى لا أثر فيه للمعانى المبتكرة أو العواطف النفسية والانسانية . وان الانسان لتتولاه الدهشة حين يقرأ شيئا لمشايخ الأزهر أو علمائه فى ذلك الوقت اذ ترى فيه نقصا ظاهرا وغلطا فاحشا فى التعبير والتفكير .

منزلة العلماء :

أما الأبحاث والتجارب العلمية فلم تكن معروفة بالمرة بل ساد الاعتقاد بين الناس فى التعاويذ والخرافات والخزعبلات والبدع مما لا يزال يملأ أذهان

العامة للآن، لذلك عظمت منزلة العلماء اذ لا بد أن يظهر للعالم قيمة مهما قل علمه مادامت البيئة تسود فيها الجهالة والسذاجة ، فصار للمشايخ منزلة تشبه ما كان لرجال الدين فى أوربا فى العصور الوسطى ، أما مصادر تلك القوة ، فأولها اعتقاد الناس فى صلاح العلماء وتقواهم ومعرفتهم ، ثم تظاهر العلماء وادعاءاتهم ، وأخيرا ما كانوا فيه من الثروة الطائلة بسبب أراضى الوقف التى كانوا يقامون نظارا عليها و يستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة ، وهذا هو أهم أسباب قوتهم فى ذلك العصر الذى كان فيه العلماء أهم عنصر يمثل البلاد و يتولى الكلام باسمها ويذود عن حقوق أهلها و يخطب وده الحكام سواء أكانوا عثمانيين أم مماليك ، وسنرى شأن العلماء وماقاموا به من الأعمال فى عهد الحملة الفرنسية وعهد محمد على .



أسباب انصراف أوربا عن مصر :

بعد أن عرفنا مبلغ درجة الضعف العام الذى كانت عليه البلاد لم يبق سوى مسألة واحدة وهى بحث الأسباب التى منعت أوربا من توجيه سياستها الاستعمارية نحو مصر رغم ضعفها طول ذلك الوقت الى أن جاءت الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر .

أولا — ان دول أوربا كانت مشتغلة بتكوين مستعمرات فى آسيا وأمريكا وهى الجهات التى كان يحصل منها الأوربيون على كنوز عظيمة من الثروة من معادن نفيسة وأحجار كريمة وحرير وعطور وجواهر و بسط ، فانصرف الأوربيون عن الاهتمام بأمر أفريقية . وقد دب التنافس بين الدول عامة وخاصة بين فرنسا وانجلترا بشأن امتلاك المستعمرات فى آسيا وأمريكا فقامت حرب السنوات السبع ١٧٥٦ — ١٧٦٣ واشتركت فيها معظم دول أوربا . ولما حاولت فرنسا فى هذه الحرب أن تحتفظ بتفوقها فى أوربا علاوة على ما كان لها من المستعمرات مما دعا الى توزيع جهدها بين قوتيها

البرية والبحرية أخفقت فى الغرضين ، فى حين أن انجلترا وجهت اهتمامها الى مستعمراتها وقوتها البحرية وساعدها مركزها الطبيعى على عدم الاهتمام بقوتها البرية فانتصرت فى النهاية على فرنسا التى فقــدت كل مستعمراتها وراء البحار ولم يبق لهــا سوى بضع جزائر وعدد من المحطات التجارية . أما دولة فرنسا الاستعمارية التى تملكها الآن فقد تكونت فى القرن التاســع عشر وأكثرها تكوّن فى النصف الأخير منه .

ثانيا — أن دول أوربا كانت تخشى فتح باب المسألة الشرقية لاختلافها فيما بينها على توزيع أملاك "الرجل الضعيف" وخاصة فيما يتعلق بالبوغازات والبلقان فكانت الدول تعلن بين حين وآخر رغبتها فى حفظ كيان الدولة وعدم مس أجزائها حتى لا يتسبب عن ذلك ضعف تركيا ضعفا يغرى بهــا الروسيا فتنفــذ الى البحر الأسود ومنه الى البحر الأبيض وتعرقل مصــالح الدول ذات الشأن كانجلترا أو فرنسا والنمسا فلا يبعد أن تنشب حرب أوربية عامة على أثر ذلك .

لذلك لم يكن من السهل من الوجهة الدوليــة أن تمتد يد فرنسا مثلا الى مصر دون أن تكون موطنــة النفس على اثارة حرب ضروس بينها و بين الدول . على أن الدول ما كانت تحجم عن الانتفاع بالفرص السانحة فتزدرى بتصريحاتها النظرية وتنقص الدولة من أطرافها ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

———————

الفصل الثـانى

مشروع الحملة الفرنسية على مصر

حملة سان لوى :

العلاقات بين فرنسا ومصر قديمة ترجع الى أيام الحروب الصليبية حين خرج ملك فرنسا المحبوب "سان لوى" أو لويس التاسع فى حملته الصليبية على مصر ١٢٤٨ — ١٢٥٢ وهى التى انتهت بهزيمة لويس ومن معه من الفرنسيين عند "المنصورة" و"دمياط" وأخذ لويس أسيرا ولم يفك أسره إلا بعد دفع دية عظيمة من المـال وذلك فى عهد الملك "الصالح أيوب" وابنه توران شاه ، وعلى الرغم من انهزام الفرنسيين واندحار نحو ثلاثين ألفا منهم فان الحملة وارتباطها باسم الملك "القديس لويس" قد تركت أثرا نفسيا دينيا لا يمحى من أذهان الشعب الفرنسى .

معاهدات الامتيازات :

ثم تقوت مصالح فرنسا فى مصر وغيرها من أملاك الدولة العثمانية عنـد ما تعاقد الملك "فرنسوا" الأول مع السلطان "سليمان القانونى" فى سنة ١٥٣٥ ضد الامبراطور شارل الخامس وكانت هذه أول معاهدة بين تركيا واحدى الدول الأوربية فنـال الفرنسيون منذ ذلك الوقت فى أملاك الدولة مركزا خاصا ممتـازا دعا غيرهم من الأجانب الى التشبه بهم ، فعقدوا مع تركيا معاهدات مشابهة للمعـاهدة الفرنسية . وتعتبر التسهيلات والاعفاءات التى نالها الفرنسيون وغيرهم بفضل هـذه المعاهدة أساسا للامتيازات الأجنبيـة التى كان المقصود منها أولا حماية الدولة لرعايا الدول صاحبـة الامتيازات لا حقوقا مكتسبة يتمتع بها الأجانب على حساب الدولة صاحبـة الحق كما صارت الحال عند ما بدا ضعف الباب العالى وحكومته .

وكما أن معاهدة سـنة ١٥٣٥ قد كدرت أوربا من فرنسا لاتفاقها مع السلطان ضد الامبراطور فانها أكسبت فرنسا فى أنحـاء الدولة امتيازات أدبية وسياسية ودينيـة لا يزال أثرها باقيا للآن فقد كانت فرنسا الى زمن قريب تعتبر حامية للشعوب الكاثوليكية فى الشرق الأدنى .

مشروع ليبنتز :

وفى سـنة ١٦٧٢ حينما كان لويس الرابع عشر يحارب هولندا الصغيرة ويعاقبها جزاء معارضتها لمشروعاته جاء "ليبنتز Leibnitz" أحد الفلاسفة الألمـان ، وكانت له شهرة ذائعة فى أوربا بمشروع يقترح فيـه على لويس إعداد حملة للاسـتيلاء على مصر بدلا من محاربة هولندا فى ديارها مبينا أن هـذا هو السبيل الوحيد للنيل من هولندا التى كانت أولى الدول استعمارا فى الشرق. غير أنه لمـا كان غرض لويس من محاربة هولندا هو تفوق فرنسا فى أوربا أهمل مشروع "ليبنتز" وزج بنفسه فى حروب أوربية طاحنة . على أن الحكومة الفرنسـية ما فتئت تذكر مشروع أخذ مصر طول القرن الثامن عشر وخاصة كلما ظهرت مطامع روسيا فى عهد "كترين الثانية" وضمت لنفسها جزءا من أملاك الدولة ، فكانت فرنسا تريد أن تحصل على مصر حتى يتم التوازن بينها وبين روسيا ، وقد عثر "تاليرند" و "نابليون بونابرت" عند ما فكرا فى مشروع الحملة أثناء أبحاثهم فى سجلات الحكومة على مشروعات وخرائط عدة خاصة بالاستيلاء على مصر .

وفى سـنة ١٧٧٧ زار مصر "البارون ده توت Baron de Tott" وغرضه الظاهرى القيـام بأبحاث علميـة وفلكية للمجمع العلمى ولكنه فى الحقيقة كان مكلفا أن يقوم باستطلاعات حربية ، وباختبار حالة السواحل والقلاع الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ومعرفة أعماق المـاء فى الموانى ، كما أن الحكومة الفرنسية أرسلت ضابطا آخر لمثل هـذه الأبحاث فى البحر الأحمر ، ثم وقفت المسألة ولم تتقـدم كثيرا بسبب تدخل فرنسا فى حرب الاستقلال الأمريكى وأخيرا بسبب الانقلاب العظيم الذى أحدثتـه الثورة الفرنسية .

رحلة ڤلنى :

على أن فكرة الاستيلاء على مصر ظلت قائمة بسبب ما كان يكتبه بعض الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى ذلك الوقت ، ومن هؤلاء " ڤلنى Volney " الذى نشر رحلته سنة ١٧٨٧ فذكر سهولة فتح مصر وضعف مركز المماليك فيها وجهلهم بطرق الحرب الحديثة بحيث لا تتطلب الحملة سوى عدد قليل من الرجال . وقال يصف الاسكندرية :

"انه ليس فى المدينة سوى أربعة مدافع فى حالة صالحة وليس بين الحامية الذى يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه إصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين" ومما قاله أيضا : "ان الاستيلاء على مصر يجب أن يكون محور السياسة الفرنسية" .

مكاتبات مجالون :

على أن " مجالون Magallon " قنصل فرنسا فى الاسكندرية ما فتئ يكاتب حكومته فى هذا الشأن ويكرر الشكوى من مراد بك وابراهيم بك صاحبى الأمر فى مصر ويحبذ للحكومة فكرة إرسال حملة الى مصر ، ويذكر مايمكن أن تعود به على فرنسا من وافر الخير وعظيم القوة حتى أن "مجالون" رأى من واجبه أن يحضر بنفسه الى فرنسا سنة ١٧٩٦ حتى يعرض الحالة أمام "حكومة الادارة" وكانت العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر لابأس بها وقد قدر " ڤلنى " مجموع الصادرات والواردات بخمسة ملايين من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا ستهان به بالنسبة الى قيمة النقود فى ذلك الوقت .

نابليون وصلح كمبوفورميو :

ولما بدأت الحالة تستقر نوعا فى فرنسا فى عهد حكومة الادارة وانتصرت على أعدائها وعقدت صلح " بال " مع بروسيا وأسبانيا سنة ١٧٩٥ ولم يبق

من الحلفاء ضد فرنسا سوى النمسا وانجلترا عهدت حكومة الادارة الى نابليون فى مهمة محاربة النمسا فى ايطاليا فعبر نابليون جبال الألب ودخل ايطاليا منتصرا فى عدة وقائع واضطرت النمسا الى الجلاء عن شمالى ايطاليا. فكوّن نابليون جمهوريات الألب وليغوريا على نسق جمهورية فرنسا وسقطت جمهورية البندقية ولما بدأ نابليون يطارد النمسا فى ألمانيا عقدت صلح "كمبوفورميو" سنة ١٧٩٧ أول صلح مشرف للثورة ورجالها . ومن بعض شروط هذا الصلح التى أصر عليها بونابرت يتجلى الغرض الذى كان يرمى اليه هو وحكومة الادارة معا بشأن تقوية النفوذ الفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط .

فانه لما أراد تقسيم أملاك جمهورية البندقية بين فرنسا والنمسا ثمنا لنزول الأخيرة عن الأراضى المنخفضة لفرنسا أصر نابليون على أن تحتفظ فرنسا بجزائر الايونيان "كورفو" و"زنطة" و"كفالونيا" حتى تتخذ فرنسا من هذه الجزر قواعد تجارية بحرية تبنى عليها تفوقها فى البحر الأبيض المتوسط وتكون لها بمثابة محطات ذات شأن فى طريق فرنسا الى الشرق .

وكتب "تاليرند Talleyrand" أحد أعضاء حكومة الادارة ومدير الشؤون الخارجية الى نابليون بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ يؤيد خطته فى الشرق ويزيد عليها بقوله : "يجب أن تكون علاقاتنا ودية مع ألبانيا واليونان ومقدونيا وجميع ولايات الدولة العثمانية فى الشرق بل مع جميع الشعوب التى تمس سواحل البحر الأبيض المتوسط وخاصة مثل مصر التى قد تصير يوما ما ذات منفعة عظيمة لفرنسا" .

ومن ذلك الوقت أخذ نابليون يدرس ويبحث فى أمر الحملة على مصر وجعل ينقب فى سجلات وزارة الخارجية بمعاضدة "تاليرند" باحثا عن التقارير والخرائط والمشروعات التى قدمت للحكومة فى القرنين الماضيين بخصوص الاستيلاء على مصر .

أسباب الحملة :

تتلخص أهم الأسباب التى أدت الى قيام الحملة فيما يأتى :

(١) مهاجمة انجلترا فى الشرق وقطع طريق الاتصال بينها و بين مستعمراتها .

(٢) تكوين مستعمرة فرنسية فى مصر تعوض على فرنسا ما فقدته فى القرن الثامن عشر وفتح ميادين جديدة لتجارة فرنسا .

(٣) كشف مصر علميا وادخال مبادئ المدنية الحديثة .

أما عن السبب الأول : فان أكبر معضلة واجهت حكومة فرنسا ونابليون فى كفاحها مع انجلترا التى بقيت بمفردها فى حالة حرب مع فرنسا بعد أن خرجت النمسا بمقتضى صلح كمبوفورميو ، هى تعذر الوصول الى تلك البلاد لعدم وجود أسطول قوى يمكن فرنسا من التفوق فى " بحر المانش " ولو لمدة وجيزة تستطيع فيها انزال حملة برية على سواحل انجلترا . فلما رأى بونابرت أن توجيه الاصابة الى قلب انجلترا غير ميسور فكر فى قطع أوصالها وذلك بضربها فى مستعمراتها إما بالاستيلاء على المستعمرات نفسها أو بقطع طريق التجارة بين انجلترا و بين هذه المستعمرات أو بتأسيس مستعمرات فرنسية جديدة تعادل من حيث شأنها ومواردها المستعمرات الانجليزية وخاصة الهند .

على ذلك رأت الحكومة الفرنسية أن استيلاء فرنسا على مصر يجعل أقصر طريق بين الشرق والغرب فى قبضة فرنسا وأن بونابرت فى مصر يستطيع أن يتصل بقبائل " المهراتا " بالهند أو " تبو صاحب " حاكم " ميسور " وغيرهما من العناصر الثائرة ضد الانجليز فى الهند فلا يلبث النفوذ الانجليزى أن يتضعضع فى الشرق . زد على ذلك أنه اذا أضيفت مصر الى دائرة نفوذ فرنسا فى ايطاليا وجزر الايونيان لا يلبث أن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

قال " تاليرند " فى خطابه الى نابليون فى ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ :

" ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهنـد لأن المعول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول " الرأس ".

أما عن السبب الثانى : فان فرنسا قد فقدت كل مستعمراتها فى القرن الثامن عشر لمحاولتها الاحتفاظ بتفوقها فى أوربا زيادة على مستعمراتها وعلى ذلك أخفقت فى الغرضين ، فلما جاء عام ١٧٩٧ وخرجت فرنسا منتصرة من حروبها فى أوربا وظفرت بصلح " كمبوفورميو " الذى ضمن لها تفوقها على " الرين " وعلى " الدانوب " بدأت تتطلع الى الاستعمار وأخذت تتحين الفرص لتعوض ما فقدته من مستعمراتها . ومما يدل على أن فرنسا كانت تريد تأسيس مستعمرة فرنسية بمصر ما أرسلته مع الحملة من علماء وصناع وعدد وآلات ومطابع ومترجمين . ولا تنس أن استيلاء فرنسا على مصر يفتح أسواقا جديدة للمصنوعات الفرنسية ، فمن مصر تستطيع فرنسا أن تتصل بسوريا وبسواحل أفريقية الشمالية وبلاد العرب .

أما عن السبب الثالث : وهو تمدين مصر وكشفها علميا فان فرنسا ما فتئت تعلن فى ذلك الوقت أنها مرشدة العالم والآخذة بيد الشعوب الى المدنية والحرية وانها حاملة لواء العدل والمساواة والاخاء ومنقذة الشعوب الضعيفة من ذل الجهل والاستعباد . فلا غرابة أن يكون هـذا ضمن الأغراض الأساسية للحملة . ومن أجل هـذا حضر أكثر من مائة عالم واختصاصى من كبار علماء فرنسا ليساعدوا "بونابرت" فى أعمال البحث والتنقيب والانشاءات اللازمة لتكوين المستعمرة الجديدة ومما قاله "تاليرند" فى ذلك : " انى أرى فى الحملة موارد عظيمة لتجارتنا وكنزا وذخيرة للعلوم " . ومن الغريب أن الحملة قد أخفقت نهائيا فى جميع أغراضها الا فى هذه الوجهة فانها نجحت تماما مما دعا المؤرخين الى القول بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت علمية أكثر منها حربية .

اسباب ثانوية :

وهناك أسباب نعدها فى الدرجة الثانية من الأهمية، فمن هذه الأسباب أن همة نابليون قد أبت عليه البقاء فى فرنسا بعد "صلح كمبوفورميو" من غير عمل ، وخشى أن الشعب لا يلبث أن ينساه اذا لم يظهر أمامه بعمل عظيم .لذلك أخذ ينقب عن مشروع تتجلى فيه عبقريته ومواهبه فلم ير أمامه سوى الشرق مهدا لعظماء الرجال وميدانا لكبار الأبطال من قديم الزمان وكان نابليون يطمح أن يقلد الأسكندر فينشئ فى الشرق دولة كدولته .

ثم ان نابليون رأى أن الفرصة غير سانحة للوصول الى قلب الحكومة فى فرنسا وأخذ مقاليد الأمور بيده ، ورأى من الحكمة الابتعاد عن البلاد حتى تتهيأ له الفرصة اذ لا يبعد أن تتألب دول أوربا ضد فرنسا من جديد منتهزة غيابه ثم لا تلبث حكومة الادارة أن تنهزم أمام تلك الدول فيضج الرأى العام الفرنسى وحينئذ يعود نابليون الى فرنسا فيستقبله الشعب استقبال المنقذ للوطن و يسلمه زمام الأمور .

أما ما يقوله بعض المؤرخين من أن حكومة الادارة أرادت التخلص من بطش نابليون ونفوذه ففكرت فى إبعاده عن فرنسا فمردود لأنه لا يعقل أن تستغنى حكومة فرنسا بسهولة عن أمهر قوادها وخيرة جنودها وحالتها الدولية لم تستقر بعد لأن نابليون بونابرت لم يخرج لتلك الحملة بمفرده بل صحبه أقدر جنود فرنسا وأكبر علمائها ، وليس من الجائز أن توافق حكومة الادارة على كل هذا ارضاء لشهواتها الخاصة فتعرض بعملها ٣٠,٠٠٠ جندى لخطر الضياع فى موقعة بحرية أمام انجلترا وتكسب لنفسها عداوة تركيا وانضمامها الى جانب الحلفاء ضدها . والحقيقة أن حكومة الادارة ترددت طويلا قبل صدور أمرها لنابليون بتجهيز الحملة بل انها بقيت مترددة للساعة الأخيرة قبل قيام الحملة ، ولولا همة نابليون نفسه ومعاضدة تاليرند ورغبة الجميع فى خلق فرصة تمكن فرنسا من طعن انجلترا لوقف مشروع الحملة .

أسباب صورية :

وفضلا عن هذه الأسباب الثانوية فهناك أسباب صورية من نوع الأسباب التى تتذرع بها الحكومات عادة لتبرير موقفها ازاء القانون العام وأمام غيرها من الدول وخاصة أمام الدولة صاحبة الحق .

تظاهرت فرنسا أنها انما أرسلت الحملة لتأديب المماليك والاقتصاص منهم بسبب ماوقع على التجار والرعايا الفرنسيين فى مصر من الظلم والمصادرة والاضطهاد فى عهد ابراهيم بك ومراد بك بما دعا " مجالون " الى ارسال الشكوى الى حكومته .

كذلك ادعت الحكومة الفرنسية عقب قيام الحملة ووصولها مصر أن المماليك قد عصوا الباب العالى واستقلوا بالبلاد وعاثوا فيها فسادا غير مراعين فى ذلك حقوق السلطان . ولما كانت فرنسا أقدم حليف لتركيا رأت حكومة الجمهورية مساعدة الباب العالى بالقضاء على فئة المماليك وتوطيد نفوذ السلطان بمصر وقد سعت حكومة الادارة فى اقناع الباب العالى بهذا الغرض بكل الطرق فلم تفلح وسرعان ما أدرك السلطان أغراض فرنسا فاتحد مع أعدائها .



ناپلیون بوناپارت

الفصل الثالث

نابليون فى مصر

سرية مشروع الحملة :

اعتبرت الحكومة الفرنسية أمر هذه الحملة سرا مكتوما لم يعلم به أحد غير أعضاء حكومة الادارة و بونابرت ، حتى أن الرؤساء والمشتغلين بتجهيز معدات الحملة لم يعلموا عن وجهتها شيئا نهائيا ، ولضمان المحافظة على سرية المشروع لم يستخدم الموظفون والكتاب فى تحرير رسائل الحملة حتى أن رئيس الحكومة كتب أمر تعيين بونابرت لرياسة الحملة بيده .

وفى جميع هذه المحررات الأولى لم تعين وجهة الحملة بالضبط بل كانوا يكتفون بذكر " حملة البحر الأبيض المتوسط " أو " الحملة الموجهة ضد انجلترا " ، و بالفعل ظل هذا التكتم سائدا جميع الدوائر حتى أقلعت الحملة من فرنسا ولم يكن لأحد من رجالها علم بغرض الحملة الى أن اقتربت الحملة من المياه المصرية ، وماذا كان يهم الضباط أو الجنود من غرض الحملة مادام نابليون على رأسهم وما داموا يعرفون تماما أن الحملة موجهة ضد انجلترا .

والحقيقة أنه لو لم تراع الحكومة هذا التكتم الشديد لتسرب أمر الحملة الى البحرية الانجليزية ولتعرضت الحملة فى بدء سيرها لضربة قاضية من جانب الأسطول الانجليزى الذى كان شديد الرقابة فى البحر الأبيض ولم تكتف الحكومة الفرنسية باحتفاظها بسر الحملة بل انها تظاهرت بعمل استطلاعات ومناورات فى سواحل فرنسا الشمالية لتوهم الحكومة الانجليزية أن غرضها من الحملة إنما هو انزال جيوشها على سواحل انجلترا الجنوبية أو على سواحل ايرلنده فينصرف نظر البحرية الانجليزية ولو قليلا عن البحر الأبيض .

خطة الأسطول الانجليزى :

وفعلا لما نشطت حركة الموانى الفرنسية وقف أمير البحر الانجليزى لورد سنت " فنسنت StVincent " عند ميناء " قادس " ليحسن رقابة الأسطول الفرنسى عند خروجه من بوغاز " جبل طارق " قاصدا ايرلنده أو انجلترا أو البرتغال أو جزائر الهند الغربية كما توهم الانجليز ، وليحول دون خروج الأسطول الاسبانى واتفاقه مع الأسطول الفرنسى . ثم أنه أرسل أمير البحر " نلسن Nelson " ومعه ثلاث سفن لرقابة سواحل فرنسا وايطاليا وجمع المعلومات عن الحملة ، فوصل الى "طولون" أول يونيه وكانت الحملة قد خرجت فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ولم يعلم الأسطول الانجليزى عن أمرها شيئا فأرسل " سنت فنسنت " عشر سفن أخرى " لنلسون " لما تبين له خطأ انتظار الحملة عند " قادس " فأخذ نلسون يبحث عند السواحل الايطالية حتى علم فى ٢٠ يونيه من حكومة " نابلى " حليفة الانجليز أن الفرنسين وصلوا جزيرة "مالطه" فى ٩ يونيه ، فلما وصل اليها كان بونابرت قد غادرها مع حملته قاصدا الشرق متخذا كل الطرق للهروب من رقابة نلسون ، كأن يسير محاذيا سواحل أفريقية . أما نلسن فانه وصل الى الاسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية بثلاثة أيام ولما أبى " السيد محمد كريم " حاكم الاسكندرية أن يسمح لنلسون وسفنه الثلاث عشرة بالبقاء فى الميناء انتظارا للفرنسيين سار شمالا قاصدا جزر الأرخبيل الأغريق .

سير الحملة :

أما الحملة فقامت بقيادة نابليون بونابرت فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ من ميناء "طولون" و"مرسيليا" بفرنسا ومن "جنوه" و"سفيتافكيا" و"أجاكسيو" من موانى ايطاليا وقورسقة تحمل أكثر من ثلاثين ألف نفس ويحرسها

عدد من السفن الحربية بقيادة أمير البحر " ده بروى De Brueys " [1]
ومن أشهر القواد الذين صحبوا نابليون "ديزيه Desaix" و"كليبر Kléber"
و"رنييه Reynier" و"كفارلى Caffarelli" و"موارا Murat" و"مينو
Menon" ، وأشهر العلماء "منج Monge" و "برتليه Berthollet"
و"لبير Lepère" و "كنتيه Conté" .

احتلال مالطة :

ولم يشهد البحر الأبيض المتوسط مثل هذا العدد من السفن والرجال منذ الحروب الصليبية ، ولقد صادف هذه الحملة عند قيامها نجاح وتوفيق عظيمان اذ تمكنت من الافلات من رقابة نلسون واستولت على جزيرة " مالطة " بدون كبير مشقة . وقد برر نابليون هجومه على الجزيرة بأن اتهم حاكمها وهو رئيس الرهبان فيها بأنه متفق مع قيصر روسيا وأنه كان يناوئ الثورة فى فرنسا ، وأن السفن الفرنسية لم تكن تجرؤ على الدخول فى ميناء مالطة الا اذا أخفت علمها الفرنسى ، ثم نزل فى ميناء " لافاليت Lavalette"ومعه ثلاثة آلاف جندى فى فجر ١١ يونيه ولم تمض ساعة من الزمن حتى احتل الفرنسيون جميع الأبراج وطاردوا الجنود فى شوارع المدينة . وفى ١٢ يونيه اجتمع مفوضو رئيس الرهبان ببونابرت وسلموه المدينة والجزيرة وفى مقابل ذلك وعد نابليون أن يسعى فى ايجاد امارة ألمانية لرئيس العهد تعوضه عما فقده وأن يتسلم مؤقتا معاشا سنويا قدره ٣٠٠٠٠٠ فرنك الى أن توجد الامارة. و بعد أن نظم حكومة الجزيرة ترك فيها القائد " ڤوبوا Vowbois" حاكما على الجزيرة ومعه ثلاثة آلاف جندى وكان قد انضم الى الحملة ألفان من جنود مالطه .

---

(١) كان مجموع القطع الحربية فى الحملة ١٣ سفينة حربية ، و ٩ من النوع المسمى فرقاطه (Frégates) ، و ١١ من النوع المسمى (Corvette) و ٢٣٢ سفينة نقالة . وأما عدد الرجال فكان ٣١٨٠٠ منهم ٢٤٣٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان و ٣٠٠٠ للدفعية . وأما عدد الخيول فكان ٦٨٠ فقط لاعتماد الحملة على ما يمكن الحصول عليه من مصر .

وفى ١٩ يونيه قامت الحملة بعد أن استولت على احدى المحاط الهامة فى طريقها من مصر الى فرنسا . ولما مرت الحملة بجزيرة " كريت " لم يعد غرض الحملة خافيا فأعلن الخبر للجند قبل الوصول الى الاسكندرية بليلة .

وصول الحملة :

وفى أول يوليه ١٧٩٨ وصلت الحملة الى الاسكندرية وعلم نابليون لأول مرة أن نلسون ومعه ثلاث عشرة سفينة حربية قد زار الاسكندرية فى ٢٨ يونيه فأصدر أمره بانزال الجند والذخيرة بأسرع ما يمكن وذلك لاحتمال وجود نلسون بقربة من الاسكندرية .

وفى ٣ يوليه كان قد تم انزال جميع المعدات وكانت الجنود قد استولت على المدينة بعد مقاومة ضئيلة من حاكم الاسكندرية " السيد محمد كريم " وتم الاتفاق بينه وبين الفرنسيين على أن يحتفظ بمركزه كما اتفقوا مع بعض أعراب البحيرة للسير مع الحملة وتوريد الجمال والخيول اللازمة لحمل الأمتعة والمؤنة وبذلك تحقق قول " قلبى " عن الاسكندرية وصار الطريق الى مصر مفتوحا أمام الحملة .

سير الحملة ونظام المربعات المفرغة :

وفى ٩ يوليه قامت الحملة من الاسكندرية بعد أن تركت ثمانية آلاف جندى برياسة " كليبر " ، وأخذت الحملة طريق الصحراء غربى فرع رشيد ، وسارت بعض السفن حاملة المؤنة والغذاء فى فرع رشيد . وقد قاسى الجنود فى أثناء اختراقهم الصحراء أهوالا شديدة بسبب شدة الحرارة وجفاف الأرض وقلة الماء وسطو الأعراب بين حين وآخر . ولما وصل الجند الى " الرحمانية " على النيل حيث لحقوا بالحملة النيلية ألقوا بأنفسهم فى الماء فرحين مغتبطين . ثم سارت الحملة بمحاذاة فرع رشيد وفكر نابليون فى طريقة يتقى بها هجمات العربان والمماليك الذين اشتهروا بالكر والفر السريع فوضع نظام المربعات المفرغة وقسم الحملة الى خمسة مربعات عظيمة كل

ضلع مكون من ستة صفوف . وسارت المدفعية بين المربعات أما العلماء والعناصر غير المحاربة فسارت وسط المربعات بعيدا عن هجمات الأعراب. ومن مزايا هـذا النظام أنه اذا هجم العدو هجمة سريعة واخترقت جنوده أحد أضلاع المربع لاتلبث النيران أن تنصب عليه بجأة من أضلاع المربع الأخرى وبهذا النظام استطاع بونابرت أن يقضى على تفوق المماليك الظاهر من جهة الفرسان .

تدابير المماليك :

ولما علم المماليك بنزول الحملة فى الاسكندرية فى ٥ يوليه قابلوا الخبر بغير اهتمام أو اكتراث مزدرين شأن الافرنج عامة ومحتقرين كفايتهم الحربية وأقسموا أنهم سيحصدون رءوسهم حصدا اذا قاتلوهم ثم اجتمع رؤساء المماليك مراد بك وابراهيم بك ومعهم الباشا التركى سيد بكر ، وقر الرأى أولا على أن يرسلوا قوة تبلغ ٦٠٠٠ من فرسان المماليك ومن الجنود التركية بقيادة مراد بك لاستطلاع قوة الفرنسيين ، وكانت الأخبار قد وصلت بسقوط الاسكندرية ورشيد وزحف الفرنسيين على القاهرة عن طريق الصحراء، والتقى الفريقان عند "شبراخيت" بعد أن استولت الحملة على الرحمانية فى طريقها الى القاهرة ، وقد اشتبك فى هـذه الموقعة بعض السفن المسلحة التى أحضرها المماليك مع القوة الفرنسية التى كانت تسير فى النيل ، وانهزم المماليك لأول مرة أمام نيران المدافع والبنادق الفرنسية وتقهقر المماليك جنوبا الى القاهرة حيث قر الرأى على أن يبقى مراد على الضفة اليسرى للنيل ومعه قوة تبلغ ١٠,٠٠٠ من فرسان المماليك و١٠٠٠ من الجنود التركية ، وبنى المماليك استحكامات عند " امبابه " ووضعوا بعض المدافع على قواعد ثابتة وأحضروا ٢٤,٠٠٠ من الفلاحين للدفاع عن المكان . أما ابراهيم بك فبقى عند بولاق على الضفة اليمنى للنيل ومعه عدد احتياطى من المماليك والفلاحين ومعه فوق ذلك ماأمكن حمله من الثروة والكنوز التى جمعها المماليك وحملوها ظهور الدواب أو السفن وقد خرج

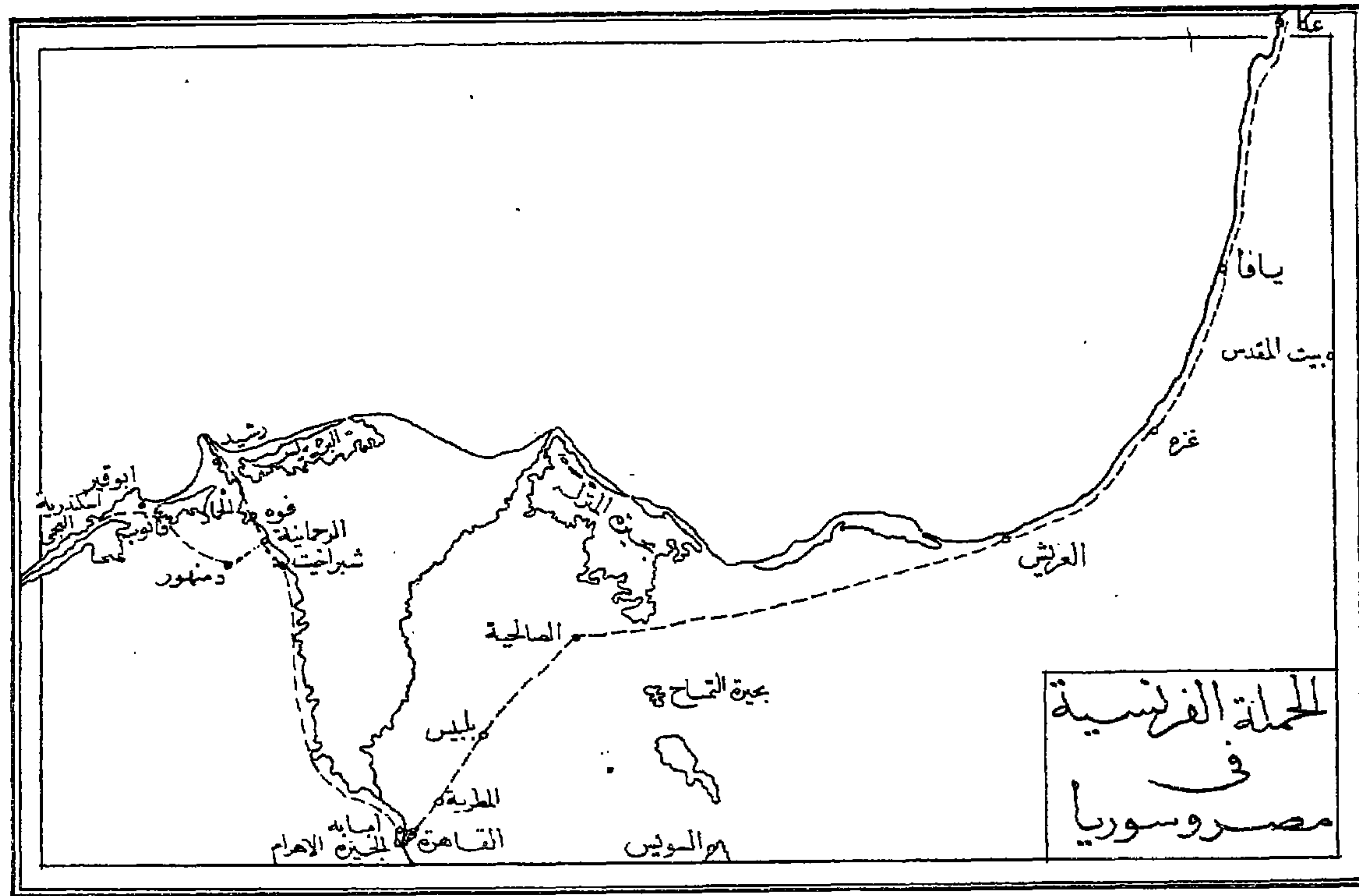
مع ابراهيم بك ومن معه سكان القاهرة ينتظرون الموقعة و يضجون بالأدعية والصلوات والكل مترقب أول اشارة بالهزيمة لينجو بنفسه من المهالك .

و يلاحظ هنا أن المماليك قد أخطئوا فى تقسيم قواتهم ووضع الجزء المهم من هذه القوة على الضفة اليسرى ، إذ كان يجب أن يجمعوا قواتهم على الضفة اليمنى و يتركوا للفرنسيين مهمة عبور النيل وهى مهمة لا تخلو من خطر على الجيش المهاجم . ولكن يظهر أن المماليك قد أعدوا خطة التقهقر قبل أن ينظموا خطط الدفاع .

موقعة امبابه :

وفى ٢١ يوليه وصل الفرنسيون الى "امبابه" وعسكروا بينها و بين الجيزة بمرأى من أهرام الجيزة الذى أشار اليه نابليون وقال مخاطبا جنوده قبل الموقعة "ان أربعين قرنا تنظر اليكم" وقد وقف الفرنسيون فى مربعاتهم منتظرين هجوم المماليك حتى يحصروهم بين نيران مربعاتهم وقد وضعوا خطتهم بحيث يحاولون دون وصول المماليك الى استحكاماتهم فى امبابه ثم يدفعونهم نحو النهر فاما أن يلقوا بأنفسهم فيه أو يفروا هاربين الى الصحراء وفى هذه الموقعة — موقعة "امبابه" أو "الأهرام" كما تعرف عند الفرنجة — أظهر مراد بك ومن معه من المماليك منتهى الشهامة والبطولة غير مبالين بالنيران ولا مكترثين للموت فكانت هجماتهم على المربعات الفرنسية لا تلبث أن تتكسر أمام بنادق العدو وماذا كانت تجدى بطولة المماليك وفروسيتهم أمام جيوش حديثة منظمة يقودها نابليون ؟ لقد تهشمت قوة المماليك فى ساعات قليلة ولم يبق من المماليك سوى جماعات غير منظمة عددها أربعة آلاف فرت الى الصحراء أو الى الصعيد مع مراد بك الذى أخذ يحرق السفن التى كانت تحمل الذخيرة حتى لاتقع فى أيدى العدو .

أما ابراهيم بك ومن معه من المماليك والأهالى فظلوا على ضفة النيل عند بولاق يراقبون حركة الموقعة فلما رأوا ما حل بمراد بك استولى عليهم الفزع والرعب وضج الناس بالصراخ والعويل وأحرق ابراهيم بك ما أمكن احراقه


الحملة الفرنسية
في
مصر وسوريا
عكا
يافا
بيت المقدس
غزة
العريش
الصالحية
بحيرة التمساح
بلبيس
المطرية
القاهرة
السويس
امبابه
الجيزة
الاهرام
شبراخيت
الرحمانية
فوه
دمنهور
رشيد
ابوقير
اسكندرية

من السفن المحملة حتى غطت النيران سطح المـاء ، ثم فر ومن معه من المماليك قاصدين الشرقية ثم سوريا ، وخرج مع ابراهيم بك سيد بكر الباشا التركى وعدد من زعماء المصريين . أما المدينـة فظلت فى حركة مستمرة اذ أخذ الناس يهاجرون من المدينـة ومعهم أسراتهم وما خف من متاجرهم وثروتهم ، وانتهز اللصوص الفرصة فدخلوا البيوت والحـوانيت ونهبوا ما فيهـا .

تسليم القاهرة :

وأخيرا قر رأى بعض التجار الأجانب على أن ينصحوا وكيل الباشا بأن يسلم المدينة وذهبوا لمقابلة نابليون . وفى ٢٤ يوليه ذهب الى بر الجيزة جماعة من المشايخ يعرضون الصلح على الفرنسيين و يسلمون القاهرة ، وفى ٢٧ يوليه دخل نابليون مصر على رأس جنده وكان قد عين القائد "ديبوى Dupuy" حاكما على المدينـة وأرسل " ديزيه " على رأس قوة الى الصعيد لمطـاردة مراد بك وأتباعه .

وفى ٧ أغسطس خرج " بونابرت " على رأس قوة لمطـاردة ابراهيم بك فوصل " بلبيس " والتق الفريقان عند "الصالحية" فى ١٠ أغسطس وفر ابراهيم بك الى سوريا بعد أن ترك بعض أحماله فى أيدى الفرنسيين ، وحاول نابليون أن يستميل الباشـا التركى الى جانبه مرة ثانية ، فـلم يفلح . وكان بونابرت يرمى من ابقاء الباشا بجانبه فى مصر الى غرضين : (الأول) أن يبرهن للشعب على صدق دعواه فى أنه حليف السلطان وأنه يعمل ضد المماليك بالاتفاق مع الباب العالى ، (الثانى) أنه كان يريد أن يحتفظ بالعلاقات الودية بينه و بين تركيا حتى لا ينضم الأتراك الى أعداء فرنسا . لذلك أرسل نابليون فى غداة موقعة الصالحية خطابا الى ابراهيم بك يطالبه فيه بارسال الباشا اليه ليكون واسطة الصلح بين الفريقين . ولمـا لم يصله رد على خطابه أمر بحصن الصالحية ، وعين "رينييه Reynier" حاكما على الشرقية و"ديجوا Dugua" حاكما على المنصورة ثم عاد فى ١٣ أغسطس الى القاهرة .

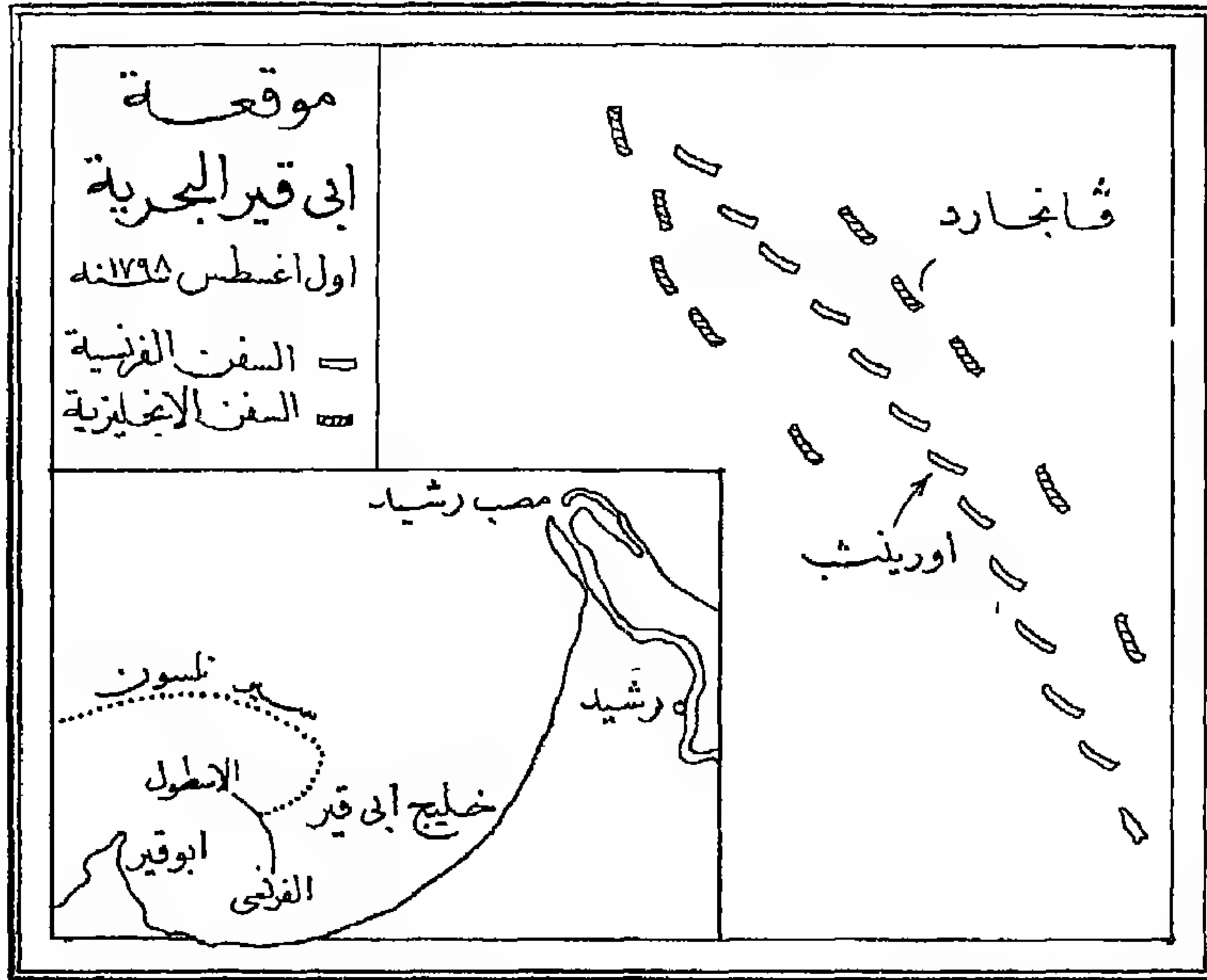
موقعة أبى قير البحرية :

وفى أثناء طريقه وصل اليه رسول من "كليبر" يعلمه بالكارثة التى أصابت الحملة بتدمير الأسطول الفرنسى عند "أبى قير" فى أول أغسطس وذلك أن "نلسن" لما علم بنزول الفرنسيين مصر أقلع من جزر الأرخبيل و باغت الأسطول الفرنسى، وعلى الرغم من كثرة السفن الحربية الفرنسية فان نلسن استطاع بمهارته وسرعته أن يشق الأسطول الفرنسى شقين ويحصر الجزء الأكبر منه بين نارين من أسطوله وهكذا دمر الجزء الأكبر من الأسطول الفرنسى وقتل وغرق عدد عظيم من الفرنسيين. ومن الذين قتلوا "ده بروى" قائد الأسطول الذى أظهر من الشجاعة والثبات وهو على ظهر سفينته "الشرق L'orient" ماخفف حملة النقد عليه فان نابليون كان قد أوصاه بأن لا يعرض أسطوله عند أبى قير بل عليه أن يحتمى اما داخل ميناء الاسكندرية أو يخرج به الى جزيرة مالطة أو إحدى جزر الأيونيان . فلم يبادر "دو بروى" بتنفيذ شيء من ذلك وظل عند أبى قير على غير استعداد حتى جاء نلسن ووجه هذه الاصابة القاتلة الى الحملة فى بدء عهدها .

نتائج الموقعة :

و بتدمير الأسطول فقد بونابرت أسباب الاتصال بأوربا عامة و بفرنسا خاصة وضاع كل أمل فى امكان وصول المدد والذخيرة من فرنسا الى الحملة كما أن ضياع الأسطول قد حرم الفرنسيين من أكبر ضمان يعتمدون عليه و يلجئون اليه اذا ما اضطرتهم الظروف فى مصر الى التقهقر أو العودة ، ولا شك أن الحملة الفرنسية بمصر بعد هذه الموقعة أصبح مقضيا عليها لامحالة اذ صار الفرنسيون فى مصر كأنهم محصورون فى مدينة مضيق عليها ومصيرها الى التسليم آجلا أو عاجلا .

لذلك قابل نابليون الخبر باهتمام كبير وتأثر ظاهر غير أنه سرعان ماتجلد وامتلأ قلبه ثقة وأملا فى المستقبل فأبلغ الخبر الى من حوله من الضباط


موقعة
ابى قير البحرية
اول اغسطس ١٧٩٨ سنه
السفن الفرنسية
السفن الانجليزية
ڤانجارد
اوريئنت
مصب رشيد
رشيد
سير نلسون
الاسطول
خليج ابى قير
ابوقير
الفرنجى

ومنهم انتقل الى الجنود وسرت فى نفوسهم روح الثقة والشجاعة التى استمدها الجميع من بونابرت . قال بونابرت مخاطبا ضباطه وجنوده أن عليهم أن يعتادوا جو مصر وأن يقوموا بأعمال عظيمة كتكوين دولة عظيمة فى أفريقية وآسيا يكون مركزها مصر .

سياسة بونابرت فى مصر :

لذلك عوّل نابليون على ادماج الفرنسيين بالمصريين محاولا بذلك تكوين عنصر قوى واحد يستند اليه فى حكمه علما منه بأن قوة الشعب هى خير ما ترتكن اليه الحكومة فى البلاد، فاستمال الشعب اليه بكافة الطرق ، فكان يشترك مع الشعب فى حفلاته القومية العامة كفتح الخليج واحياء المولد النبوى ، وكان يعلن أنه مثلهم مؤمن وموحد بالله .وكان يستعمل اللغة العربية فى منشوراته ويظهر الاحترام للدين والقرآن والرسل وخاصة سيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم) ويكثر من الاستشهاد بالقرآن واعلان رغبته أمام العلماء فى تحويل الفرنسيين الى الاسلام وبناء المساجد حتى يبرهن بذلك للمصريين على أنه لا يقل عن الأتراك أو المماليك غيرة على خدمة الدين واحترام عادات البلاد وأهل العلم بها[1] .

انشاء الديوان الوطنى :

وأهم من ذلك كله أنه عمل على اشراك العناصر الوطنية مع الفرنسيين فى الحكم لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث . اذ أصدر مرسوما حال دخول الفرنسيين القاهرة يقضى بتأليف ديوان وطنى يساعد الحاكم العسكرى فى الحكم ، ويتكون من تسعة أعضاء من المشايخ وعاشر ليكون سكرتيرا ، وانتخب "الشيخ عبد الله الشرقاوى" رئيسا للديوان "والشيخ المهدى" سكرتيرا ، ويجتمع الديوان كل يوم للنظر فى مهام الأمور . وكان

---

(١) راجع ملحق حرف (أ) صفحة ٢٢٧ "منشور بونابرت الى المصريين" .

نابليون يجيب بالموافقة على أكثر قرارات الديوان ويترك له الحرية فى تعيين من يختارهم من غير المماليك للوظائف الداخلية الخاصة بالمدينة كوالى الشرطة والأغا والمحتسب ووكيل أو كتخدا لكل من هؤلاء ، وقد عين بونابرت حكاما عسكريين للقاهرة وللأقاليم وأمر بتكوين ديوان وطنى لكل اقليم على نسق ديوان القاهرة يتكون من سبعة أعضاء ويعاون الحكام الفرنسيين فى حكومة الأقليم .

ولم يفرض نابليون ضرائب جديدة بل جمع المال المعروف بالميرى وعين "بسليج Poussielegue" للشؤون المالية فجمعت الضرائب بنظام من الجميع وحصرت أملاك المماليك والمشايخ الذين هاجروا الى الشام وثبتوا كلا فى ملكيته واحترموا أملاك الوقف وتركوا المعاملات المدنية والتجارية كما كانت ، كما أنهم لم يحدثوا تغييرا ما فى ادارة القضاء فى البلاد .

وعلى ذلك سرعان ما آنس الناس بالفرنسيين واطمأنوا اليهم فنشطت حركة العمل فى المدينة وأنشئت فى القاهرة محال تجارية وقهاوى ومطاعم ومصانع وأذيع التنبيه بوجوب الانارة والنظافة أمام محالهم وبيوتهم فى الشوارع والحارات .

تنظيم المجمع العلمى المصرى :

ثم نظر بونابرت فى تنظيم "المجمع العلمى المصرى L'Institut Egyptien" فأصدر أمرا فى ٢١ أغسطس بتكوين هيئة المجمع وفى ٢٤ منه اجتمع المجمع لأول مرة بمنزل "حسن كاشف" (١) وعين "منج Monge" أكبر الرياضيين رئيسا ووجد نابليون الشرف كله أن يكون وكيلا للمجمع ، ثم قسم المجمع الى أربعة أقسام مهمة : قسم للأبحاث الرياضية والطبيعية، وقسم للأبحاث الاقتصادية ،وقسم للفنون ،وقسم للآداب . وأهم الأعمال التى قام بها المجمع فى أثناء وجود نابليون درس مشروع وصل البحر الأحمر بالأبيض وكشف القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر .

---

(١) فى حارة منج خلف المدرسة السنية بالناصرية .

ديزيه فى الصعيد :

وفى أثناء ما كان نابليون يقوم بهذه التنظيمات فى القاهرة والدلتا كان " ديزيه " يعمل على اخضاع مراد بك فى الصعيد وكان قد انضم اليه عدد كبير من المماليك وعربان الوجه القبلى واتخذ مقره فى البهنسا بمديرية المنيا فسار اليه " ديزيه " واشتبكا فى موقعة عند مدينة الفيوم انهزم فيها مراد بك وأتباعه و بعدها عوّل مراد على اتباع طريقة الكر والفر التى يحذقها فرسان المماليك فصار الفرنسيون فى حركة مستمرة أثناء وجودهم بالصعيد الى أن استدعاهم نابليون قبيل موقعة أبى قير البرية فى أغسطس سنة ١٧٩٩

و بينما كان الفرنسيون يحاولون تثبيت حكمهم فى البلاد اعترضتهم حادثتان قضتا على آمالهم فى هذه البلاد نهائيا : (الأولى) داخلية وهى ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، (الثانية) خارجية وهى تعرض الفرنسيين لهجوم الأتراك والحلفاء فى مصر وفى أوروبا فى آن واحد .

ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

السبب الاقتصادى :

إن أهم الأسباب التى أدت الى ثورة القاهرة ولم يمض على دخول الفرنسيين سوى ثلاثة شهور هى فى الحقيقة اقتصادية وذلك أن الفرنسيين قبل احتلالهم البلاد كانوا يمنون أنفسهم بثروة طائلة يحصلون عليها بطريقة ما ، فلما دخلوا البلاد لم يجدوا شيئا يذكر فالمماليك قد أفنوا أو أخفوا كنوز ثروتهم على أثر موقعة امبابه ثم حملوا ما تبقى منها الى سوريا .

ولا ننسى أن تدمير الأسطول الفرنسى عند "أبى قير" واعلان الحصر البحرى على سواحل البحر الأبيض المصرية بسبب تفوق الأسطول

الانجليزى قد أدى الى توقف دولاب الأعمال التجارية والصناعية فساءت الحال الاقتصادية بدرجة شعر بسوء وقعها الفرنسيون . لذلك شرع الفرنسيون يفكرون فى فتح أبواب جديدة يحصلون منها على المال اللازم ففرضوا عوائد على الأملاك وأنشئوا ديوانا لتسجيل الحجج والعقود الموجودة عند الأهالى والتى تثبت امتلاكهم لما لهم من الأملاك فى مقابل رسم خاص . فاستاء الأهالى وعظم سخطهم وأيقنوا أن الفرنسيين لايقلون عن غيرهم من حيث تعسفهم فى جمع المال بل ان الفرنسيين كانوا أشد وأدق فى جباية الأموال .

شدة الفرنسيين :

هذا هو السبب المباشر للثورة . على أن هناك أسبابا ثانوية أخرى أهمها تشدد الفرنسيين واضطهاد المماليك وسوء معاملة أسراتهم وتوقيع أشد العقوبات على من يشتبهون فى صلاته معهم . فكانوا يحكمون بالاعدام على من يتهم بمراسلة المماليك أو بقضاء حاجات لهم . وأكبر من أعدم بهذا السبب " السيد محمد كريم " أول من اتفق مع الفرنسيين بالاسكندرية .

انتشار البدع ونشر الدعوة :

ثم ان الفرنسيين على الرغم من تظاهرهم باحترام الدين الاسلامى كانوا فى الحقيقة قليلى الاكتراث للتعاليم والمبادئ الاسلامية اذ أطلقوا العنان لشهواتهم وكثر التبذل وظهر الفجور وانتشرت المسكرات والبدع وعمت المفاسد وارتفع شأن الأجنبى على حساب أهل البلاد .

وهناك سبب خارجى يرجع الى مجهودات ابراهيم بك والسيد عمر مكرم ومن معهما من المماليك والمصريين الذين تركوا مصر الى الشام فانهم مافتئوا يرسلون الرسل الى مصر و يوزعون المنشورات سرا بين الناس يحضونهم فيها على الثورة ضد الفرنسيين و يشجعونهم بالقول والوعد بأن الباب العالى يعد

حملة كبيرة بالاتفاق مع الانجليز لطرد الفرنسيين من مصر وما على المصريين الا أن يقوموا بالثورة فى الداخل تسهيلا لمهمة الجيش المهاجم من الخارج، ومما أكد للمصريين صدق هــذه الوعود ما علموه من تدمير الأسطول الفرنسى عند أبى قير وحرج مركز الفرنسيين فى مصر على أثر هذه الموقعة .

الثورة :

قال الجبرتى يصف الثورة : " كثر اللغط وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب وحضر " السيد بدر " وصحبته حشرات الحسينية ولهم صياح عظيم وهول جسيم فذهبوا الى بيت القــاضى وتجمعوا وتبعهم نحو الألف أو الأكثر وهــدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العــدو فى وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس " .

وكان الفرنسيون قد أخذوا على غرة فلم يحتاطوا للأمر وقتل منهم "ديبوى" حاكم القــاهرة و" سلكسكى Sullkowsky " رئيس أركان حرب نابليون واثنان من العلماء كانوا يقومون بأبحاثهم عند جبل المقطم . ولمــا رأى نابليون خطورة الحال وأن مركز الثورة فى الأزهر بعيد عن مناله بسبب ضيق الحارات الموصلة اليه ، وضع المدافع على احدى ربى المقطم وصوبها على الأزهر "ولمــا سقط عليهم القنبر ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه نادوا ياسلام من هذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا ممــا نخاف ! ! " وتتابع الرمى من القلعة حتى وقع الرعب فى صدور النــاس وفزعت جعاب أهل الحسينية الذين ظلوا يقاتلون للنهــاية فقام العلماء وركبوا الى بونابرت يطلبون الأمان والعفو فلامهم بونابرت وأنبهم واتهمهم بمالأة الثوار على الرغم من اشتراكهم معه فى المسئولية والحكم . وأخيرا قبل رجاءهم ونادوا بالأمان فى جميع أنحاء المدينــة . ولكن نابليون استعمل الشدة والصرامة

المتناهية وارتكب اثما لا يزال أثره مقرونا باسمه الى اليوم فى مصر ذلك أن جنوده وخيوله دخلت الأزهر وانتهكوا حرمته وأساءوا استعماله . وبذلك أضاف وقودا جديدا الى نار الثورة المتأججة فى نفوس الشعب وقضى على كل أمل فى تقريب العنصرين المصرى والفرنسى وتكوين قوة من الشعب يستند اليها بونابرت فى حكمه .

نتائج الثورة :

وليست أهمية هذه الثورة مقصورة على أنها قامت بغتة وبسرعة ومن غير تنظيم أو ترتيب سابق انما أهميتها فى أنها قلبت سياسة الفرنسيين رأسا على عقب وقضت على جل آمالهم فى مصر . فبعد أن كان الفرنسيون يؤملون تكوين مستعمرة فرنسية فى مصر ويحاولون كسب مودة الشعب بكل الطرق أصبحوا بعد الثورة على حذر شديد من المصريين وقصروا جهودهم على حماية مركزهم الحربى فى مصر خشية اعتداء الترك أو الانجليز .

ومن مظاهر الشدة التى بدت بعد الثورة أن نابليون أطلق العنان لأحد الأروام الذى عينه وكيلا لحاكم القاهرة واسمه "برطلمان Barhelemy" ويعرفه العامة باسم " فرط الرمان " فعامل المصريين بعنف شديد وأنزل العقوبات الصارمة على المصريين الذين اتهموا بالتعدى على الفرنسيين وطاف " برطلمان " على الأقاليم يقضى على بقايا الثورة فيها ويجمع الغرامات من القرى وكان الفلاحون فى بعض الأقاليم قد انتهزوا فرصة فيضان النيل وتعذر وصول القوات الفرنسية لنجدة بعض الحاميات فقاموا بمناوشات بسيطة لم تلبث أن قمعت بشدة .

ومن مظاهر روح الكراهية وعدم الثقة التى ملأت جوانح الفرنسيين بعد الثورة أن بونابرت ألغى الديوان الوطنى الأول وتركه معطلا مدة شهرين ثم عين ديوانا جديدا ليس مقصورا على المشايخ بل كانت جميع الطوائف والجاليات القاطنة بمصر ممثلة فيه ، فكان بجانب المشايخ ممثلون للأقباط والسوريين والأروام والافرنج وكان مجموع هذا المجلس ستين عضوا اختير

منهم أربعة عشر ليكونوا المجلس المخصوص الذى يجتمع بانتظام لمعاونة الحكومة .

ومن الاحتياطات التى أخذها الفرنسيون بعد الثورة اهتمامهم بتحصين القاهرة وهدم بعض المبانى والمساجد التى كانت تعترض طريقهم وخلع أبواب الحارات، وكان الفرنسيون قد بدأوا بعض هذه الأعمال قبل الثورة فلما قامت الثورة ضاعفوا جهودهم فى اتمامها ، ومن أعمال نابليون أيضا تكوين فرق عسكرية من متطوعى الأروام و بعض العناصر الشرقية المسيحية تنضم للحملة عند الحاجة ، وأخذت المعامل تنتج ما تحتاج اليه الحملة من ذخيرة حربية وعدد وآلات وأدوات بقدر ماوصلت اليه مواهب " كنتيه Conté " العالم الفرنسى المخترع .

كل هذه الأعمال ساعدت على توسيع هوة الخلاف بين الفرنسيين والمصريين وجعلت المصريين على الرغم من خضوعهم وتظاهرهم بالامتثال يضمرون الانتقام من الفرنسيين و يتحينون الفرص المناسبة للقيام بالثورة من جديد ماداموا يعلمون أن الأتراك والانجليز على الأبواب .

موقف تركيا وأوربا ازاء الحملة :

ولقد كان من نتائج واقعة " أبى قير البحرية " وتدمير الأسطول الفرنسى أن سهل على انجلترا حمل تركيا على اعلان الحرب ضد فرنسا واعداد حملة لطرد الفرنسيين من مصر ، وكانت الحكومة الفرنسية قد أخذت حذرها من أول الأمر فقررت مبدئيا ارسال " تليرند " الى القسطنطينية عقب خروج الحملة ليؤكد للباب العالى حسن نيات فرنسا نحو السلطان وأن الغرض من ارسال الحملة ليس الا لتأديب المماليك وتخليص الباب العالى من حكمهم فى مصر . ولكن تاليرند لم يسافر وعين غيره .

كما أن بونابرت من جهته لم يتوان فى تفهيم الباب العالى حسن نياته فحاول أن يستميل اليه الباشا التركى كما ذكرنا ولما فشل كتب الى الصدر

الأعظم يطلب اليه أن يرسل من لدنه رسولا يتفاوض معه فى مصر و يؤكد له فيه أن سيادة تركيا لم تزل باقية على البلاد وغاية ما فى الأمر أن الفرنسيين حلوا محل المماليك فى حكومة مصر[١] . ولكن السلطان ارتاب فى عمل فرنسا و بدأت الحكومة الانجليزية من جهة أخرى تحرك الباب العالى ضد فرنسا وتنصح لتركيا باعلان الحرب عليها فلما سمعت بواقعة "أبى قير" تشجعت وكانت الموقعة أبلغ حجة قدمها سفير انجلترا للباب العالى ليدفعه الى الحرب، فأعلنت تركيا الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ وتحالفت مع انجلترا والروسيا ضد فرنسا . ولما كانت السيادة البحرية للأسطول الانجليزى تمكن الحلفاء من أخذ جزيرة "مالطه" و جزائر "الأيونيان" بمعاونة الأسطول الروسى ، وأعد الباب العالى جيشين أحدهما فى جزيرة "رودس" لتحمله السفن الانجليزية الى ساحل أبى قير والثانى يزحف على مصر من جهة حدودها الشرقية .

وكانت الحكومة الفرنسية تريد ارسال المدد لنابليون بأية طريقة ولكن حال دون ذلك تألب الدول عليها مرة ثانية متشجعة بغياب بونابرت و بهزيمة أسطوله عند أبى قير وعداء السلطان له ، فنشبت نار الحرب فى أوربا و بذلك تعرضت حكومة الادارة فى فرنسا لخطر عظيم من جانب الدول المتحالفة ضد فرنسا . وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن تكوين المحالفة الثانية ضد فرنسا قد عرض الحملة الفرنسية لأشد الأخطار وذلك لسببين : (الأول) لأن تركيا قد دخلت الحرب ضد فرنسا ، (الثانى) لأن المحالفة الجديدة وتهديدها فرنسا جعل نابليون يفكر فى العودة الى أوربا لانقاذ الحالة . وليس من شك فى أن خروج نابليون من مصر كان من أكبر دواعى فشل الحملة .

---

(١) من بونابرت الى الصدر الأعظم (٢٢ أغسطس ١٧٩٨)

نابليون فى سوريا

(من فبراير الى مايو سنة ١٧٩٩)

لما علمت حكومة الادارة بتدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير كتبت الى بونابرت أن يتبع إحدى ثلاث :

(١) إما أن تبقى بمصر وتأخذ الاحتياطات الكفيلة برد هجوم الأتراك.

(٢) أو تحاول الوصول الى الهند فاذا وصلت لا يصعب عليك أن تجد أقواما مستعدين للانضمام معك بقصد تقويض النفوذ الانجليزى .

(٣) أو تمضى فى طريقك الى القسطنطينية فتسبق العدو الذى يهددك هذه الاقتراحات من لدن حكومة الادارة تدلنا على أن نابليون لم يكن فى مشروع الحملة الى سوريا ساعيا وراء مطمع شخصى أو أمنية كانت تدور فى مخيلته بل كان نازلا على ارادة حكومته .

أغراض الحملة :

على أن هناك أغراضا مهمة دعت نابليون الى ارسال الحملة منها أنه كان يؤمل اذا ماتم له النصر أن تضطر تركيا الى الانسلاخ عن الحلفاء وعقد الصلح على انفراد مع فرنسا ، كذلك كان يريد أن يضع حدا لتموين السفن الانجليزية من سواحل البحر الأبيض الشرقية متى خضعت هذه السواحل لحكم فرنسا ، ولا يبعد أن يكون نابليون قد فكر وقتئذ فى تنفيذ مشروعه الشرقى العظيم الذى لو تم لأمكنه أن يصل الى باريس برا عن طريق القسطنطينية وفيينا .

على أن نابليون لما علم باستعداد الأتراك فضل أن يتخذ خطة الهجوم كعادته ، لأنه رأى أنه اذا بقى فى مصر أعطى الفرصة للأتراك فأرسلوا جيشين فى وقت واحد وعند ذلك يتعرض الفرنسيون لهجوم جيشين من جهتين مختلفتين فيضطر نابليون الى تقسيم قواته و يضعف أمله فى الانتصار،

أضف الى ذلك أنه اذا بقى بونابرت بمصر ودخل الجيش المهاجم البلاد لا يبعد أن يتشجع الشعب فيقوم بالثورة ويتعرض الفرنسيون حينئذ لخطرين داهمين : العدو من الأمام ، والثورة من الخلف .

قيام الحملة ونابليون أمام عكا :

لذلك قامت الحملة بقيادة نابليون وتبلغ ١٢٠٠٠ جندى قاصدة سوريا فى فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن قبض على ناصية الأمور بمصر وترك عددا قليلا من الجند فى حاميات القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط . ودخل الفرنسيون " العريش " ثم " غزة " و " يافا " وهنا سلمت حاميتها وعددها ٤٠٠٠ جندى للضابط الفرنسى فأمنهم على حياتهم ، ولكن نابليون ضاق بهم ذرعا ، ولما لم يكن لديه جند لحراستهم أو زاد يكفيهم أو سفن تحملهم الى مصر خاف أنه اذا تركهم وشأنهم لا يلبثون أن يحملوا السلاح ضده فى " عكا " فلم يجد مناصا من قتلهم جملة واحدة ، وتحمل أمام التاريخ إثم هذا العمل الفظيع . وعلى أثر ذلك فشا الطاعون بين جنوده ، ثم سار نحو " عكا " فوقف أمامها وواجه صعوبات جديدة لم تصادفه فى يافا ، ففضلا على أن عكا ميناء حصين فقد كان الرجل الذى يهيمن عليها جنديا شهما هو " أحمد باشا الجزار " وكان أمام عكا سفينتان حربيتان من الأسطول الانجليزى بقيادة " سدنى سمث Sidney Smith " الذى قام بدور هام فى تاريخ الحملة الفرنسية بمصر ومعه مهندس حربى من أشراف فرنسا الذين هاجروا بلادهم وانضموا الى الحلفاء ضد حكومة بلادهم واسمه " فليبو Phélippeaux " وكان زميلا لبونابرت فى المدرسة الحربية ومن أشد منافسيه واليه يرجع الفضل فى طول مقاومة عكا وقوة تحصينها .

أثر القوة البحرية :

وانك لترى أثر القوة البحرية ظاهرا فى حصار عكا ظهورا تاما ، فقد ظل الحصن مفتوحا من جهة البحر تصل اليه المؤونة والذخيرة والرجال بسهولة وهذا مما جعل حصار نابليون للحصن قليل الجدوى .

وكان نابليون قد أرسل قوة المدفعية من مصر عن طريق البحر فلم تصل كاملة و وقع جزء منها فى أيدى الانجليز ،واضطر نابليون أن يحاصر الحصن وقــوة مدفعيته ظاهرة الضعف . أما الشعب السورى وخاصــة الدروز والطوائف المسيحية و بعض القبائل العربية فأحسنت اســتقبال بونابرت واتصلت معه سرا مرجئة اعلان انضمامها اليه حتى تسقط عكا .

هاجمت القوات الفرنســية حصن عكا مرات متتالية ، ولكنها كانت تعود فى كل مرة بالفشل رغم جهود بونابرت العظيمة ، ثم أرادت تركيا أن تحصر القوة الفرنســية بين نارين وتضطرهم الى رفع الحصار عن عكا فأرسلت قوة من دمشق تبلغ ٢٥,٠٠٠ جندى بقيادة والى دمشق فأرسل نابليون قوة قليلة العدد بقيادة "كليبر" لملاقاتها ، ولمـا أوشك كليبر على الانهزام سار اليه نابليون مسرعا وحاز النصر فى موقعة "تل طابور" جنوبى عكا فى ١٦ أبريل سنة ١٧٩٩

رفع الحصار عن عكا وموقعة أبى قير البرية :

هذا الانتصار أحيا الروح الأدبية بين الجنود ، و بينما كان نابليون يستعد لهجوم حاسم على عكا جاء المدد اليها عن طريق البحر فى ٧ مايو ، اذ نزل جزء من الجيش الذى كانت تعده تركيا فى "رودس" ومع ذلك قام نابليون بآخر هجمة للمرة الرابعة عشرة ، وفعلا اخترقت الجنود الفرنسية حصن عكا ولكنهم وجدوا بيوتها قلاعا وشوارعها محصنة بالخنادق والمتاريس ورأى نابليون انه إذا استمر فى هجومه تعرضت قوته لخسارة جسيمة فاكتفى بتدمير وتخريب المدينة وقرر رفع الحصار والعودة بعد أن استمر حصارها أكثر من شهرين من مارس الى ١٤ مايو ١٧٩٩ وخسر من رجاله ما يقــرب من ثلاثة آلاف رجل مات منهم كثير بالطاعون ، وقد لاقت الحملة أثناء رجوعها الى مصر عن طريق الصحراء مصاعب جمة بسبب تفشى الطاعون وشدة الحرارة ، ومع ذلك دخل نابليون القاهرة فى ١٤ يونيه دخول الظافر المنتصر ، ولكن تظاهره بالانتصار لم يخف الحقيقة عن المماليك الذين

تشجعوا و وصلوا الى قرب الجيزة عند الأهرام مهددين القاهرة . و بينما كان نابليون يأخذ العدة لمقابلة المماليك ومراد بك اذ وصل اليه خبر نزول العثمانيين عند أبى قير فى ٢٤ يوليه . وقد كان احتمال نزول هذه الحملة من أهم الأسباب التى دعته الى رفع الحصار عن عكا والاسراع الى مصر لرد الهجوم المنتظر ، وكان نابليون يظن أن الانجليز سيشتركون فعلا فى هذه الحملة فأخذ احتياطات حاسمة أهمها اصدار الأمر " لديزيه " باخلاء الصعيد بعد أن أخضعه وأقام فى أقسامه حكومة عادلة وصدر الأمر الى الحاميات الأخرى بضرورة السير والاجتماع عند الرحمانية لمنع تقدم المهاجمين ، ثم سار هو شمالا ، وكان الأتراك وعددهم ١٨ ألف جندى بقيادة مصطفى باشا قد احتلوا قلعة أبى قير وقتلوا من فيها من الفرنسيين فجاء الفرنسيون بسرعة ونشبت الموقعة واستمرت من ٢٥ يوليه الى ٢ أغسطس وقد تدخل الأسطول الانجليزى فى المعركة ، فتقهقر الفرنسيون وتعقبهم العثمانيون تاركين قلاعهم واستحكاماتهم التى احتلها الفرنسيون وقطعوا على العثمانيين خط الرجعة فانكسر الجيش العثمانى و وقع مصطفى باشا أسيرا وقضى على معظم الجيش فى واقعة أبى قير البرية فى أغسطس سنة ١٧٩٩ وصار اسم " أبى قير " موضع فخر الفرنسيين بعد أن كان من أشأم الأسماء لديهم منذ تدمير الأسطول الفرنسى أول أغسطس سنة ١٧٩٨

خروج نابليون :

و بعد أن حسن نابليون سمعة الفرنسيين ومركزهم فى مصر باحرازه هذا النصر الباهر فكر فى العودة الى فرنسا واتفق سرا مع أمير البحر " غانتوم Ganteaume " لتهيئة وسائل الافلات من رقابة الأسطول البريطانى وتدبير السفن اللازمة لنقله هو و بعض أصدقائه المقربين ، وفى ٢٢ أغسطس قام نابليون ومعه من الضباط " برتييه Berthier " و" لان Lannes " و" موراMurat" واثنان آخران ، ومن العلماء " منج Monge" و" برتوليه Berthollet" وأما " ديزيه Desaix" فلحقه بعد قليل . وقبل أن يغادر البلاد عين " كليبر Kléber " قائدا للحملة و وصل فرنسا بعد شهرين .

الفصل الرابع

الحملة الفرنسية بعد نابليون

لم يسافر بونابرت من مصر خلسة الا لسببين مهمين :

أولا — تأكده أن مشروع الحملة فى الشرق أخفق نهائيا وأنه لابد من العودة الى ميدان العمل فى أوربا وأن الفرنسيين الذين تركهم فى مصر يمكنهم الاحتفاظ بهذه البلاد دون أية ضرورة لوجوده بنفسه .

ثانيا — علم نابليون بواسطة بعض الصحف التى أوصلها اليه سدنى سمث و بواسطة الرسائل الخصوصية التى كانت تصله من أوربا بين حين وآخر أن حكومة الادارة فى فرنسا قد ضعفت وأن أعداء فرنسا قد تألبوا عليها وأن القواد الفرنسيين قد انهزموا فى ايطاليا وفى ألمانيا، وأن فرنسا قد خسرت ما أنشأه نابليون وكسبه من الأملاك فى شمال ايطاليا والأراضى المنخفضة عقب صلح " كمبوفورميو " .

كذلك علم نابليون أن الحالة الداخلية فى فرنسا صارت تتطلب وجوده وأن الفرصة التى لم تسنح له عام سنة ١٧٩٧ قد آذنت بالسنوح عام سنة ١٧٩٩ وأنه اذا وصل فرنسا فلا تلبث حكومة الادارة أن تسقط أمام معارضته فيتسلم زمام الحكومة بيده .

على أن حكومة الادارة نفسها كانت ترغب فى حضور نابليون الى فرنسا وفعلا كتبت اليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تصف له سوء الحالة فى أوربا وفى فرنسا وتظهر فيه رغبتها فى عودة الجيش من مصر لحماية الوطن . ومما يدل على شدة اهتمام الحكومة بأمر انقاذ الحملة واعادة الجيش الى فرنسا اذا أمكن أنها كلفت أمير البحر " بروى Bruix " أن يخرج من ميناء " برست " ومعه ٢٥ سفينة و يشترك مع الاسطول الأسبانى و يخترق

البحر الأبيض المتوسط ويصل الى الاسكندرية ليعود بنابليون وجنوده الى فرنسا . وفعلا قام " بروى Bruix " من برست ومعه الأسطول الاسبانى وسار شرقا حتى وصل الى تونس ثم اضطر الى العودة خوفا من مباغتة الأسطول الانجليزى لهم ولأن الأسطول الاسبانى لم يوافق على خطة يكون من ورائها مهاجمة الأسطول الانجليزى . وعلى ذلك عادت الحملة الى برست فى أغسطس سنة ١٧٩٩ وتبدد كل أمل فى انقاذ الفرنسيين بمصر .

حالة الحملة الفرنسية بعد مغادرة نابليون :

غادر نابليون البلاد وترك الحملة فى أسوأ حال يمكن تصورها رغم انتصاره فى موقعة أبى قير .

مركزها الأدبى :

فمن الوجهة الأدبية : انحطت الحالة المعنوية بين الجنود كثيرا وخصوصا بعد سفر نابليون ، واعتقد أكثرهم أن البقاء بمصر أصبح أمرا لا يجدى ، وساعد على تأصل هذه الفكرة فى أذهانهم عجز حكومة فرنسا عن ارسال المدد الى مصر حتى بعد وصول نابليون وتسلم مقاليد الأمور بيده لم تبد الحكومة اهتماما عظيما بشأن مصر[١] وتأكد معظم الضباط والجنود أن فرنسا فى خطر أو أنها صارت أحق بمجهودات أبنائها من مصر ، وكانوا يعتقدون أن خروج الحملة من مصر سيكسب فرنسا جيشا يبلغ عدده ٢٥,٠٠٠ وحليفا جديدا هو تركيا .

أضف الى هذا عدم ملاءمة جو البلاد الفرنسيين ، وقلة المال اللازم للحملة وكساد التجارة بسبب الحصر البحرى واحتياج الحملة الى عدد وآلات وملابس وعمال فنيين لا سبيل للحصول عليها فى الشرق .

(١) فى سنة ١٨٠١ حاول أمير البحر " غلمتور " بأمر بونابارت عبور البحر الأبيض المتوسط لارسال المدد الى مصر فلم يفلح .

فلا غرابة حينئذ أن ينضم معظم جنود وضباط الحملة الى الرأى الذى يقول بضرورة جلاء الحملة عن مصر . وكان " كليبر " زعيم الحزب الذى يقول بهذا الرأى . أما الحزب المعارض للجلاء فكان يمثل رأى أقلية ضئيلة وزعيمه القائد " مينو " ومن رأى هذا الحزب أن الاحتفاظ بمصر سيعود على فرنسا بفوائد تجارية ومادية تستحق من أجلها وجود ٢٠ أو ٢٥ ألف جندى وأن فرنسا لا يضيرها غياب هذا العدد القليل من أبنائها .

وليس من شك فى أن انقسام الرأى بين صفوف الحملة واحتدام الجدل بين أصحاب الرأيين قد أثرا فى حالة الجنود الأدبية أيما تأثير .

مركزها الخارجى :

أما من الوجهة الخارجية فانه على أثر ارتداد نابليون من أمام عكا تشجعت تركيا وكونت جيشا من أربعين ألف جندى بقيادة ضيا باشا الصدر الأعظم لمهاجمة مصر من الجهة الشرقية وكان فى الجيش ضباط من الانجليز يعاونون الصدر فى مهمته . وكان نابليون قد علم بأمر هذا الجيش قبل مغادرته البلاد فرأى أن يفتح باب المفاوضات مع الصدر الأعظم فأرسل أحد الأسرى الأتراك برسالة يلوم فيها تركيا على دخولها الحرب ضد فرنسا ويؤكد للصدر حسن نية فرنسا نحو الباب العالى وفيها يدعو تركيا الى الخروج من زمرة الحلفاء وعقد الصلح مع فرنسا . فكأن نابليون لم يفتح باب المفاوضة مع الصدر لإخراج فرنسا من مصر بل لإخراج تركيا من صفوف الحلفاء . وفى التعليمات التى تركها نابليون لكليبر يشير بونابرت بأنه لا يجب التخلى عن مصر الا عند الضرورة القصوى ، وعلى كل حال يجب التمسك بها حتى يعقد الصلح العام بين فرنسا والحلفاء .

والخلاصة أن الحملة عند مغادرة نابليون للبلاد كانت معرضة لهجوم تركى شديد من جهة الحدود الشرقية رغم أن نابليون كان قد مهد طريق المفاوضة مع العدو .

مركزها الداخلى :

أما من الوجهة الداخلية فكان مركز الحملة لا يقل خطورة عن مركزها الخارجى وذلك لانتشار المماليك فى أنحاء القطر وتهديدهم القاهرة بعد أن أخلى " ديزيه " الصعيد قبيل موقعة أبى قير البرية ، أما الأهالى فكانوا على أهبة الاستعداد للقيام بالثورة ضد الفرنسيين وقد أثار حميتهم ما سمعوه عن الجيش التركى الكبير الزاحف على مصر من جهة الشرق ، وقد أبدى العلماء مجهودا يذكر فى تهدئة الشعب امتثالا لأوامر السلطة الفرنسية ولكن الأهالى ارتابوا فى إخلاص المشايخ وأضمروا لهم السوء .

كليبر وأعماله بمصر :

عرفت الجنود الفرنسية "كليبر" ببسالته فى موقعة "تل طابور" أثناء حصار عكا ، وقد كسب عطف الجنود بسبب الجرح الذى أصابه عند نزول الحملة بالاسكندرية ، غير أن أهم الأسباب التى حببت كليبر الى الجنود والضباط الفرنسيين أنه كان زعيم حزب الأغلبية الذى يقول بضرورة جلاء الفرنسيين عن مصر ، هذا فضلا عن حسن منظره وطلعته العسكرية الجذابة .

استاء كليبر أيما استياء لما بلغه خبر مغادرة نابليون سرا للبلاد وكتب لحكومته تقريرا مطولا يصف فيه ما وصلت اليه حال الحملة بمصر ويبالغ فى صبغ هذه الحالة بالصبغة السوداء حتى ملأ التقرير بعبارات كلها يأس وقنوط وفى نهاية التقرير طلب من الحكومة أن تسمح له باجراء المفاوضات مع الأتراك بقصد الجلاء عن مصر .

مفاوضات الصلح :

وفعلا بدأ كليبر بمفاوضة الأتراك على احدى السفن أولا ثم عندالعريش، وكان مستشار الأتراك " السير ســدنى سمث " واليه يرجع الفضل فى تمهيد طريق المفاوضات ووضع الاتفاق النهائى، وكان "ديزيه" يمثل الفرنسيين. و بعد محاولات لم تجد من جانب الفرنسيين كطلبهم خروج تركيا من صفوف الحلفاء اتفق الطرفان على أن تخرج الحملة بمهماتها على حساب تركيا ، وأن الحملة اذا وصلت فرنسا صارت طليقة من كل قيد، وفى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ تمت الموافقة على " اتفاق العريش " وأعلنت الهدنة لمدة ثلاثة شهور و بدأ الفرنسيون يسحبون حامياتهم و يخلون الأماكن النائية التى كانوا يحتلونها ، وكانوا كلما أخلوا مركزا احتله العثمانيون الذين كانوا رابضين على الحدود الشرقية بقيادة الصدر يوسف ضيا باشا .

نقض اتفاق العريش :

أثناء ذلك حدث ما أوقف حركة الصلح، فبينما الفرنسيون يتأهبون لمغادرة البلاد و يخلون بحامياتهم عن بعض الأماكن كدمياط و بلبيس والصالحية و بينما الأتراك يتقدمون و يتوغلون داخل البلاد محتلين البلاد التى جلا عنها الفرنسيون اذا بخطاب وصل الى كليبر من القائد العام للقوات البريطانية فى البحر الأبيض يقول فيه إن الحكومة البريطانيــة لاتوافق على شروط " اتفاق العريش " وانها لاتسمح للفرنســيين بمغادرة مصر الا اذا سلموا سلاحهم كأسرى حرب وتركوا جميع معداتهم وذخائرهم للحلفاء .

أما سبب معارضــة الحكومة الانجليزية لاتفاق العريش فهو ســقوط التقرير الذى كان قــد أرسله كليبر الى حكومته وفيه يصــور مركز الحملة فى مصر بلون أسود قاتم، فلما علمت الحكومة الانجليزية بحرج الحملة فى مصر لم تقر " سدنى سمث " على عمله بل ولم تعترف بحق تمثيله لها أو للبــاب العالى . وكان الرأى الانجليزى قد انقسم الى قسمين : قسم يقول بالموافقة

على اخراج الفرنسيين من مصر واعادة أملاك الدولة الى السلطان ويمثل هذا الرأى "سدنى سمث". والقسم الثانى يقول بعدم مساعدة الفرنسيين على الخروج من مصر لئلا يساعدوا جيوش فرنسا ضد الحلفاء وحتى يقضى عليهم فى إفريقية، ويمثل هذا الرأى ويدافع عنه بشدة أمير البحر "نلسون". فلما وقع تقرير كليبر أو نسخة منه فى يد الحكومة صممت على مواصلة الكفاح فى مصر ، وما كان أغناها عن تحمل نفقات هذا الكفاح من مال ووقت وأنفس لو أنها أقرت شروط اتفاق العريش سنة ١٨٠٠

أما كليبر فانه أظهر فى هذه الآونة همة ومقدرة أعادت الى الأذهان ذكرى نابليون فى مصر فانه نشر صورة الخطاب على الجنود واكتفى بالتعليق عليه بهذه الكلمة :

"أيها الجنود لا جواب لنا على هذه الوقاحة إلا النصر فهيا الى الحرب !".

فكانت هذه الكلمات بمثابة تيار كهربائى سرى فى نفوس الجند فما كادت تقع عليها الأنظار حتى نادى الجميع ضباطا وجنودا بصوت وكلمة واحدة رنت فى الآفاق ! "الانتقام Vengeance ! ".

موقعة عين شمس :

هذه الحماسة وتلك الروح الجديدة جعلت عشرة آلاف جندى يهزمون أربعة أضعاف عددهم من الأتراك بقيادة يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم شر هزيمة فى موقعة "المطرية أو عين شمس" فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ إذ فر يوسف باشا ومن معه جهة الصالحية تاركين خزائنهم ومؤنهم وذخيرتهم.

ثورة القاهرة :

وبينما كان كليبر يطارد الوزير ويعيد النفوذ الفرنسى فى الدلتا كانت القاهرة تغلى غليان المرجل بالثورة وخاصة فى حى بولاق فقد انتهز المصريون فرصة خروج كليبر والجزء الأعظم من جيشه لمقابلة العثمانيين فقاموا وحاصروا ما بقى من الفرنسيين داخل المدينة ، ثم ما لبث أن دخل المدينة

عدد من جنود الأتراك والمماليك يبلغ ٦٠٠٠ وعلى رأسهم حسن ناصف باشا القائد العثمانى ومعه زعماء المصريين الذين فروا الى الشام عقب واقعة امبابه وهم ابراهيم بك ومحمد بك الألفى وعثمان كتخدا وحسن بك الجداوى ، فتحمس الناس من جميع الطوائف وتضافروا على انتهاز هذه الفرصة للقيام فى وجه الفرنسيين فحاصروا قلاع الفرنسيين وأقيمت المتاريس وحفرت الخنادق وغلقت أبواب المدينة وتطوع الناس لحراسة هذه الأبواب ليل نهار وظهرت الحركة بأجلى مظهر فى مدينة القاهرة وفى بولاق، فأنشئوا معملا للبارود فى الخرنفش وكان "السيد المحروقى" كبير التجار و "السيد عمر مكرم" نقيب الأشراف و باقى الأعيان والتجار "يباشرون الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا ودفعوا مافى وسعهم وطاقتهم من المعونة" ولم يكن الأقباط أقل وطنية من المسلمين وقت الشدة فقد جاء أكابر القبط جرجس الجوهرى وفلتيوس وملطى فطلبوا الأمان وقاموا بنصيبهم وقدموا المال اللازم ما عدا "يعقوب" الذى كرنك فى داره بالدرب الواسع(١).

أما المشايخ الذين اتهموا بممالأة الفرنسيين فنالهم أذى وإهانة بالغة من العامة . وقام الشعب فى بولاق على ساق واحدة بقيادة " الحاج مصطفى البشتيلى " الذى أثار حماسة العامة فهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى فى رءوسهم العناد .

قمع الثورة :

ولما انتهى كليبر من مطاردة فلول الأتراك وعلى رأسهم الوزير يوسف باشا دخل القاهرة وقطع الصادر والوارد وأحاطت جنوده بها وظل حصارها أكثر من شهر " حتى غلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات

(١) وهو المعروف "بالجنرال يعقوب" الذى غادر مصر مع الحملة الفرنسية ومات فى طريقه الى فرنسا .

واستمر ضرب المدافع والنيران ليـل نهـار والناس لايهنأهم نوم ولا راحة ومقامهم دائمـا أبدا بالأزقة والأسواق. أما الصبية والنساء فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية" . وعلى الرغم من مجهودات المصريين وطول مقاومتهم أخمد الفرنسـيون الثورة فى بولاق فقضوا على رجالها وأحرقوا بيوتها عن آخرها فى ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠

وكان مراد بك قد اصطلح مع الفرنسيين على أثر انهزام الأتراك وأعطاه كليبر حكومة الصعيد تحت سيـادة الفرنسيين فتوسط هو والبرديسى أحد أتباعه للصلح فأرسل الفرنسيون يطلبون المشايخ واتفقوا نهائيا على أن يغادر الأتراك ومن يشاء من الممـاليك والمصريين الى سوريا على حساب فرنسا وبحراسة الفرنسيين أثناء الطريق ، فاستشاطت العامة غضبا وهموا بقتل رؤساء العثمانيين وحاول "المحروقى" و "عمر مكرم" أن يقودا العامة بمفردهما فلم يفلحا ، وانتهى الأمر بخروج العثمانيين وعساكرهم ومعهم من الممـاليك ابراهيم بك الألفى وأمراؤهما وأجنادهما ، ومن المصريين السيد عمر مكرم والمحروقى وكثير من أهل مصر .

أما كليبر فلم يشتد فى الانتقام من المصريين ولم يعاقبهم على ثورتهم كما عاقبهم نابليون اذ اكتفى بفرض غرامة حربية عظيمة مقدارها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك كما أنه فرض على الوجه البحرى غرامة قدرها ٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهذا مبلغ عظيم اذا ذكرنا سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد .

فلا عجب اذا لاقى النـاس منتهى الضيق من جراء فرض هـذه الغرامة " حتى اضطروا الى بيع متاعهم ومصاغهم فـلم يجدوا من يشترى وضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترجى فى قبول المصاغات والفضيات فأحضر الناس ماعندهم فكانوا يقومونه بأبخس الأثمـان " .

السكون بعد العاصفة :

ولمـا هدأت الحـال شعر الناس والجنود باقتراب عهد سعيد جديد اذ انتظمت العلاقات بين مصر وفرنسـا وصار البريد يصل الى مصر فى كل

شهر ، وشرع كليبر يقوم باصلاحات جمة و يعيد تنظيم الحملة من جديد بعد أن كان قد لحقها الفشل ودب فيها دبيب اليأس ، وأهم هذه الاصلاحات : إنشاء المصانع المختلفة بهمة " كنتيه Conté " لإنتاج ما كان ينقص الحملة من مختلف الحاجات ، ثم إنه نظم " المجمع العلمى " وكون لجانا أرسلها فى مختلف الجهات لمزاولة البحث وكتابة التقارير العلمية ، ومن أعماله أيضا أنه زاد فى صفوف الحملة باضافة فرق جديدة من الطوائف الشرقية المسيحية و بنى الحصون والقلاع بالقاهرة والاسكندرية .

قتل كليبر :

و بينما هو مكب على هذه الاصلاحات اذا بشخص سورى اسمه "سليمان الحلبى" قد انقض على كليبر أثناء ما كان يتنزه فى حديقة منزله فطعنه بخنجره فى قلبه فخر صريعا فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ وعمره ٤٧ سنة و بفقده فقدت الحملة أعظم رجل يستطيع إنقاذها .

مينو :

وخلفه أقدم الضباط فى الحملة وهو القائد " مينو Manou " وعمره اذ ذاك ستون سنة ، واشتهر مينو بحسن الادارة ودماثة أخلاقه وشدة تعلقه بنابليون ! وقد يظهر لأول نظرة أن " مينو " بسبب سياسته ومعارضته دخول كليبر فى مفاوضات الصلح مع الترك و رفضه الدخول فى هذه المفاوضات بعد موت كليبر أنه أصلح الضباط للرياسة . ولكن تعيينه فى الحقيقة لم يثر حماسة الجند بسبب تحوله الى الاسلام و زواجه من مسلمة . وليس من شك أنه كان أقل كفاءة من سلفيه وأنه لم يكن يصلح لقيادة الحملة لأنه بحكم نابليون لم يسبق له أن تولى قيادة الجيوش ضد العدو وما سبق أنه كسب موقعة قط . على أن مينو اضطلع بأعباء الحكم وسار فى ادارته بكل حزم فنظم المالية و وحد صفوف الجيش وقضى على المنافسات الحزبية وقوى الحصون ، واستمر كذلك الى مارس سنة ١٨٠١ لم ينغص عليه سوى

شيء واحد، وهو عدم تبادل الثقة والتفاهم بينه و بين كبار الضباط فى الحملة فان جهله بالأمور الحربية جعله يرتاب فى آراء زملائه و يشك فى اخلاصهم وحسن نيتهم نحوه، وهذا الشعور هوالذى سبب انهزام الحملة أمام الانجليز فى النهـاية .

والحقيقة أن الحالة كانت تتطلب تدخلا سريعا وحاسما من جانب نابليون لا سيما أنه كان على رأس حكومة القنصليـة ، ولكن اهتمام نابليون بشأن الحمـلة أخذ يقل شيئا فشيئا كلما اتسعت دائرة مطامعه فى أوربا ، وكل ما حاوله أنه أرسل "غانتوم" سـنة ١٨٠١ بحملة بحرية وهذا لم يجرؤ على اختراق البحر الأبيض فتركت الحملة وشأنها .

موقف الحكومة الانجليزية :

وكانت الحكومـة الانجليزية قد تأكد لهـا ضعف تركيا وعجزها أمام الفرنسيين على أثر موقعـة أبى قير البرية وموقعـة عين شمس فصممت على الدخول فى الحرب بنفسها ، ووقفت ترقب الحالة وتتلمس الفرصة ، فلما قتل كليبر ، ورأس الحملة مينو اغتنمت الفرصة وعولت على بذل أقصى جهدها لإخراج الفرنسيين من مصر، فأرسلت (أولا) حملة انجليزية مكونة من ١٧,٠٠٠ بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة برياسة "السير رالف أبركرمبى Sir Ralph Abercromby" ، (ثانيا) قوة برية عثمانية تهاجم مصر من جهة حدودها الشرقية بقيادة الصدر الأعظم يوسـف ضيـا و يبلغ عددها ٢٥,٠٠٠ ، (ثالثا) قوة بحرية عثمانية يبلغ عددها ٦٠٠٠ تشترك مع الحملة الانجليزية وتسير فى فرع رشيد برياسة حسين باشا القبطان ، (رابعا) وأخيرا قوة هندية ترسلها حكومة الهند وتصل الى مصر عن طريق القصير وقنـا وعددها ٦٠٠٠ بقيادة "السير داڤيد بيرد Sir David Baird" .

وفى أوائل مارس سـنة ١٨٠١ نزل الانجليز عند أبى قير ولم يكن لدى "فريانت Friant" حاكم الاسكندرية الفرنسى سـوى ١,٥٠٠ جندى لمواجهة العدو فلم يستطع ايقافه ونزل باقى الحملة الانجليزية وسرعان ماصار الطريق الى القاهرة مُهددا .

سوء تدبير مينو :

أما مينو فانه أظهر ضعفا متناهيا وسوء تدبير وعنادا لايتفق مع خطورة الحالة فانه أبى أن يستمع للخبيرين من الضباط وأصر على تقسيم قوات الحملة بدلا من جمع مالديه من القوات لمواجهة الانجليز ومنعهم من النزول أو التقدم الى القاهرة . ولكن مينو كان يخشى هجوم الأتراك من الناحية الشرقية فترك الحاميات محتلة داخلية البلاد كما ترك بالقاهرة قوة كبرى ، وفاته أن الأتراك لا يجرءون على الزحف بمفردهم وأنهم سيتقدمون مع الانجليز خطوة بخطوة.

وعلى ذلك سار مينو شمالا ومعه قوة تبلغ ١١,٠٠٠ جندى وتقابل الطرفان فى موقعة " قانوب Canope " جنوبى أبى قير وانهزم الفرنسيون فارتدوا الى الاسكندرية وتحصن " مينو " داخلها ، أما الانجليز فخسروا قائدهم أبركرمبى وتولى بدله " هتشنسون Hutchinson " وساروا ببطء نحو الجنوب قاصدين القاهرة وكان المماليك قد انضموا الى الحملة وزادوا فى عدد فرسانها ، ولما وصلت الحملة " الرحمانية " اتصل الانجليز بالحملة العثمانية السائرة فى النيل وسقطت الرحمانية فى أيدى الانجليز بعد مناوشات مع الفرنسيين وبذلك قطعوا طريق الاتصال بين الحملة الفرنسية فى مصر وقائدها مينو فى الاسكندرية. وواصلت الحملة السير ببطء نحو الجنوب الى أن وصلت القاهرة فى يونيه وكان الانجليز ينتظرون قيام معركة حامية مع الفرنسيين قبل دخول القاهرة ولكن لشد مادهش الانجليز عندما علموا أن "بليار Belliard" قائد الحامية طلب الصلح فى حين أن عدد الفرنسيين كان يقرب من ١٦٠٠٠ من هؤلاء ٨٠٠٠ يستطيعون حمل السلاح .

تسليم القاهرة :

/ أما الشروط التى سلم بها الفرنسيون فى ٢١ يونيه سنة ١٨٠١ فهى عين الشروط التى كان قد اتفق عليها بالعريش فى يناير سنة ١٨٠٠ وهى خروج الفرنسيين بعددهم وأسلحتهم على سفن العدو وترك الحرية لهم اذا عادوا

الى أوطانهم . وعلى أثر ذلك أخذ الفرنسيون يتأهبون لمغادرة البلاد ودخل العثمانيون وأمراء المماليك القاهرة وبقى الانجليز معسكرين ببر الجيزة ./

وفى ذلك الوقت كانت الحملة الهندية التى خرجت من " كلكتا " فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ قد وصلت الى الجيزة فلم تشترك فى حرب ما ولكنها سارت شمالا فساعدت فى تضييق الحصار على " مينو " الذى أصر على المقاومة للنهاية رغم تسليم " بليار " . ولولا اختلافه مع الضباط والجنود وارتيابه فى نيات البعض منهم لطال أمد مقاومته الى وقت إبرام الصلح العام اذ كان نابليون قد أتم صلح " لونفيل " مع النمسا سنة ١٨٠١ وبدأت مفاوضات صلح " أمين " سنة ١٨٠٢ ولو استطاع " مينو " المقاومة شهرين آخرين لتم الصلح ولفرنسا نصيب من الغنيمة ، ولكن ماء البحر وبحيرة مريوط كان يحيط بمينو ، وكان الانجليز يضيقون عليه الحصار يوما بعد يوم فاضطر الى التسليم فى أول سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وأخذ الفرنسيون يغادرون البلاد حاملين معهم أبحاثهم وأوراقهم وأشياءهم ، وكان الانجليز قد اشترطوا أولا تسليم الأبحاث والأوراق اليهم فأبى العلماء وهددوا بقذفها فى البحر اذا أصر الانجليز على هذا الشرط وعند ذلك عدل الانجليز عن طلبهم .

الفصل الخامس

نتائج الحملة الفرنسية

من الوجهة الحربية :

انتهت الحملة بعد أن بقيت بمصر ثلاث سنوات وثلاثة شهور ولم تكن لها نتيجة تذكر من الوجهة الحربية ، ولكن نتائجها السياسية والأدبية والاقتصادية كانت ذات شأن عظيم .

فمن الوجهة الحربية لم تحقق الحملة الأغراض التى قامت من أجلها فلا الحملة استطاعت أن تتصل بالمستعمرات الانجليزية فى الشرق فتعمل معها على تقويض دولة الانجليز الاستعمارية ، ولا هى حاولت قطع الطريق بين انجلترا والشرق بانشاء قناة السويس والسيطرة عليها ، ولا تمكنت من تكوين مستعمرة فرنسية فى مصر توازن مالانجلترا من المستعمرات فى الشرق . وأهم أسباب الفشل من هذه الوجهة تفوق القوة البحرية الانجليزية تفوقا ظاهرا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية وقد ظهر أثر هذا التفوق أمام عكا وفى المحاولتين اللتين قامت بهما الحكومة الفرنسية لإنقاذ الحملة الأولى بقيادة "بروى Bruix" سنة ١٧٩٩ والثانية سنة ١٨٠١ بقيادة "غانتوم" ، ومن نتائج هذا التفوق التى كان لها أسوأ تأثير فى مصير الحملة تضييق الحصر البحرى على السواحل المصرية مما أدى الى كساد التجارة وسوء الحالة الاقتصادية العامة فى البلاد .

الوجهة السياسية :

أما من الوجهة السياسية الدولية فانه منذ ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وهو اليوم الذى خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ولدت "المسألة المصرية" وأخذت صبغتها السياسية فورا لأنه اذا كان الاستحواذ

على الهند يعد مغنما اقتصاديا هاما فان الاستيلاء على مصر بعد أن استقر بأرضها نابليون بمثل تلك السهولة أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التي ما فتئت تشغل بال الدول الى الآن ، ففرنسا وحدها هي الأولى التي اخترقت بصدق نظرها الحجب السميكة التي أخفت مركز مصر عن أنظار الدول في ذلك الوقت وهي التي عملت على أخذ العالم على غرة بالاستحواذ عليها ، وكانت مصر الى ذلك الوقت بعيدة عن أفكار الدول لا يعلمون عنها الا أنها ولاية عثمانية شرقية ، فلما نجح الفرنسيون في احتلالها ورأت الدول ما يمكن أن تجنيه فرنسا من الفوائد التجارية والسياسية تاقت نفس كل منها الى التدخل في مصر واحراز بعض الغنائم منها .

وما كانت الدول لترتبك بشأن مصر بسبب خصب أرضها أو جودة هوائها أو سوقها التجارية بل هناك أشياء خاصة تتنازع من أجلها الدول وهي المواصلات المختلفة ، والموقع الحربي ، والنفوذ السياسي فيها ، لأن مركز مصر في شرق البحر الأبيض المتوسط بين القارات الثلاث مع قربها لأوربا وسيطرتها على طريق الشرق ، وسهولة تهديدها لفلسطين والشام من الوجهة الحربية جعل لها شأنا دوليا زاده أهميــة فتح قناة السويس وكشف منابع النيل في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هذا سبب اهتمام الدول وخاصة انجلترا بأمر مصر .

أما انجلترا ففطنت في الحال الى أن لمصر مركزا حيويا بالاضافة الى علاقاتها مع مستعمراتها في الشرق ، وأنه اذا فاقها في مصر عدو لها أمكنه أن يكيد لها كيدا عظيما ولذلك لم تأل جهدا منذ ذلك الوقت في انتهاز كل فرصة للتدخل في مصر ومحاربة من يتصدى لتقوية مركزه فيها دونها .

غير أن هذا العداء لم يؤثر في مركز فرنسا الأدبي بمصر بعد أن غادرتها الحملة اذ أصبح للفرنسيين المركز الأول في نظر المصريين وأصبحوا هم ممثلي المدنية الغربية والرقي ، واعتبر المصريون أنفسهم مدينين لفرنسا وتلاميذ لأبنائها فلما حان الوقت واحتاجت مصر الى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط

فرنسيين فى تنظيم جيوشها ، وبمهندسين فرنسيين فى تنظيم ريها وطرقها ، وبأطباء فرنسيين وأساتذة ومشرعين فرنسيين .

وبدأ الفرنسيون يزيدون فى عدد من بقى منهم بعد ذهاب الحملة فأسسوا جالية كبيرة صناعية وتجارية وأصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر أشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه ، وهذا يفسر كثرة الأموال التى دفعها الفرنسيون فى القروض التى أصدرتها الحكومة وفى انشاء قناة السويس ، وظلت فرنسا مدة قرن تقريبا حافظة نفوذها الأدبى الى أن جاء الاتفاق الفرنسى الانجليزى سنة ١٩٠٤ فذهب بهذه الميزة .

ظهور المسألة العربية :

وكما أن الحملة الفرنسية على مصر كانت سببا فى ظهور المسألة المصرية فى عالم السياسة الدولية كذلك كان وجود نابليون فى مصر مدعاة الى التفكير فى تكوين وحدة عربية لجميع العناصر العربية الخاضعة لتركيا . وقد قوى هذه الفكرة فى ذهن نابليون ماشاهده من العداء والخلاف المستحكم بين العنصرين العربى والتركى . ويدلنا على اهتمام نابليون بتنفيذ هذه الفكرة — فكرة تكوين دولة عربية مركزها مصر — عنايته باللغة العربية ونشره المنشورات المختلفة باللغة العربية واتفاقه مع الشعوب العربية فى سوريا فى أثناء حملته على تلك البلاد ، ومع أن الحملة قد باءت بالفشل فان الفكرة ظلت قائمة وقد حاول تنفيذها " محمد على " واستخدمها الحلفاء فى الحرب العظمى ضد تركيا .

من الوجهة الداخلية :

أما من الوجهة الداخلية فقد كان المصريون قبل دخول الفرنسيين فى مصر فى سبات عميق ، بمعزل عن العالم المتمدين ، لا يعرفون عن المدنية الأوربية شيئا فأيقظتهم الهزة العنيفة من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت أعينهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل ، فآنس المصريون من هذا الضوء بريقا لامعا وتنسموا فى الهواء عنصرا منعشا من ناحية أوربا فاندفعوا بالطبيعة نحوها وأصبحت أوربا من ذلك الوقت موضع اعجابهم وارهابهم فى آن واحد .

كذلك قضت الحملة على سطوة المماليك فى البلاد وفلت شوكتهم وأظهرت ضعفهم وعجزهم أمام المصريين الذين رأوا لأول مرة فى تاريخهم الحديث إمكان اعتمادهم على أنفسهم دون المماليك ، فقد كان من أول أعمال نابليون فى مصر اشتراك المصريين فى الحكم وتكوين المجالس الوطنية فى القاهرة وفى الأقاليم لمساعدة الحكام العسكريين من الفرنسيين وقد أدخل مبدأ الانتخاب بدلا من التعيين فى الوظائف الهامة . فترك للديوان الوطنى حق اختيار رئيسه وسكرتيره . ولما خلت وظيفة قاضى القضاة التى كان يشغلها أحد العلماء الأتراك دعى المشايخ الى اختيار شيخ مصرى يقوم بالوظيفة بدلا من القاضى العثمانى . وهكذا تمرن المصريون فى أثناء وجود الفرنسيين على أن يقوموا بنصيبهم فى حكم البلاد فكان لهذا التدرب أثره فى الحوادث المستقبلة .

من الوجهة العلمية :

أما من الوجهة العلمية فان أهم وأبقى أثر تركته الحملة فى مصر هو ما خلفه العلماء من الأبحاث العلمية والعملية التى أضاءت الطريق أمام الباحثين ووضعت أساس تقدم البلاد العلمى والصناعى والاجتماعى . ومن حسن طالع البلاد أن جاء مع الحملة نوابغ النظريين ونوابغ العمليين فكان "منج Monge" أكبر رياضى جنب "ليبير Lepére" أكبر المهندسين و"كنتيه Conté" أذكى المخترعين . وقد ذكرنا أن نابليون بونابرت هو أول من كون المجمع وقسمه الى لجان مختلفة ، غير أن المجمع لم ينشط الا فى عهدى كليبر ومينو ، ففى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ كون كليبر لجنة كبرى لتنظيم عمل المجمع ووزعت الأعمال على اللجان الآتية :

(١) للتشريع والديانة والعادات .	(٦) للتجارة والصناعة .
(٢) للإدارة .	(٧) للزراعة .
(٣) لنظام الشرطة .	(٨) للتاريخ الطبيعى .
(٤) للتاريخ والحكومة .	(٩) للآثار القديمة .
(٥) للحالة العسكرية .	(١٠) للنيل والفيضان .

فكان أعضاء اللجان يطوفون فى الأقاليم والقرى باحثين منقبين مستعلمين من الأهالى والحكام عن كل ماله علاقة بموضوع بحثهم ، ومن أهم هـذه الأبحاث درس مشروع وصل البحر الأحمر بالأبيض :

ان أول عمل قام به المجمع هو كشف أثر القناة التى كانت توصل البحر الأحمر بالنيل وفحص برزخ السويس بقصد انشاء قناة توصل البحرين ؛ وكانت اللجنة التى ذهبت لدرس المسألة برياسة المهندس "ليبير Lepére" وقد زار نابليون هذه الجهات بنفسه مع اللجنة فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ . إما "ليبير" فانه كتب تقريرا فنيا وافيا فى الموضوع أظهر فيه أهمية استخدام هـذا الطريق وأفضليته على الطريق الأخرى الموصـلة للشرق ، وقد استرشد " دلسبس " فى المستقبل بهذا التقرير عند ماهم بتنفيذ فكرة وصل البحرين وذلك على الرغم من الخطأ الحسابى الذى وقع فيه " ليبير" وكانت نتيجته أن قال بأن مستوى المياه فى البحر الأحمر أعلى منه فى البحر الأبيض وانه يخشى أن يفيض المـاء على أرض الدلتا اذا فتحت القناة .

ومن الأعمال المهمة أيضا وضع خريطة جغرافية صحيحة للقطر المصرى ، وقد تم وضعها فى سنة ١٨٠٠ فى عهد مينو اذ كوّن لجنة من المهندسين لمسح أراضى القطر و جمع المعلومات اللازمة لوضع الخريطة التى قام بوضعها نهائيا " جاكوتين Jacotin " .

ثم يلى ذلك من الأعمال : الأبحاث العلمية والطبية والفنية والمناخية والجيولوجية والمـائية الخاصة بالنيل وفيضانه . وأهم هذه الأبحاث ما قاموا به فى دراسة الآثار القديمة فى "طيبة" و "ابيدوس" أو "العرابة المدفونة" و "عين شمس" فقد وصفوا هـذه الآثار وصفا دقيقا بقدر ما وصل اليه علمهم ونقلوا صورها بأيديهم ، وفى سـنة ١٧٩٩ عثر الضـابط الفرنسى " بوشار Bouchard " قرب رشيد على الحجر المعروف بذلك الاسم وعليه كتابة باللغات الثلاث الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية ، وظن العلماء حينذاك أنهم عثروا على مفتاح اللغة الهيروغليفية ، غير أن الحجر وقع بأيدى الانجليز فى أثناء حملتهم الأولى سنة ١٨٠١ فعادوا به الى لندن حيث حفظوه

فى المتحف البريطانى الى أن انبرى لتفسيره وحل طلاسمه العالم الأثرى الفرنسى "شمپليون Champollion" سنة ١٨٢٢ ومهد بذلك تكوين علم جديد أفاض النور على تاريخ مصر القديم هو علم الآثار المصرية "الاچيتولوچى"

أما الصناعات والمعامل التى أقامها الفرنسيون بمصر لتغنيهم عن مصنوعات أوروبا التى فقدوا أسباب الاتصال بها فكثيرة أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وللجراحة . وللحملة يرجع الفضل فى انشاء المستشفيات والمكاتب وطبع الجرائد وادخال المطبعة العربية التى قامت على أنقاضها مطبعة بولاق التى أوجدها محمد على ، ولهم فضل كبير فى تأديب عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون على القرى وفى تحصين القاهرة وساحل مصر الشمالى وغير ذلك من الاصلاحات التى، وان لم تكمل اذ ذاك فانها ، كونت النواة التى تجمعت حولها اصلاحات محمد على فى المستقبل .

الفصل السادس

تنازع البقاء فى مصر بعد الحملة

فرح المصريون وابتهجوا بخروج الفرنسيين ودخول الأتراك وحلفائهم من المماليك ولكن ما كاد الأتراك يستقرون بالبلاد حتى ساد الاضطراب واستقبلت البلاد فى المدة من يونيه سنة ١٨٠١ ويونيه سنة ١٨٠٥ عهدا وصلت فيه الفوضى الى درجة ليس لها مثيل فقد تعاقب عليها فى هذه المدة سبعة حكام قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا ، وفى هذه الفترة كاتب بعض المماليك حكومة فرنسا طالبين حمايتها واتفق آخرون على طلب حماية انجلترا ، وقد نزل فى هذه المدة بمصر كثير من مختلف الجنود العثمانية : ارناؤود وانكشارية ودلاة تنازعوا فيما بينهم . وهناك عاملان ساعدا على ارتباك الحالة :

أولا — سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد وهذا أعظم ما كانت تشكو منه مصر فى ذلك الوقت وذلك بسبب استمرار الحرب مدة ثلاث سنوات متتالية كانت فيها البلاد ميدانا للحرب أمام ثلاث قوات كبرى : الفرنسيين والعثمانيين والانجليز . ولا شك أن استمرار هذه الحروب وما ترتب عليها من قيام الثورات الداخلية واضطراب الأمن قد دعا الفلاح الى هجر مزارعه والصانع والتاجر الى ترك ووقف عملهما فاشتدت ضائقة البلاد الاقتصادية وعمد الحكام الى طرق القسر والاعتساف للحصول على المال اللازم .

ثانيا — تعدّد السلطات التى خلفتها الحملة الفرنسية فى مصر . فكانت القوة الانجليزية لاتزال باقية بقيادة "هتشنسون" فى الاسكندرية وبقيادة "Ramsay" أمام القاهرة عند الجيزة . أما القوة العثمانية فكان يمثلها القبطان حسين باشا فى الاسكندرية والصدر يوسف باشا ضيا فى القاهرة. وهناك قوة المماليك التى كانت منتشرة فى البلاد . وكانت كل قوة من هذه

القوى تعمل ضد الأخرى وتنتهز الفرص للتفوق عليها فضلا عن أن الأتراك والممـاليك كانوا منقسمين شيعا وفرقا وأصبحوا فى نزاع حزبى مستمر جر على البلاد مصائب جمة .

والآن نبحث فى مركز القوات المختلفة بعد خروج الحملة :

العثمانيون :

بمقتضى المعاهدة التى تمت بين الانجليز والأتراك سـنة ١٧٩٩ ضمنت انجلترا لتركيا سلامة أملاكها كما كانت قبـل دخول الفرنسيين مصر . ومعنى ذلك أن لتركيا أن تتسلم حكومة البلاد قانونا بعد خروج الفرنسيين، والحقيقة أن الأتراك بذلوا جهدا عظيما فى سبيل طرد الفرنسيين من مصر، وقد شاهدنا أثر هـذه الجهود عند عكا وأبى قيروعين شمس . ومع أن الفشل كان نصيب الأتراك فى هـذه الوقائع فانها على كل حال تدل على عظم الضحايا التى بذلتها تركيا فى سبيل استرداد مصر . لذلك اعتقد الأتراك أن المصريين مدينون لهم بحريتهم و بخلاصهم من "الكفرة" الفرنسيين وأنه يجب على المصريين فى مقابل ذلك أن يتحملوا عن طيب خاطر مغارم الأتراك ومطالبهم من غير شكوى أو اعتراض . وكان الأتراك مصممين فى هذه المرة أن يحكموا البلاد بأنفسهم دون أن يمكنوا المماليك من استرجاع سلطانهم الأول . وذلك لأنهم اعتبروا أنفسهم فاتحين مصر من جديد فلهم أن يحكموا البلاد مباشرة من غير وساطة الممـاليك ، وعلى ذلك عاد الأتراك الى حكم البلاد بطرقهم الأولى غير مكترثين بشيء سوى الاستحواذ على المـال بكل الطرق، ولمـا كانت موارد ثروة البلاد فى تأخر مستمر لجأ جنود الأتراك الى النهب والسلب والسطو على البيوت والأفراد والمحال التجارية. وممـا زاد الحالة حرجا انقسام الأتراك الى طوائف متعادية فكانت المعارك بين الجماعات والأفراد تنشب فى كل وقت وفى كل شارع ممـا أدى الى إغلاق الحوانيت ومحال التجارة وتملك الفزع من النفوس .

المماليك :

أما المماليك فساعدوا الأتراك والانجليز فى حملاتهم ضد الفرنسيين واليهم يرجع الفضل فى مناوأة القوات الفرنسية فى الصعيد ونشر الدعوة من سوريا ومصر ضد الفرنسيين ، لذلك كانوا هم أيضا يمنون أنفسهم بعد خروج الفرنسيين بأن ينالوا مركزهم القديم فى البلاد لا سيما أنهم كانوا أعرف الهيئات بالبلاد وبطرق حكم الفلاحين وأكثرهم دربة على حكومة البلاد. وقد كان فى استطاعتهم حقا أن يحسنوا مركزهم ويستعيدوا سلطانهم لو أنهم غيروا طرق حكمهم الأولى وفهموا ضرورة استمالة الشعب اليهم بعد أن تدرب على الاشتراك فى الحكم وعرف قوته وحقوقه فى أثناء حكم الفرنسيين .

ولكن المماليك "كأسرة البوربون" فى فرنسا بعد عودتها الى الحكم لم تتعلم شيئا من محنها ولم تنس شيئا من ماضيها ، ففشل المماليك كما فشل الأتراك . وترجع أسباب فشلهم الى ما يأتى :

(١) قضت الحملة الفرنسية على نفوذ المماليك فقللت من عددهم وأضعفت من جانبهم ، ولما لم يكن فى استطاعتهم شراء الرقيق من الخارج لملء صفوفهم بسبب معارضة الباب العالى الذى كان يسيطر على أسواق الرقيق وبلاده اضطروا الى استخدام بعض الأعراب ومع ذلك فان عددهم لم يزد كثيرا على ٤٠٠٠ ومثلهم من البدو .

(٢) انقسم المماليك أحزابا فظهر بينهم حزب يمالئ الانجليز وزعيم هذا الحزب محمد بك الألفى ، وحزب آخر يعارض الأول فى سياسته ويريد أن يتقرب الى الفرنسيين ، وأنصار هذا الحزب من أتباع مراد بك الذى مات سنة ١٨٠١ وخلفه "الطمبورجى بك" ثم "البرديسى بك" .

(٣) كره الأهالى لهم بسبب سطوهم على القرى ورغبتهم فى التمتع بخيرات البلاد دون غيرهم من العناصر .

(٤) مناوأة الأتراك للمماليك ورغبتهم فى التخلص منهم إما بالدسيسة وإما بالحرب .

مؤامرة الأتراك ضد المماليك :

وفعلا أبدى الباب العالى فى أول الأمر رغبته فى أن يتمكن ممثلو سلطته من الايقاع بالمماليك ، وتنفيذا لهذه الرغبة دعا حسين باشا القبطان فى الاسكندرية " الطمبورجى بك " خلف مراد بك لزيارته على احدى سفن الأسطول بأبى قيرهو وأتباعه، وأرسل يوسف ضيا باشا فى القاهرة الى ابراهيم بك وأتباعه دعوة أخرى لزيارته فى معسكره، وقد قتل عدد منهم فى أبى قير فى عرض البحر ، ومن الذين قتلوا الطمبورجى بك زعيم المراديين ، ولكن تدخل القائد " هتشنسون " وخلص الباقين. وكذلك فى القاهرة تدخل القائد الانجليزى " رمزى " وخلصهم من فتك العثمانيين بهم .

بعد ذلك لم يأمن المماليك البقاء فى القاهرة مع العثمانيين ، ووطنوا أنفسهم على محاربتهم حتى النهاية . وخلف الطمبورجى " عثمان بك البرديسى " وهو من أقوى زعماء المماليك وأحسنهم سياسة فبدأوا يشكون الى نابليون سوء حالهم وكتبوا اليه يقولون إنه هو الذى أوصلهم الى حالة البؤس والضعف التى هم فيها ، ويرجون أن يساعدهم فى اعادتهم الى سلطانهم الأول ويسمحون له مقابل تدخله بأى امتيازات يرضاها ، غير أن نابليون كان قد شغل عن مصر بمطامع أخرى فلم يأبه لصرخة المماليك ، وسرعان ما قامت الحرب بينهم وبين الأتراك .

الكفاح بين الأتراك والمماليك :

وكان " محمد باشا خسرو " أول وال عثمانى عين بعد خروج الحملة قد أرسل جيشا لمحاربة المماليك فانهزم الجيش عند بنى سويف وانتشر المماليك فى الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالانجليز الذين كانوا بالاسكندرية والذين ما فتئوا يعضدونهم وخاصة بعد اتفاق نابليون وتركيا ، فانتصر البرديسى انتصارا عظيما على الأتراك عند دمنهور فى نوفمبر سنة ١٨٠٢

ولكن الإنجليز لم يستمروا طويلا بالبلاد اذ اضطروا الى مغادرتها عقب صلح "أمين" بين فرنسا وانجلترا وعلى ذلك سرعان ماضعف مركز المماليك وظلوا كذلك الى أن انضم معهم محمد على فرجحت كفتهم على الأتراك ولكنه عاد فانقلب عليهم وما زال بهم حتى قضى عليهم .

موقف الانجليز :

بقيت القوات الانجليزية محتلة سواحل البلاد وموانيها الى أن تم صلح أمين سنة ١٨٠٢ بين انجلترا وفرنسا وبه نزل كل جانب عما احتله فى أثناء الحرب ، وتحتم على أساطيل انجلترا وجنودها الخروج من مصر وتم ذلك فعلا فى مارس سنة ١٨٠٣ ، غير أن السياسة الانجليزية بقيت تعمل فى مصر . هذه السياسة كانت ترمى إلى الاحتفاظ بنفوذها السياسى فى البلاد ومنع تفوق أية حكومة غير محالفة لانجلترا حتى لا يتأثر مركزها السياسى وتتعرض مصالحها التجارية والاستعمارية للخطر وهذا كله بسبب أهمية مصر بالنسبة لمواصلات الامبراطورية الانجليزية فى الشرق .

واعتمدت انجلترا فى أول الأمر على أن محالفتها مع تركيا تجعل نفوذها السياسى فى مصر متفوقا على نفوذ أية دولة أخرى . غير أن صداقة تركيا لانجلترا لم تدم طويلا بعد خروج الفرنسيين من مصر اذ سرعان ما تمكن نابليون من كسب تركيا لجانبه بفضل مساعى سفيره فى القسطنطينية "سباستيانى Sebastiani" وخرجت تركيا من المحالفة ضد فرنسا .

عند ذلك عولت انجلترا على استخدام المماليك فى مصر لمصلحتها ،وقد شاهدنا كيف أن المماليك كانوا منتصرين على الأتراك بفضل معاضدة الانجليز لهم ، وقبل أن يغادر الانجليز البلاد كونوا حزبا يعمل على تنفيذ السياسة الانجليزية فى مصر ولهذا الغرض أخذوا معهم محمد الألفى بك زعيم الحزب الى انجلترا حيث أكرموه وقدموا اليه الهدايا الفاخرة ومنوه بالسعى لدى الباب العالى حتى يتسلم المماليك مقاليد الأمور بمصر واذا ما تم لهم ذلك تركوا حماية السواحل الشمالية للأسطول البريطانى .

غير أن الألفى بك لم يفلح فى سياسته بعد عودته وذلك لمعارضة زعماء المماليك الآخرين عثمان بك البرديسى وابراهيم بك اللذين اتفقا مع محمد على وتمكنا من قهره ، ولما طاش سهم الانجليز سعوا لدى الباب العالى بأن يصدر أمره بطرد محمد على من مصر ومعه جنوده الأرنؤود ، ولما أخفقت هذه الخطة كشفت انجلترا القناع وأرسلت حملة القائد "فريزر Fraser" سنة ١٨٠٧ لغزو مصر .

موقف فرنسا :

أما فرنسا فظلت مرتبطة بمصر أدبيا ولكنها سياسيا لم تهتم بشأن مصر لاشتغال نابليون بمطامعه وحروبه فى أوروبا ، غير أن الحكومة الفرنسية أدركت من أول وهلة أن هناك عنصرا جديدا يعمل لمصلحة المصريين ضد الأتراك والمماليك و يطمح الى تنفيذ وتتميم الخطة والعمل الصالح الذى بدأه بونابرت فى الشرق ، لذلك عملت على معاضدته منذ الساعة الأولى ، هذا العنصر الجديد الذى ظهر فى أفق مصر هو "محمد على" .

محمد على :

كل هذه القوات والفئات فشلت ولم تستطع حكم البلاد لأنها لم تستمد قوتها من أهل البلاد ولم تدرك روح القومية الجديدة التى تجلت بين الشعب المصرى بسبب تدربه على العمل مع الفرنسيين الذين أشركوه فى الحكم ، ونجاح فرد واحد لم يكن شيئا مذكورا بجانب قوات المماليك والأتراك لأنه أدرك بحذقه وثاقب فكره مظاهر الوطنية المصرية الناشئة فعمل معها ولها ، وكسب لنفسه ولذريته ملكا وطيد الأركان ، هذا الفرد هو "محمد على الأكبر" .

طفولة محمد على :

ولد محمد على فى مدينة "قوله" فى بلاد الروملى أو مقدونيا وهى الآن تابعة لليونان ، وذلك فى سنة ١١٨٢ هجرية أو سنة ١٧٦٩ ميلادية ، وليس لدينا من المعلومات ما يؤيد صحة هذا التاريخ سوى تأكيد محمد على نفسه

إذ كان يجد غبطة وفخرا فى أنه ولد فى نفس السنة التى ولد فيها "نابليون" و" ولنجتن" .

وقد جرت عادة مؤرخى عظماء الرجال أن ينسجوا حول أبطالهم ، وهم لا يزالون بعد أطفالا قصصا وحكايات وخيالات تنبئ عما هو مخبوء لهم فى المستقبل من عظم الجاه ورفعة الشأن . وقد ذكر الكاتبون والمؤرخون حول طفولة محمد على حكايات مختلفة سنقص بعضها لا لأننا نعتقد صحتها ولكن لأننا نرى فيها دلالة على صفات محمد على التى ميزته فى حياته :

وقد حكى محمد على عن نفسه مرارا أنه ولد لأبوين فقيرين وأنه الابن الوحيد الذى عاش لأبويه ، وأن أبويه لم يدخرا جهدا فى تربية وحيدهما ولكن زملاءه من الأطفال كانوا يرثون لهذا الابن الفقير ويقولون : " ماذا يا ترى يفعل هذا الطفل لو مات أبواه ، إنه لم يملك شيئا ولا يستطيع الكسب بنفسه" . فكانت هذه الكلمات اذا وصلت الى آذان محمد على ألهبت غيرته وأثارت همته وحماسته ، فكان لا يترك فرصة تمر من غير أن يظهر فيها تفوقه على أقرانه مهما لاقى وعانى فى سبيل ذلك .

وحكى أنه خرج مرة مع رفقائه فى سياحة فى البحر الى إحدى الجزر القريبة ، وبينما هم يسيرون اذ هبت العاصفة فأرغى البحر وأزبد وتضخمت أمواجه وعلت وهبطت فلم يستطع أقرانه المضى فى السياحة ونزلوا عند صخر قريب وبقى محمد على بمفرده وهو يعمل فى القارب بيديه حتى أدماهما ولكنه فى النهاية وصل الى الجزيرة بمفرده ، وقد صارت هذه الجزيرة ملكا له فى المستقبل وهى جزيرة " طاشيوز" .

كان أبوه ابراهيم أغا بن على من جنس تركى يقوم بوظيفة رئيس الحرس فى قوله فلما مات وكان الابن طفلا كفله عمه طوسون ، ثم لما مات طوسون بعد قليل كفله حاكم المدينة " الشوربجى " لما أنسه فى الطفل من الذكاء والصفات الممتازة ويقول البعض لقرابة بعيدة بين الأسرتين فتربى محمد على

مع ابن الشوربجى على أعمال الفروسية كركوب الخيل واستعمال السيف .
ومن الذين أكرموا مثوى الولد اليتيم وعطفوا عليه أيام صبوته تاجر فرنسى اسمه " المسيو ليون " من مرسيليا كان يتاجر فى الدخان فى قوله منذ سنة ١٧٧١ ، فكان محمد على يتردد عليه ويتعلم منه أساليب التجارة ، وقد حفظ محمد على جميل المسيو ليون فى مستقبل أيامه ولم ينس معروفه عليه على الرغم مما وصل اليه من دولة وصولة ، فأخذ يسأل عنه وعن مقره حتى اهتدى الى عنوانه سنة ١٨٢٠ وأرسل يدعوه الى مصر ، وقد تأهب ليون للسفر فعلا ولكنه مات قبل أن ينفذ عزمه ولما علم محمد على خبر موته كتب يعزى أخته وأرسل اليها هدية قيمة .

ومن الحكايات التى يذكرها المؤرخون والتى تظهر ما أوتيه محمد على من الدهاء والحزم والجرأة أن أهل قرية " بروسطه " امتنعوا عن دفع المال المطلوب فتكدر الشوربجى واستعصى عليه حل المشكل لعدم ميله الى استعمال طرق العنف ، فتقدم محمد على وأخذ على نفسه مهمة اخضاع بروسطه ، وجمع المال المطلوب ، فأخذ معه عشرة رجال مسلحين وذهب الى " بروسطه " وقصد توا الى مسجدها فصلى وأرسل يطلب أربعة من كبار أعيان القرية لتبليغهم أمرا يهمهم ، فأسرع الرجال بالحضور وحال دخولهم أشار محمد على الى رجاله بالقبض عليهم فتجمهر أهل القرية حول محمد على طالبين اطلاق سراح الأعيان ، فوقف محمد على وسط رجاله وهددهم بذبح الأعيان اذا هم هموا بتخليصهم ، وعلى ذلك قاد الرجال معه الى قوله ، وفى الصباح جاء أهل القرية يدفعون الأموال المؤخرة ليخلصوا أعيانهم من الأسر .

لذلك ولما أظهره محمد على من الهمة وصدق النظر والحكم فى الأمور كافأه الحاكم برتبة " يوزباشى " وزوجه باحدى قريباته وكانت أرملة ذات ثروة فولد له منها خمسة منهم ثلاثة ذكور هم " ابراهيم " و " طوسون " و " اسماعيل " ، الأول سماه باسم والده ، والثانى باسم عمه ، والثالث باسم مربيه الشوربجى . ويظهر أن زواج محمد على بالأرملة وولادة ابراهيم

فى نفس السنة التى تزوج فيها قد دعا الى القول بأن ابراهيم لم يكن ابنا حقيقيا لمحمد على بل هو ابن متبنى ، وهذه الدعوى لا تستند الى أدلة ثابتة ، والحقيقة التى اتفق عليها أكثر الرواة والمؤرخين والتى ذكرها محمد على كثيرا هى ما أثبتناه ، ويؤيد هذا الرأى تقارب الشبه بين الوالد وابنه ووجود أبناء آخرين لمحمد على غير ابراهيم ، وبقاء العلاقات بين الاثنين على أحسن ما تكون العلاقات بين ابن بار وأب رحيم ، وأخيرا اعتراف الباب العالى رسميا بهذه النسبة .

وبسبب الثروة التى كانت لزوجته زاول محمد على مهنة التجارة فى السلعة التى اشتهرت البلاد بانتاجها وهى الدخان ، وقد قضى محمد على سنين طويلة فى عيشة منزلية هادئة مجدا مثابرا فى تجارته ، عاملا على تربية أبنائه وبناته ، ولم يخطر بباله قط أنه سيأتى يوم يهجر فيه التجارة والوطن ويقوم فى حملة حربية الى بلد بعيد (١) .

وقد جاء هذا اليوم فى سنة ١٨٠١ حينما اتفقت انجلترا وتركيا على بذل أقصى مجهود ممكن لإخراج الفرنسيين من مصر فكان محمد على ضمن القوة التى قامت مع القبطان حسين باشا وسارت فى فرع رشيد بالاشتراك مع الحملة الانجليزية التى كان يرأسها " هتشنسن " ، وقد كان محمد على وابن الشوربجى على رأس القوة التى جاءت من " قوله " فلما عاد ابن الشوربجى لأسباب لا نعلمها صار محمد على رئيسا للقوة برتبة " بمباشى " ، ولما حاصرت الحملة الانجليزية حصن الرحمانية اشترك محمد على فى الموقعة وشاهد لأول مرة أساليب الحرب الحديثة ، وقد أبدى محمد على من الشجاعة ما جعل " القبطان باشا " يرقيه الى رتبة " قائد " وقد كافأه حسين باشا فوق ذلك بأن جعله فى معية خسرو باشا حاكم مصر العتيد .

---

(١) ومن الغريب أن محمد على لم يشر فى محادثاته الى تفاصيل هذا الطور من حياته مع أن تدريبه فى التجارة كان له أعظم أثر عملى فى حياته السياسية اذ مكنته غريزة التاجر من الانتفاع بموارد البلاد زراعيا وصناعيا وتجاريا وبذلك حصل على الثروة اللازمة لانشاء دولة على أقوى وأمتن القواعد .

وقد كانت العلاقات بين محمد على وخسرو باشا فى أول الأمر على أحسن ماتكون الى أن كانت موقعة "دمنهور" التى انهزم فيها الأتراك، وكان محمد علىّ على مقربة من مكان الموقعة ولكنه لم يتحرك لمساعدة اتكالا على تفوق الأتراك من حيث العدد ، فلما علم خسرو بذلك حنق على محمد على وأضمر له الانتقام فطلبه لمقابلته ليلا فأجابه محمد على أنه سيحضر نهارا ومعه جنوده .

خطة محمد على المبدئية :

هذا تفسير سياسة محمد على الأولى التى أوصلته الى مركز الحاكم فى مصر وذلك أنه رأى تفاهة الأغراض التى يقاتل من أجلها الطرفان. فالوالى كان يريد اخضاع المماليك ليجعل مصر تحت سيطرة الباب العالى و يرسل منها كل سنة من المال أكثر ما يستطيع ارساله ليبقى فى منصبه . والمماليك من جهة أخرى كانوا يريدون أن تكون مصر لأنفسهم ينعمون بخيراتها و يسومون أهلهاصنوف العذاب ،وفى كلتا الحالتين خراب مصرواضمحلالها وانحطاطها ، لذلك عول محمد على على ألا يساعد فى تقوية حزب دون آخر وصمم على ألا يعمل الا لما فيه نفعه الشخصى ، وكان قد دبر فى نفسه أن ينتفع بمركز مصر وخصب أرضها وما فطر عليه أهلها من الولاء والسكينة فيبنى لمصر ولنفسه مركزا عاليا ومجدا مؤثلا . فلماذا اذن لايترك محمدعلى هذه الفئات تتطاحن حتى تسنح الفرصة . وفى أثناء ذلك يمكنه بدهائه وحزمه وعقله و بعد نظره أن يعد العدة لنفسه ، هذا ماعول عليه محمد على وهو الانتفاع بما يسنح من فرص والسعى لتنفيذ أغراضه لمصلحة مصر .

ثورة الجند على خسرو :

وكان "خسرو" قد أمر الجنود بالمسير الى الصعيد لمطاردة المماليك الذين رحلوا الى الصعيد وحاصروا "المنيا" وعاثوا فسادا ونهبوا وخربوا القرى والبلاد فأبى الجند السير حتى يعطوا رواتبهم المتأخرة ،ولما لم يجابوا الى

طلباتهم تجمهروا فصوب عليهم خسرو المدافع ، غير أن "أحمد باشا طاهر" رئيس الحركة قاد الارنؤود وهزم خسرو ففر هذا الى دمياط وعين طاهر باشا واليا مؤقتا حتى يصدر أمر الاستانة بتوليته ، ولكن قامت قيامة الانكشارية وكانوا فى القاهرة مع قائدهم "أحمد باشا" والى المدينة الذى كان يجتاز مصر وهو فى طريقه الى بلاد العرب ، فطلبوا رواتبهم أيضا وقامت الحرب بينهم و بين الأرنؤود فدخل اثنان من الانكشارية وقتلا "طاهرا" وتولى أحمد باشا الحكم وأرسل يستميل محمدعلى الذى أصبح بعد موت "طاهر" قائد الأرنؤود وكان عددهم نحوا من ٤٠٠٠

اتفاق محمد على والمماليك :

ولكن محمد على لم يجبه الى طلبه بل دعا من زعماء المماليك عثمان بك البرديسى وابراهيم بك خضرا ، ودخل المماليك القاهرة بعد الاتفاق مع محمد على ، وتسلموا مقاليد الأعمال وطردوا الانكشارية وأحمد باشا الذى واصل السير الى مقر حكمه فى بلاد العرب ، أصبح الأمر بأيدى المماليك فى الظاهر ولكن كل شىء كان يعمل باشارة محمد على ، فتقرب اليه الأعيان والمماليك والمشايخ وسار "البرديسى" وقبض على خسرو واعتقله فى القلعة ، وبدأ محمدعلى والبرديسى يتحببان الى الناس ففتحوا مخازن الغلال ووزعوا الصدقات على الفقراء . كل هذا والوالى الجديد "على باشا الجزائرلى أو الطرابلسى" بالاسكندرية يخشى الحضور الى القاهرة ، ويكاتب المماليك ليتفق معهم وأخيرا سار الى القاهرة ومعه عدد عظيم من الجنود ففطن المماليك لغرضه وترصدوه فى الطريق وأجبروه على الرجوع الى سوريا ثم قتلوه فى الطريق . وبعد ذلك حضر الألفى الكبير من انجلترا نخشى البرديسى ومحمد على عاقبة اتفاقه مع الحكومة الانجليزية ؛ وكانت مصلحة المماليك تقضى عليهم اذ ذاك بالاتحاد ، ولكن البرديسى كان واثقا وثوقا تاما من محمد على فلم يهتم بذلك وعمل على تشتيت قوى الألفى الذى لم يسعه سوى الاختفاء .

التخلص من المماليك :

بعد ذلك قامت ضجة الألبانيين أو الأرنؤود وطلبوا رواتبهم فأحالهم محمد على على المماليك اذ كان تاركا كل شىء فى أيديهم ظاهرا ، ففرض البرديسى ضرائب جديدة وأرسل رسله لجمعها فذعر الناس وقاموا صاخبين وسخط العلماء والمشايخ على تصرفات المماليك وثارت الجنود عليهم ، عند ذلك خاف محمد على أن يكيد له المماليك كما يكيد هو لهم فلم يجد مناصا من كشف الحجاب و إظهار نياته ، فأرسل فى مارس سنة ١٨٠٤ جنودا لحصار البرديسى فى منزله وآخرين لحصار ابراهيم بك ، فما تنفس الصبح إلا والمماليك قد فروا من وجه محمد على و رحلوا مع زعمائهم من القاهرة و بذلك تخلص محمد على من مشاركة المماليك له ، ولم يبق بينه و بين غرضه النهائى الا خطوة واحدة وهى تسلم مقاليد الحكم فى يده .

احتراس محمد على :

ولكن ذلك الباشا الحذر رأى أن الفرصة غير سانحة ، فأملت عليه سياسته الدقيقة أن يتريث ، فعمد الى القلعة وفك أسر خسرو باشا و بعمله هذا برهن أمام الشعب المصرى أنه لم تكن له أغراض شخصية من فعلته وانه انما قام بعمله خدمة للمصلحة المصرية ، وأظهر كذلك ولاءه للسلطان وعدم تآمره مع المماليك على الباب العالى ، و بذلك حسن محمد على مركزه فى نظر الباب العالى وفى نظر الشعب المصرى .

بين محمد على وخورشيد :

ولكن حيلة محمد على لم تنجح ، لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا على خسرو وأنزلوه فى قارب الى رشيد ومنها الى القسطنطينية . واستعمل محمد على الدهاء والصبر مرة ثانية فعين " أحمد خورشيد " حاكم الاسكندرية واليا . فوصل خورشيد واشتبك محمد على فى وقائع ضد المماليك وأخذ يطاردهم

فى الصعيد ، وفى أثنـاء ذلك بلغه أن خورشـيد استقدم جندا من الشام يعرفون " بالدلاة " ليعاونوه ضد الأرنؤود ففطن محمد على لغرض خورشيد وعاد الى القاهرة ، وكان "الدلاة" قدانتشروا فى البلاد وفى المدينة يعيثون فسادا ، وأراد خورشيد ترحيل الألبانيين ومعهم محمد على ولكن هؤلاء أبوا وأخيرا وصل الأمر بتوليـة محمد على على ولاية " جده " فأبى محمد على أولا وامتنع عن الدخول فى القلعة فنزل الوالى فى بيت صديق لمحمد على وألبسه شارات الحكم ، وعاد محمد على الى منزله ناثرا الذهب فى طريقه بين الناس الذين اجتمعوا لتحيته .

أساس نهضة مصر الحديثة :

وبعد ذلك بثلاثة أيام كانت الجنود " الدلاة " قد أتت مخازى استفزت غضب العلماء والأهالى فقام المشايخ والعلماء والصناع فى ٥ صفر سنة ١٢٢٠ﻫ (مايو سنة ١٨٠٥) برياسة " السيد عمر مكرم " والشيخ عبد الله الشرقاوى وساروا فى موكب عظيم الى منزل محمد على وطلبوا عزل خورشيد باشا ، فسألهم محمد على عمن يريدون توليته بدله ، فقالوا " لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا " وتقدم السيد عمر والشيخ الشرقاوى وألبساه "الكرك والقفطان" وهما شارات الحكم ، ثم سار الجميع نحو القلعة فأبى خورشيد النزول وقال إنه معين من قبل السلطان بخطه الشريف فلا ينزل عن كرسيه بأمر " الفلاحين " واستمر فى القلعة يحاصره الأرنؤود تارة وأخرى المصريون الذين تقدموا لخدمة محمد على ، حتى حضر مرسوم السلطان بتولية محمد على حكم مصر فى يوليه سنة ١٨٠٥ ، فأذعن خورشيد للأمر .

مشاكل محمد على :

وصل محمد على الى غرضه الأساسى ولكنه وجد نفسه فى مركز لا يقل خطورة عن مركز سابقيه فى الحكم فكان أمامه المماليك فى الصعيد يتهددونه ويبذلون كل شىء فى سبيل طرده من مصر ، فلم يكتفوا بالكتابة الى

خورشيد باشا يعلمونه باستعدادهم لتعضيده ضد محمد على ، بل سعوا سعيا متواصلا لدى ممثل انجلترا يطلبون مساعدة الحكومه الانجليزية وحض السلطان على استدعاء محمد على واعادتهم الى مراكزهم . كذلك كانت أمامه مشكلة دفع رواتب جنوده المتأخرة . فكان احتياج محمد على للمال عظيما لمقاتلة المماليك ولإعطاء الجنود رواتبهم ولتقديم الهدايا للباب العالى ، غير أنه اتبع فى ذلك سياسة حكيمة وهى أنه أظهر لأصحابه من المشايخ والعلماء ضرورة جمع المال منعا لتألب الجنود واستعدادا لهزيمة المماليك أعداء المصريين ، و بفضل هذا الاتفاق فى الغرض حصل محمد على على الأموال اللازمة من غير أن يعرض نفسه لكره الشعب . على أن هذا لم يمنعه أحيانا من الالتجاء الى الطرق القهرية القديمة فى جمع المال .

محاولة نقل محمد على :

أما من جهة المماليك فقد استعملت الحكومة الانجليزية سياسة الضغط على حكومة القسطنطينية حتى أرسلت عفوا عن المماليك وأسطولا عظيما يحمل " موسى باشا " واليا جديدا على مصر ومرسوما بنقل محمد على الى ولاية " سلانيك " . فتظاهر محمد على بالقبول ولكنه استعان بنفس القوة التى نصبته حاكما ، فحرك المشايخ والعلماء وكتبوا التماسا للسلطان ولقبطان الاسطول يطلبون فيه ابقاء محمد على ويبدون عجزهم عن ضمان المماليك اذاهم عادوا الى حكم البلاد . وظل الألفى يكاتب القبطان ويرسل اليه الهدايا والقبطان يشدد على محمد على وجنوده بالخروج من مصر . الى أن دعا القبطان أمراء المماليك اليه وانتظر فلم يحضر أحد من الزعماء لاختلافهم فى الرأى ، ومالبث أن رأى بثاقب بصيرته ماعليه المماليك من تفرق الكلمة والشقاق اذ أبى البرديسى أن يشترك مع الألفى فى الاستنجاد بانجلترا ، فنزل القبطان عن رأيه الأول وكتب يؤيد محمد على فأرسل محمد على الهدايا الى السلطان مع ابنه ابراهيم وكتب خطابا يتعهد فيه بكل ماطلبه الباب العالى من المماليك فيدفع ٤٠٠٠ كيس (فى كل كيس خمسة جنيهات مجيدية)

كل سنة زيادة على قيامه بالحج ونفقاته . وتثبت محمد على فى ولاية مصر فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، و بتثبيته انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح أمر مصر بيد محمد على .

استنجاد المماليك بانجلترا :

غير أن الألفى لم يقلع عن سياسة المناوأة فأرسل يستنجد بالحكومة الانجليزية التى وعدته فى هذه المرة بارسال حملة انجليزية مكونة من ٦٠٠٠ جندى تعمل بالاشتراك مع المماليك . فظل الالفى يترقب وصولها عند دمنهور ، ومحمد على يرسل ضده قوة بعد أخرى فكانت تنهزم فى كل مرة . وأخيرا مات البرديسى فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ففرح محمد على كثيرا وما لبث أن تضاعف سروره بموت الألفى فى يناير سنة ١٨٠٧ ، وأيقن أن مصر قد أصبحت له فأخذ محمد على ينظر فى اصلاح الأحوال فى مصر وجمع من المال ما أمكنه جمعه من الأقباط والعلماء والتجار .

مظاهرة بحرية ضد تركيا :

ولم يكد محمد على يشرع فى الاصلاح حتى دهمه خطر جديد وهو بلا شك أول صدمة قوية واجهته فى أوائل حكمه . وذلك أنه لما أعيت انجلترا الحيل فى تثبيت نفوذها فى مصر بواسطة المماليك عمدت الى استعمال القوة ، فأرسلت أولا حملة بحرية ضد تركيا فى سنة ١٨٠٧ بقيادة أمير البحر "دكورث Duckworth" لترغم تركيا على التخلى عن محالفتها لنابليون وعلى الانضمام مع روسيا وانجلترا ضده ، فلما لم تذعن لذلك أعلنت عليها الروسيا الحرب ووقفت العمارة الانجليزية بالدردنيل وأخذت الحكومة العثمانية تستعد للدفاع بفضل تعضيد "سبستيانى" سفير نابليون فى القسطنطينية ، فأعلنت تركيا الحرب على انجلترا واقامت الاستحكامات ونصبت المدافع ودبت الحماسة فى قلوب السكان فتطوع الشبان آلافا

فى خدمة الأسطول الجديد ، فلما رأى الانجليز ماعليه البوغازات من المناعة انقلبوا على أعقابهم وباءت الحملة بالفشل بعد أن أصابها بعض العطب أثناء هروبها فى مارس سنة ١٨٠٧

حملة انجلترا على مصر ١٨٠٧ :

ولم ترض انجلترا أن تظهر بمظهر الفشل فأرسلت حملة يبلغ عددها ٧٠٠٠ بقيادة " فريزر Fraser " أمام الاسكندرية فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ وهذه هى الحملة التى كان قد وعد بها الألفى من جانب الحكومة الانجليزية ولو كان حيا لكان للحملة شأن غير شأنها ، ويجب أن نذكر هنا أن غرض هذه الحملة يختلف عن غرض الحملة الأولى التى أرسلتها سنة ١٨٠١ فهذه كان غرضها مساعدة الأتراك على طرد الفرنسيين ورد مصر الى الأتراك وأما حملة سنة ١٨٠٧ فكان غرضها الفتح والاستيلاء على البلاد بمعاونة المماليك .

انهزام الحملة عند رشيد :

وأراد الانجليز أن يتشبهوا بالفرنسيين فرسوا عند الاسكندرية وسلمت المدينة من غير مقاومة تذكر ، ثم احتلت الحملة رشيد بسهولة فظن الانجليز انهم فى " نزهة حربية " وكان الوقت صيفا فانتشروا فى شوارع المدينة وحاراتها وألقوا أسلحتهم وتفيئوا الظلال نائمين ناعمين ، وأنهم لكذلك اذا بحاكم المدينة " على بك السلانكلى " قد أمر جنوده من الأتراك والأعراب فأطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران فبادت الفرقة جميعها وأرسلت الأسرى ورءوس القتلى للقاهرة تأييدا لخبر الانتصار

موقف محمد على :

وقد وصل خبر الحملة الى محمد على وهو " بأسيوط يحارب المماليك ويطاردهم ، نخاف جانب الانجليز وتلكأ أولا ، ولكن ما لبث أن اتخذ الأهبة للسفر وترك العلماء يقومون بعقد الصلح ويجيبون المماليك الى كل مطالبهم على شرط أنهم يحاربون العدو المهاجم ، وأخذ محمد على يعد العدة للمقاومة ويبدى همته المعهودة فشرع ينظم قواته بمشورة صديقه " دروفتى Drovétti " قنصل فرنسا الذى ما فتئ من أول ظهور محمد على يرشده الى الطريق الحكيم والسياسة الرشيدة التى تمكنه من الظهور على أعدائه ، فدرب الجنود على طرق الحرب الحديثة، وبنى الاستحكامات . وفى أثناء ذلك كان " فريزر " قد أرسل قوة كبيرة الى رشيد على رأسها القائد " استوارت Stewart " لينتقم لما أصابه من الهزيمة الأولى فنجحت أولا ولكنها سرعان ما تقهقرت عند " الحماد " وعادت الى الاسكندرية خوفا من أن يصيبها ما أصاب سابقتها ، ورأى " فريزر " انه ليس من الحزم أن يعرض جيشه لهزيمة ثانية فقطع سد بحيرة مريوط وأحيطت الاسكندرية بالماء الملح كما حدث فى حملة سنة ١٨٠١ ، وظل بالاسكندرية ينتظر ما يمكن أن يقوم مماليك الألفى الذين انتخبوا " شاهين بك " رئيسا لهم .

المماليك لا يساعدون الانجليز :

وكان المنتظر أن يفاوض " فريزر " المماليك ويدعوهم الى الوفاء بعهودهم القديمة وهى القيام بالثورة فى الداخل ليقع محمد على بين نارين ، ولو كان الألفى باقيا لتفاقم الخطب ولتعذر على " محمد على " توجيه عنايته ضد العدو المهاجم من الخارج ، ولكن ماذا كان ينتظر من المماليك والانجليز منهزمون ؟ لقد آثر المماليك فى هذه المرة المصلحة القومية والملية على الفائدة الشخصية وأخلدوا الى السكينة بفضل اقناع العلماء لهم بأن

قيامهم مع الانجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين ، وعلى الخصوص أن الانجـليز قوم متمسكون بشعائرهم الدينية وليسوا كالفرنسيين لا يعرف لهم دين .

عقد الصلح وجلاء الانجليز :

وبعد أن أمن محمد على جانب المماليك واستمالهم اليه زالت هواجسه ومخـاوفه وخرج على رأس جيشه لمقابلة الانجلـيز ، فعجل هؤلاء بفتح مفاوضات الصلح فتم ذلك بتبادل الأسرى ، ورفض محمد على قبول فدية عن أسرى الانجليز ، فترك بذلك أثرا حسنا فى نفوسهم لا سيما وأنه كان قد أحسن معاملة الأسرى وعنى بالجرحى منهم فأحضر الأطباء والممرضين لمداواتهم والسهر على راحتهم فأكسبه كل ذلك رضاء الحكومة الانجليزية عنه ، ولم يكن ليعرف هـذه الأساليب الحديثة لولا ارشاد " دروقتى " له ، وقد أقلعت العمارة الانجليزية على عجل فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ بسبب عقد صلح " تلست " بين روسيا ونابليون اذ أصبحت انجلـترا بعد ذلك بمفردها أمام نابليون .

وبذلك تغلب محمد على على أعظم خطر تهدده الى ذلك الوقت فى حياته الجديدة ، وزاد حبه فى قلوب المصريين فأصبح فى نظرهم بطل مصر وحامى ذمارها ، ووصل اسم محمد على لأول مرة الى مسامع أوربا وصار بذلك من عوامل السياسة فى العالم الخارجى ، أما البـاب العالى فدارى حسده وأنعم على محمد على بحكومة السواحل المصرية وقد كانت الى ذلك الوقت تحت حكم السلطان مباشرة وفى دائرة نفوذ القبطان باشا .

ولـما انتهى محمد على من أمر الانجليز التفت الى تنظيم الأحوال ، فكان من أولى أعماله أنه سلم مقاليد المصالح المصرية لأشخاص أكفاء من ذوى قرباه أو من بلدته " قوله " مثل محمـد بك لاظ وحسن باشا الارنؤودى ، ومحمـد بك الدفتردار . ثم أرسل بجاءته أسرته وأولاده ،

وعينهم فى المناصب العالية واعتمد عليهم فنجح نجاحا عظيما ، واستمر محمد على للنهاية يثق بأولاده وأحفاده و يوليهم عطفه واهتمامه فحاط بذلك ملكه بسياج من الأمانة وتبادل المحبة الى درجة غير معهودة ، ولم يصب ملكه بشيء من منافسات الأسر التى هى آفة دول الشرق ، ولما أصلحت الأمور بحسن تدبيره مالت اليه قلوب المصريين ، وقبلوا دفع الضرائب المنظمة لما رأوه من ثمرة الاصلاح وخاصة فى وسائل الدفاع عن القطر، اذ أمر بتحصين السواحل عند دمياط ورشيد وأبى قير والاسكندرية والسويس ، وأصبحت الأمور لأول مرة فى أيدى حكومة قوية مصلحة .

الفصل السابع

نهضة محمد على

تمهيد ومقارنة

مميزات القرن التاسع عشر :

ولد القرن التاسع عشر والثورة الفرنسية تتمخض عن نابليون ابنها الحقيقى الذى ما لبث أن سوى حسابها وتسلم زمامها وواصل السعى وهو أحد أفراد الشعب حتى تسنم مركزا ظهر به على الذين توارثوا تالد ملكهم عن ملوك متوجة تستمد عظمتها وأحكامها من لدن الله تعالى . هنا بلغت الثورة الفرنسية المتجسمة فى شخص نابليون سمت النجاح فنفذ نورها الى قلوب الشعوب فى كل صقع ووصل أثرها الى أعماق النفوس من حيث تدرى ولا تدرى ، حتى اذا ما تألبت الرءوس المتوجة على نابليون وتمكنت فى النهاية من أسره وكسر جنده وأنظمته انبلجت الحقيقة وبقيت روح الثورة عاملة بين الأمم التى استضاءت بهديها على الرغم من مصادرة الملوك لها فى حلفهم المقدس وغيره ، وما كان فى مقدور حكومات أوربا أن تتسلط على نفوس الناس أو تطفىء نور العرفان أو تمحو حقائق التاريخ من صدور مستوعبيها . لذلك سرعان ما قامت الثورات فى العالم المتمدين ، وسرعان ما تشخص نابليون الامبراطور فى غيره من الأفراد ، وزراء وجنود ما جرت فى عروق آبائهم أو أجدادهم قطرة من دماء الملوك من قبل ، ولكنهم وصلوا الى ما وصلوا اليه من سلطان أو ملك بمحض جهادهم ونبوغهم . مثل هؤلاء " برنادوت " فى السويد و "مورا" فى ايطاليا "وكابودستريا" فى اليونان " ولويز نابليون " فى فرنسا " ومحمد على " فى مصر .

محمد على ونابليون :

إن محمد على إلا نابليون آخر ولدته الثورة أيضا ولكن فى الشرق فلولا الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ما وطئ محمد على أرض مصر ، والحملة الفرنسية من بنات أفكار الثورة قامت بها الثورة فى شخص نابليون فلما اضطر الى الرجوع الى فرنسا ولحقته الحملة الفرنسية بأكلها بعد أن فتحت عهدا جديدا لمصر ، ظهر محمد على على مسرح السياسة بمصر يريد تنفيذ سياسة نابليون فى الشرق بكل حذافيرها ، ولقد نجح محمد على حيث أخفق نابليون ، فقد ساد الشرق بطريقيه : طريق البحر الأحمر وطريق نهر الفرات ، وجمع العالم العربى تحت لوائه وكون دولة تمتد من جزيرة "كريت" غربا الى "خليج العجم" شرقا ومن "جبال طوروس" شمالا الى بلاد "سنار" جنوبا ، وحاصرت جنوده حصن "عكا" فما لبثت أن سقطت فى يده وانتصر على جيوش السلطان فى مواقع عدة، كان محمد على على أثرها قاب قوسين أو أدنى من عرش الخلافة .

نعم نال محمد على من لدن الدول مانال نابليون نفسه فقد تحداها حتى تحالفت عليه فى آخر الأمر وأرغمته على الخضوع ، ولكن نظر محمد على الى الظروف المحيطة به بعين الحكمة والحذر فأبدل اخفاقه نصرا وثبت لنفسه بموافقة الدول عرشا لايزال يتوارثه نسله الى الآن ، أما نابليون فقد خسر باخفاقه فى "واترلو" كل شيء . وليست الموازنة بين نابليون ومحمد على ضربا من المبالغة أو المغالطة ، فأوجه الشبه بينهما كثيرة على الرغم من اختلاف أحوالهما اختلافا بينا ، والمطلع على المستندات الرسمية السياسية التى دارت بين ممثلى الدول ومحمد على أثناء أزمة سنة ١٨٤٠ يرى أن كثيرا من ساسة ذلك العصر وهم ينصحون أو يهددون محمد على لم يترددوا فى الاشارة الى العواقب الوخيمة التى قد تعود عليه كما عادت على نابليون من جراء مخالفته للدول . أما السحر الشخصى الذى كان لاسم نابليون على محمد على فقد كان عظيما حتى جعله يدرس تاريخ نابليون درسا وافيا من أوثق الكتب الفرنسية ، وظل نابليون القدوة والمثل الأعلى الذى اختاره محمد على

لنفسه طول حياته وبقى للنهاية ينتفع بخدمات رجال نابليون والذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية عقب عودة الملكية فولوا وجوههم شطر مصر ومصلحها العظيم .

وكما أن نابليون بونابرت الايطالى جاء فرنسا وهو جندى وما لبث أن أصبح ملكا مطلقا بارادة الشعب الفرنسى ، كذلك جاء محمد على الألبانى مصر وما هى الا خمس سنوات حتى أصبح صاحب الأمر بارادة الشعب المصرى . فمحمد على مصرى مهما قيل انه ألبانى أو تركى كما أن نابليون فرنسى مهما قيل انه "قورسق" أو ايطالى . لم يدخل محمد على مصر فاتحا ولم يملكها بحد السيف انما حقه مستمد من أهل مصر الذين نادوا به حاكما وأجبر الباب العالى على الموافقة ، ولقد كان يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٠ (مايو سنة ١٨٠٥) بمصر من الأيام التاريخية المشهودة ففيه وضعت مصر بيدها الحجر الأساسى لحريتها اذ تمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشايخ وصناع وتجار وساروا فى شوارع القاهرة الى منزل محمد على بهيئة مظاهرة وطنية عظمى منادين بسقوط "العثمانلى" ومعلنين رغبتهم فى تولية محمد على، وعلى ذلك يكون محمد على كلمة الشعب المصرى الفاصلة فى موضوع الحكم فى مصر .

منذ ذلك التاريخ أصبح محمد على بطل مصر الفذ ومازال يعمل على إحياء وتقوية مصر زراعيا وحربيا وصناعيا وتجاريا حتى أصبحت فى ربع قرن بفضل جهوده " الهرقلية " أول دولة فى الشرق كله وثالث دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط بعد انجلترا وفرنسا، وأول ما ظهرت جهود محمد على وهمته الحربية كانت فى حرب الوهابيين .

حرب الوهابيين

ضعف الباب العالى :

لم يشأ الباب العالى أن يترك محمد على بمصر هادئ البال يعمل على تقويتها واصلاحها على الرغم مما بذله فى تخليص مصر من المفسدين والأعداء. فالما رحلت الحملة الانجليزية أتت المكاتبات اليه بضرورة الاستعداد لمقاتلة الوهابيين، وكانت داخلية بلاد الدولة فى حالة من الفوضى شديدة والحكومة عاجزة عن صيانة البلاد من الخراب ، وسبب ذلك رغبة السلطان سليم الثالث فى ادخال النظام الحديث فى الجندية فى سنة ١٨٠٨ فقام العلماء وساعدوا الانكشارية على الثورة ، فخربوا ودمروا واستبدوا بالأحكام بعد أن عزلوا السلطان سليم وولوا السلطان مصطفى الرابع ، ثم مالبث أن انتصر أعداء الانكشارية وعزلوا السلطان مصطفى ثم قتلوه بعد بضعة أشهر وولوا السلطان "محمود الثانى" وكان شابا حازما فصالح الانكشارية وترقب الفرص للقضاء عليهم ، ولكن هذه الحوادث تركت الجيش فى حالة سيئة من الضعف . فلما رأى السلطان أن قوة الوهابيين أخذت تستفحل وأن جنوده تنهزم فى كل مرة كتب الى محمد على ليجهز حملة على الوهابيين سنة ١٨٠٩ وكانوا قد استولوا على الحرمين وقطعوا طريق الحج وهدموا قبر (النبي صلى الله عليه وسلم) ودانت لهم العرب بأكملها .

منشأ الوهابيين :

ظهر فى أوائل القرن الثامن عشر رجل فى بلاد " نجد " اسمه محمد بن عبد الوهاب من علماء الحنابلة ولد سنة ١٦٩٦ م وتلقى العلم عن أبيه ثم انتقل الى "البصرة" لاتمام دروسه ، و زار مكة والمدينة ثم استقر فى بلده فى اقليم " العارض " من نجد ، وكان يظهر شذوذا فى كثير من المسائل الدينية ومخالفة السنة وأئمة الدين ، وخلاصة مذهبه التمسك بالقرآن الكريم

والتوسل الى الله رأسا دون وساطة نبي أو مخلوق ، وكان يعتقد أن التوسل لله بالنبي شرك وأن زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء جميعهم والأولياء شرك ومن دعوته التقشف وعدم التزين بالحرير والذهب وهدم المزارات وقباب الأولياء لأنها من مظاهر الوثنية ، ومنع الناس من التدخين والمسكرات ومنع البغاء والميسر . ولما ذاع أمره واضطهده أهل بلده دعاه "محمد بن سعود" أمير "الدرعية" الى المكث فى بلاده فدخلها محمد بن عبد الوهاب فى سنة ١٧٤٦ وقد وعده بن سعود بحمايته ممن يناوئه . فنشر دعوته وأخذ نفوذه السياسى يزداد بانضمام بن سعود اليه فكاتب مشايخ القبائل ودعاهم الى مذهبه والا قاتلهم برجال "الدرعية" جهادا فى سبيل الحق ، فأذعن له كثير وحضروا اليه فى الدرعية حتى زاد أنصاره زيادة يخشى منها ، ثم تزوج بن سعود بابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت "عبد العزيز" الذى خلف أباه سنة ١٧٦٥ وجمع بين سلطان جده محمد بن عبد الوهاب من الوجهة الدينية وسلطان والده من الوجهة السياسية ، وبذلك اندمجت الدعوة الدينية فى السياسة وكان عبد العزيز شجاعا فاستولى على مكة سنة ١٨٠١ ودانت له شبه جزيرة العرب ، وكانت الدولة اذ ذاك مشتغلة بمشاكلها الخارجية فى أوروبا وفى مصر فلم تقو على رده وقتل فى ١٨٠٢ ، وخلفه ابنه "سعود الثانى" وكان جنديا شهما هماما فهدد الدولة فى العراق والشام وفتح "المدينة" سنة ١٨٠٤ واستولى على ما فيها من التحف ، ونشر الوهابية بهمة وشدة فكتب الى السلطان سليم يأمره بعدم ارسال المحمل السنوى الى البقاع المقدسة بالزمر والطبول قائلا ان ذلك ليس من الدين فى شىء ، فأبطل ارسال المحمل منذ سنة ١٨٠٦ ، هذه كانت الحال لما وصل الى محمد على فى سنة ١٨٠٩ أمر تجهيز الحملة .

استعداد محمد على :

ولما وصل الأمر بذل محمد على جهده فى تعبئة العسكر وتجهيز المؤن والذخائر ، ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر الى بلاد العرب

صعب للغاية يهلك فيه كثير من الجند ودواب النقل صمم على أن يتخذ طريق البحر الأحمر الى "ينبع" و "جده" . ولم يضعف هـذا العزم حين لم يجد سفنا له لنقل الجند بل أصدر أوامره الى سـائر جهات القطر المصرى بجمع الخشب وما يلزم لانشـاء خمس عشرة سفينة كبيرة ، وطلب الى الاسـتانة ارسال الخشب كذلك ، ولمـا تم قطع أشجار النبق والتوت أحضرت الى ساحل "بولاق" حيث أنشأ هناك "دار صناعة" مكونة من معامل مختلفة اجتمع فيها النجارون والنشارون والحدادون وغيرهم وبعد إعداد أجزاء السفينة كانت تحمل على الجمال الى السويس وهناك يضم الصناع أجزاءها ويهيئونها للنزول الى البحر ، وأنجز عمل أربع سفن كبيرة من النوع المعروف "بالابريق" واحدى عشرة من النوع المعروف "بالشونة" وسافر محمـد على بنفسه الى السويس ليباشر العمل بهمته المعهودة . وكان الجيش المراد نقله يبلغ ٢٠٠٠ من الفرسان يسـيرون عن طريق القصير و٦٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية يسيرون بحرا بطريق السويس .

تحفز المماليك :

وفى أثناء اشتغال محمد على ورجاله فى تجهيز الحملة كان المماليك يمنون أنفسهم بقرب القضاء على سلطان محمد على فى مصر ، وكان محمد على قد صالح مماليك الألفى وأقطع زعيمهم "شاهين بك" الجيزة والفيوم وأسكنه قصرا فخما بالجيزة ، فجاء المماليك من الصعيد وخيموا بالجيزة وانضم شاهين الألفى الى ابراهيم وحنث فى تعهده لمحمد على ، وبلغ محمد على وهو بالسويس خبر استعدادهم للحرب فوصل القاهرة بسرعة خوفا من تربص المـماليك به فى الطريق ، ونزل اليهم هو وابنه طوسون وبعض جنوده ، فأخذ محمد على يستميل اليه بعض أمراء المماليك فانحاز اليه كثيرون وما زال محمد على وابنه طوسون يستميلانهم حتى انحاز اليه أكثرهم وانهزم البـاقون وتشتتوا فى الصعيد .

الفتك بالمماليك :

ولما عاد محمد على الى مصر ومعه أمراء المماليك الذين تغلب عليهم بلينه ومهارته السياسية ، رأى أن المسألة بينه وبينهم أصبحت مسألة حياة أو موت وأنه يستحيل عليه أن يأمن جانب المماليك ما داموا يعيشون فوق أرض مصر وتحت سمائها ، فصمم على أن يغدر بهم اراحة لنفسه ولمصر من شر هذه الطائفة الباغية فدبر لهم مكيدة القلعة الشهيرة فى أول مارس سنة ١٨١١ ، وكان قد دعا الأمراء والأعيان بملابسهم الرسمية للاحتفال بتقليد ابنه "طوسون" رياسة الحملة فجاءوا الى القلعة وقابلهم محمد على بلطف وترحاب ، ثم سار الموكب وخرج بعض الجنود والمشايخ والأعيان وبينما أمراء المماليك سائرون فى الطريق الجبلى الى "باب العزب" أقفلت الأبواب وأطلقت النيران من كل صوب على صفوف المماليك المحصورين بين الأسوار فى ذلك الطريق الضيق ، فحصدتهم النيران ، واستمر الضرب حتى فنوا أجمعهم إلا اثنين على ما يقال ، ثم سرى الخبر الى الخارج ، فقتل عدد عظيم فى القاهرة وفى الأقاليم بأمر الباشا .

مكيدة المماليك فى نظر التاريخ :

وكانت هذه الحادثة فى يوم الجمعة واستمر التقتيل الى يوم السبت فخرج محمد على وابنه طوسون وأوقفا النهب والسلب والقتل وأخذ محمد على أبناء المماليك وأدخلهم فى خدمته وأجرى الأرزاق على نسائهم وزوجهن لضباط جيشه وأتباعه ، وقتل من المماليك فى هذه المكيدة نحو ألف منهم أربعمائة من الأمراء والباقون من الأتباع ، وبذلك قضى محمد على فى يوم وليلة على طائفة طالما أراد الباب العالى القضاء عليها فأعياه الأمر. قضى محمد على عليهم ولكن لا فى ميادين الحروب حيث يجتنى الشرف و يبرر القتل ، قضى عليهم خلسة وغدرا وهم فى ضيافته ، لا فرق بين مجرم منهم وبرىء ، فخلف فى تاريخه نقطة سوداء اذا بررت وجودها الضرورات

السياسية لا يمكن أن تمحو عارها أبدا ، ولكن يجب قبل الحكم الذى لا سبيل للعواطف اليه ، أن نفهم الزمن والأحوال والبيئة التى يعيش فيها محمد على ونذكر سوابق الطائفة المجنى عليها فلا نحكم عليه بمقتضى تقاليد الأمم الراقية .

لقد أعيا أمر المماليك محمد على الى درجة لم تدع له مجالا للتريث فما كانت الحروب تفنيهم ولا المعاهدات تربطهم ولا الوفاق يستميلهم ولا المعروف يأسرهم ، بل كلما هزمهم محمد على وشتت شملهم عادوا فرفعوا رءوسهم وتجمعوا صفوفا ضده متحينين الفرصة للقضاء عليه . و ياليتهم مع ذلك كانوا متصلين بالبلاد صلة تعود عليها بفائدة حيوية بل كانت مصالح المماليك الحقيقية متنافرة مع مصلحة البلاد والأهالى وكأنهم فى مصر كانوا حكومة أخرى تتعارض أغراضها فى كل شىء .

رأى محمد على أن مصر لا يمكنها أن تخطو خطوة واحدة فى سبيل الرقى والاصلاح الا اذا أمنت كل خطر من جانب هذه الطائفة التى لم يكن لها أثر فى مصر الا الخراب والدمار والحروب والمجاعات ، ورأى أنه عما قريب سيرسل جنده وقواده الى بلاد العرب ضد الوهابيين وأنه سيصبح من غير جيش قوى يستند عليه و يرهب المماليك به فاذا تألب المماليك ضده ربما عجز عن قهرهم وضاعت جهوده سدى ، ورأى أن الحكمة السياسية تقضى أن تسوى الحكومة مشاكلها الداخلية قبل أن تقوم لمواجهة حرب أجنبية خوفا من أن ينال العدو منها فى الخارج ، وأن الفظائع الهائلة التى ارتكبت فى عهد حكم الارهاب بفرنسا فى وقت الثورة لم يكن لها مبرر إلا تهديد العدو لحدود فرنسا من الخارج . لهذه الأسباب دبر محمد على مكيدته ضد قوم "لو بقوا فى مراكزهم لقضوا على عدد من الأشخاص بقدر ما سفك محمد على من قطرات دمائهم" (١) .

---

(١) راجع تقرير دكتور بوريج : أوراق برلمانية مجلد نمرة ٢١ سنة ١٨٤٠

خروج الحملة :

ولما خلص محمد على من شر المماليك أصدر أمره بتسيير الحملة سنة ١٨١٢ ضد الوهابيين بقيادة ابنه طوسون وكان قد فاوض " الشريف غالب " فى "ينبع" واتفق معه بشأن محاربة الوهابيين، فنزلت الحملة فى "ينبع" وقابلها السكان بالفرح ، وكان طوسون فى ذلك الوقت شابا يناهز الثامنة عشرة من عمره شجاعا مقداما فاعتمد على قوة جنوده وفوقانهم فى العدد والأسلحة وسار توا الى "المدينة" فتقابل مع جموع الوهابيين عند بلدة "بدر" الشهيرة بانتصار النبي صلى الله عليه وسلم فانكسر الوهابيون أولا ، ولكنهم عادوا وحصنوا أماكنهم وأقاموا المتاريس وأظهروا شجاعة وشدة بأس عظيمين، فتقهقر طوسون الى "ينبع" بعد أن فقد عددا عظيما من جنوده ، وقد ساعد على هذه الخسائر أن الجنود المصرية كانت تحارب فى ميدان وعر المسالك كثير المكامن ، فكان من المتعذر معرفة طرق المسير فيه ، وأدى ذلك الى هلاك الكثيرين. زد على ذلك عدم صداقة العرب للمصريين وترفع طوسون عن استمالتهم مما جعلهم يفتكون بالجنود المصرية أينما رأوهم .

انتصار طوسون أولا ثم انهزامه :

ولما علم محمد على بهزيمة المصريين أسرع فأرسل المدد فخرج طوسون ثانيا قاصدا "المدينة" وكان قد استمال اليه القبائل القاطنة بينها و بين "ينبع" فلم يلق معارضة ، وحاصر "المدينة" ولم يستعمل المدافع احتراما للحجرة النبوية ، وأخيرا أحدث ثغرة فى السور وخلص "المدينة" من الوهابيين ثم قصد الى "جده" فاستولى عليها وتابع السير الى "مكة" ففرت منها حامية الوهابيين ودخلها طوسون وطير خبر هذه الانتصارات الى القاهرة والقسطنطينية ففرح والده كثيرا ، ثم احتلت الجنود المصرية "الطائف" من غير مقاومة أيضا فاغتاظ "سعود" من هذا التقدم وخاف عاقبة ذلك، وكان قد تحصن فى الداخل فخرج هو وجميع جيوشه بعد أن نظمها ، وبدأ

يناوش الجنود المصرية حتى قابلهم فى واقعة "تربة" شرق الطائف فكسرهم واستولى على عدة نقط حصينة ، وكان طوسون فى المدينة فكتب لوالده بارسال المدد .

حضور محمد على الى الميدان وانتصاره وعودته :

فحضر محمد على سنة ١٨١٣ بنفسه مع المدد عن طريق السويس ومعه عابدين بك أحد ضباطه وأول ما عمله هو القبض على الشريف غالب لشكوك كانت تحوم حوله لأنه ترك المدينة ومكة تقع فى أيدى الوهابيين من أول الأمر وبقى هو فى جده ، وكان مذبذبا بين المصريين والوهابيين يترقب ليرى أيهما يفوز بالنصر ليتبعه، فأرسلوه الى مصر عن طريق القصير ثم أرسل ابنه طوسون ليستولى على " تربة " وأرسل عابدين بك ليتتبع الوهابيين الذين يهاجمون القوافل ، ولكن معرفة العرب بمجاهل الأرض وسهلها ووعرها ودروبها جعلتهم يفلتون ، وأصبح عابدين فى حالة حرجة إذ كان العرب يكمنون له ولجنوده فى الطريق فرجع الى "الطائف" وكذلك لم يقو طوسون على أخذ "تربة" فتقهقر الى "الطائف" وأخيرا خرج محمد على من " المدينة " وقصد " الطائف " ومعه قليل من الجند ، فلما علم الوهابيون بقدومه فروا من وجهه وأخذ محمد على يدبر خطة يقضى بها على الوهابيين ، وكان زعيمهم "سعود" قد مات سنة ١٨١٤ وخلفه "عبدالله" وكان قائدا ضعيفا فهزم محمد على الوهابيين عند "تربة" وكان لانتصاره هذا أثرعظيم إذ انضم اليه كثيرون فلم يبق أمامه إلا " الدرعية " ولكنه علم فى ذلك الوقت بهروب نابليون من جزيرة "البا" واضطراب العالم على أثر ذلك واحتمال تعرض البلاد لغزو جديد ، وجاءه خبر تمرد أحد ضباطه المدعو لطيف باشا فأسرع بالعودة الى مصر فوصلها عن طريق القصير فى ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وهو اليوم الذى انهزم فيه نابليون فى موقعة "واترلو" .

عودة طوسون :

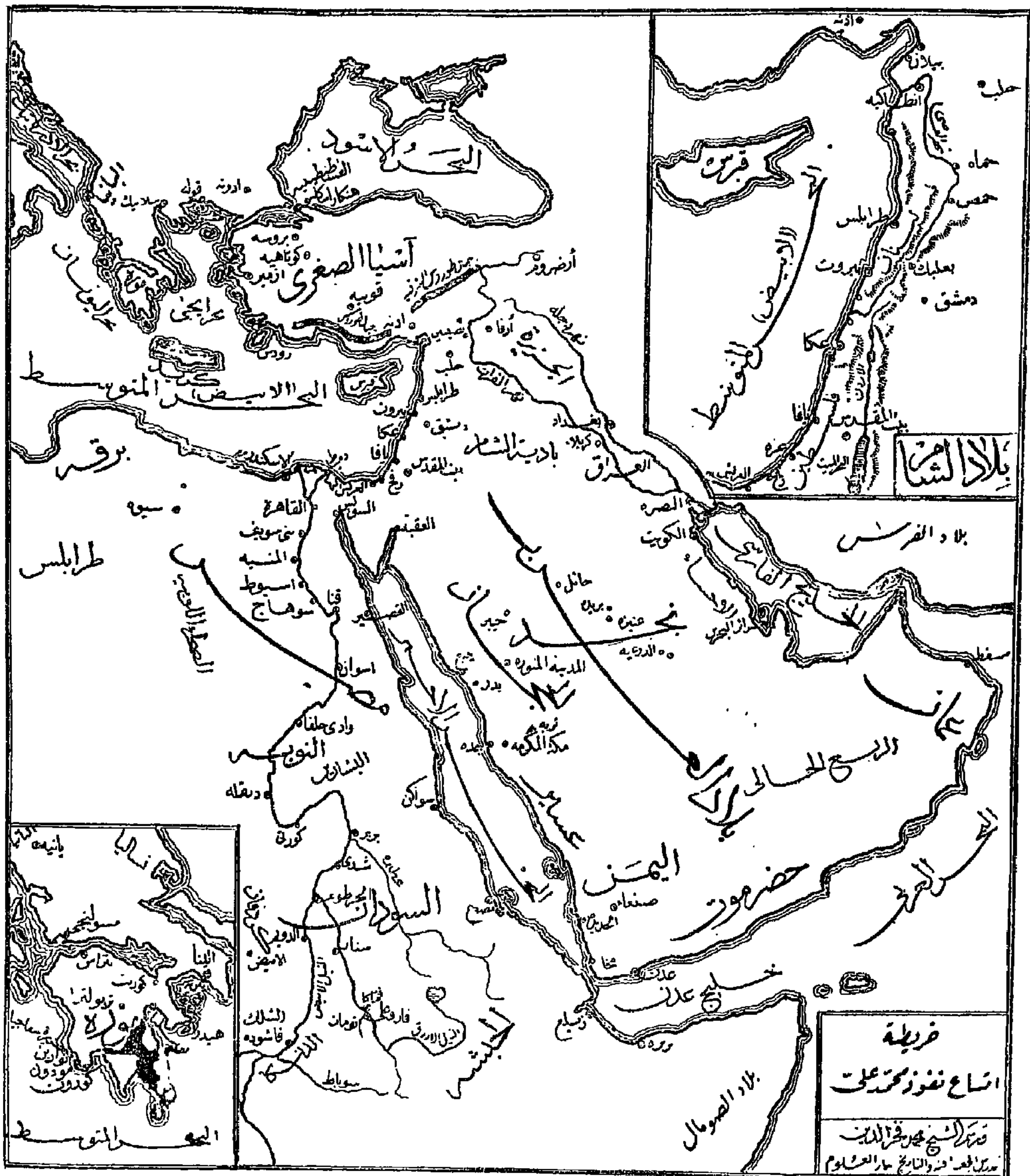
أما طوسون فانه احتل "الدرعية" وأرسل عبد الله يطلب الصلح فعقد معه طوسون صلحا جعله وقفا على مصادقة محمد على . ولكن عبد الله لم يذعن لكل الشروط التى جاءت فيه فهدده محمد على بأنه ان لم يقبل أرسل اليه جيشا جرارا يخرب بلاده . ثم وصلت الى طوسون أخبار مبالغ فيها عن حرج مركز والده بمصر فغادر بلاد العرب لنجدة والده وترك مسألة الوهابيين معلقة .

مشاكل محمد على :

أما "لطيف باشا" فكان قد أرسله محمد على ليبلغ الباب العالى خبر فتح مكة والمدينة ، فلما عاد الى مصر فكر فى اغتصاب ولاية مصر من محمد على بمساعدة بعض رجال الباب العالى ، الذين اتفقوا معه فى الاستانة على هذه الخيانة فلما علم نائب محمد على " الكتخدا محمد بك لاظ " بعزمه حاصره فى بيته ودعا مجلسا مخصوصا حكم عليه بالاعدام فى سنة ١٨١٣ أثناء غياب محمد على . وعلى أثر عودة محمد على قام الجند ضد محاولة ادخال النظام الجديد وهذا ما حدا بطوسون الى الحضور الى مصر حيث استقبل استقبالا فخما ولكنه مات بالطاعون بقصره قرب رشيد وهو فى مقتبل عمره (١٨١٦) وكان محبوبا عند الجند والأهالى على السواء ، وكان يفضله أبوه على باقى اخوته حتى على ابراهيم أكبر أولاده لأنه كان يرى فى طوسون صورة مصغرة من نفسه فحزن عليه حزنا شديدا .

حملة ابراهيم ضد الوهابيين :

أما الوهابيون ففرحوا بموت طوسون وظنوا أن مشروع الحملة قد فشل ، ولكن محمد على عين ابنه ابراهيم لقيادة حملة جديدة ، فسافر ابراهيم عن طريق القصير فى سبتمبر سنة ١٨١٦ ووصل ينبع قاصدا المدينة المنورة ولما علم عبد الله بن سعود بقدوم ابراهيم جمع أربعين ألف مقاتل . ولكن أسلحتهم كانت من الطراز القديم وجل اعتمادهم على السيوف والرماح



خريطة
اتساع نفوذ محمد علي
تحرير الشيخ محمد فخر الدين
مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
بلاد الشام
البحر الأسود
آسيا الصغرى
البحر الأبيض المتوسط
برقة
طرابلس
سيوه
القاهرة
بني سويف
المنيه
اسيوط
سوهاج
قنا
اسوان
مصر
وادي حلفا
النوبة
دنقله
كردفان
السودان
الخرطوم
سواكن
الحبشة
بلاد الصومال
خليج عدن
عدن
اليمن
صنعاء
حضرموت
عمان
مسقط
بحر العرب
الربع الخالي
نجد
الحجاز
مكة المكرمة
المدينة المنورة
ينبع
جدة
عسير
الدرعية
خيبر
حائل
الكويت
البصرة
العراق
بغداد
كربلاء
بادية الشام
العقبة
السويس
بيت المقدس
يافا
عكا
بيروت
طرابلس
دمشق
حلب
حماه
حمص
بعلبك
قبرص
أرضروم
قونيه
بروسه
كوتاهيه
ازمير
رودس
بلاد الفرس
ادنه
انطاكيه
بيلان

والبنادق ذوات الفتائل فلم يقووا على الوقوف أمام نيران المصريين المتأججة المتواصلة ، فانهزمت طلائع جيش عبد الله وتحصن "فى عنيزه" أما ابراهيم فحاصر "الرس" وتغلب عليها وعلى " عنيزه " وأخيرا حاصر " الدرعية " فى أبريل سنة ١٨١٨ حتى سلمت فى سبتمبر التالى ، ثم عمل على تدميرها ، وأرسل عبد الله أسيرا الى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٨١٨ ونزل عند اسماعيل ابن محمد على .

ولما قابله الباشا فى قصره بشبرا وقف له وأجلسه بجواره و بادره قائلا "ما هذه المطاولة" ؟ فقال " ان الحرب سجال" قال "وكيف وجدت ولدى ابراهيم ؟ " قال " ما قصر ، وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعلته حتى كان ما قدره الله " قال " سأشفع فيك عند الخليفة ان شاء الله " قال " ما قدر سوف يكون " . ثم أرسل الى القسطنطينية فأعدم فيها ، وعاد ابراهيم بعد أن أخضع العرب عن طريق القصير فى سنة ١٨١٩ فازدانت له البلاد سبعة أيام بلياليها .

نتائج حرب الوهابيين :

لا شك فى أن هذه الحروب التى قام بها محمد على بناء على أمر السلطان استنفدت كثيرا من ثروة مصر فى وقت لم تقو فيه على دفع مرتبات الجنود فما بالك بالانفاق على حرب دامت ست سنوات ! فليس بعجيب اذن أن يلجأ محمد على الى استعمال الشدة المتناهية فى جمع الأموال وليس أدل على شدته من فعلته مع " المعلم غالى " رئيس حسابات الحكومة فقد امتحن وكيل الباشا حساباته فوجد عجزا يبلغ ٦٠٠٠ كيس فأمره بدفعها حالا ، ووشى به جماعة من منافسيه الأقباط وقالوا بل ان العجز ٣٠٠٠٠ كيس فتشدد " كتخدا " فى عقابه وأخيرا أخلى سبيله بشفاعة طبيب محمد على بعد دفع ١٤٠٠٠ كيس .

مثل هذه الأعمال لم يكن يلجأ اليها محمد على لولا شدة حاجته الى المعدات الحربية والبحرية التى كانت تتطلبها حرب دامت ست سنوات

فى بلاد بعيدة وعرة غير مأمونة الجانب لا تنبت الا القتاد والشوك ، فى حين لم يلق محمد على من السلطان ولا من وزرائه ولا من أى ناحية أخرى سوى مصر معونة مالية قط .

هنا يتساءل الانسان لماذا زج محمد على بنفسه فى مشروع مثل هذا غرمه أكثر من غنمه ؟ الجواب على ذلك سهل لمن يعرف حدة نظر محمد على السياسى ، فانه قد اتخذ من هذه المسألة مبررا له فى تكوين قوة برية وعسكرية ما كان ليوفق لانشائها لولا قيامه بحملته على الوهابيين .

ومن حسن طالعه أن كانت الحملة الوهابية برية و بحرية فكما تطلبت جيشا كذلك تطلبت أسطولا ، ولا ننسى أن الحملة قد قضت على عدد عظيم من الجنود الألبانيين الذين وقفوا حجر عثرة أمام محمد على فى سبيل اصلاح الجيش على النسق الفرنسى ، فقد تمكن بعد انتهاء الحملة من الشروع فى الاصلاح . أما نتيجة الحملة فلا شك فى أن انتصار محمد على قد جعل العالم الاسلامى يلهج بذكره وحمده لأنه هو الذى أمن حجاج بيت الله وخدم الاسلام والملة خدمة قصرت عن انجازها همم السلاطين والولاة .

لذلك بدأ الناس فى الشرق يعرفون لمحمد على قدره و يخصونه بالمهابة والاحترام والثقة ، وخاصة بعد أن أصبح ابنه حاكما على بلاد العرب والمتصرف فى مكة والمدينة . أما السلطان فلم يسعه بالطبع الا الاعتراف لمحمد على وولده ابراهيم بجميل الصنع فأرسل الهدايا ومنح ابراهيم لقب الوزارة ، ولكن السلطان كان على الرغم من ذلك يحسد محمد على على انتصاره فى ميدان أخفق هو فيه .

ثم ما لبث محمد على أن نجح فى عمل آخر أخفق فيه السلطان أيضا ألا وهو انشاء جيش على النظام الفرنسى الحديث .

تكوين الجيش المصرى :

وما دام التاريخ يحفظ بين سطوره أسماء أبطال الحروب ويخصهم بالإجلال والاعظام وما دامت الجيوش دليل قوة الأمم وعنوان بأسها وأداة رفعتها فسوف نرى الناس فى كل آن ومكان يمجدون أبطال الحروب "كرمسيس" و"الاسكندر" و"قيصر" و"نابليون" و"محمد على". واذا كانت الجيوش النظامية فى الممالك قد ساعدت الملوك والأمم على الرقى فانها فى مصر قد كان لها الفضل فى ادخال كل معالم المدنية فى البلاد .

ولقد رأى محمد على منذ أن كان يقاتل الفرنسيين فى "الرحمانية" فضل النظم الحربية الحديثة وعرف قيمتها عند مساعدة "دروقى" له أثناء حملة " فريزر " على مصر سنة ١٨٠٧ فصمم محمد على على أن يستغنى عن جنوده الأرنؤود ويسعى فى ادخال " النظام الجديد" متى سنحت فرصة لذلك :

المحاولة الأولى :

وأول ما فكر جديا فى ذلك كان فى يونيه سنة ١٨١٥ اذ قضى مدة فى اقناع قواد جنوده بأفضلية الطرق الأوربية ، ولكن لما لم يأت ذلك بثمرة نفذ مشروعه على غير رغبة الجند، وبدأ بتمرين احدى الفرق وكان على رأسها ولده اسماعيل فتحزب الجند والقواد واتفقوا على الغدر بمحمد على ، ولكن نمى اليه خبر الدسيسة بواسطة عابدين بك فاحتاط لنفسه ، ولما طاش سهم المتآمرين انقضوا على المدينة وانتشروا للسلب والنهب كعادتهم ، ولكن محمد على فطن لأغراضهم الحقيقية فأوصل الأسلحة لتجار " خان الخليلى" و " الفحامين " فقاوموا الجنود ولم تمس هذه الأحياء التى يكثر فيها وجود الأجانب بسوء ، أما الغورية والسكرية الخ فنهبت متاجرها . ولما رأى محمد على هذه المقاومة استمال الجند اليه فوزع عليهم الرواتب والأقوات وترك مشروع تدريبهم على النظام الأوربى منتظرا فرصة أخرى، وسلك محمد على مسلكا جديدا ينطوى على العدل والحكمة ، ذلك أنه

فى صبيحة اليوم التالى للنهب دعا " السيد محمد المحروقى " رئيس تجار العاصمة وأمره بإعداد قوائم باسماء التجار وتقدير خسائرهم فوزع محمد على عليهم عوض هذه الخسائر وبلغت بضعة آلاف من الجنيهات صرفت بعد أداء اليمين الشرعية فأطمأن الناس واستبشروا بهذا العصر الجديد .

لماذا لم يعتمد على الألبانيين ؟ :

وأما معارضة الجنود الألبانية للاصلاح فلم يجد محمد على صعوبة عظيمة فى التغلب عليها لأنه بعد أن استمالهم أبعدهم عن القاهرة وأرسلهم الى ميادين الحرب فى بلاد العرب وفى سنار ، وبذلك تخلص من جزء عظيم منهم ، ولو كان محمد على اتكل على الألبانيين لعرقلوا اصلاحاته واستنفدوا مال خزانته كما استنفدوا أموال الولاة السابقين ولحرمه السلطان تجنيد جنوده من مقدونيا كما حرم على المماليك شراء الرقيق من " جورجيا " وأوربا فكان من حسن طالع محمد على أن الألبانيين قاوموا النظام الجديد ولم يقبلوه لأنهم لو قبلوه لكونوا نواة الجيش الجديد لمحمد على ولقللوا آماله فى النجاح .

المحاولة الثانية :

ولما عاد ابراهيم من حروب الوهابيين منتصرا فكر محمد على فى انشاء النظام العسكرى الجديد ، وصادف عزمه هذا حضور " الكولونيل سيف " المعروف "بسليمان باشا" الى القاهرة فعهد اليه محمد على فى مهمة تكوين الجيش الجديد وكان " سيف " قد ترقى من جندى صغير فى خدمة الجيش الفرنسى مدة الامبراطورية الأولى الى أن أصبح فى سنة ١٨١٥ "ياورا" أوأمينا للشير "ناى Ney "ولما انهزم نابليون فى"واترلو" اشتغل"سيف" بالتجارة ،ثم قدم الى محمد على بخطاب توصية بجميل فاختبره محمدعلى فوجدمنه أخلص وأكفأ خادم له فى جيشه الجديد واليه يرجع الفضل الأكبر فى رفع ذكر مصر فى عهد محمد على .



سليمان باشا الفرنساوى

جهود الـكولونل سيف :

ولما بدأ "سيف" فى القاهرة بتدريب بعض أولاد المماليك الذين كانوا فى خدمة محمد على ومعهم ابراهيم ليكون مثلا حسنا للطاعة والاستفادة بدأت تظهر علامات التذمر وأخذ العلماء يغرون الشبان بعدم الانصياع لتعاليم الفرنجة ، فرأى محمد على أن خير طريقة لتلافى الفتنة وتنفيذ أغراضه هى أن يرسل "سيف" ومعه أربعمائة أو أكثر من أولاد المماليك الى أسوان فيدربهم هناك بعيدين عن الدسائس والقال والقيل ، وكان معظم هؤلاء المماليك من الشبان النابهين اختارهم محمد على ليكونوا بعد أن يتخرجوا نواة الجيش الجديد ، فاشتغل "سيف" بتعليمهم ثلاث سنوات باثا فى نفوسهم روح الأخلاق العسكرية الشريفة ضاربا لهم الأمثال دائما بسيرة نابليون وسير قواده .

وقد صادف "سيف" صعوبة فى أول الأمر فى تعويدهم الصمت والرزانة فى أثناء الحركات ، فنقم منه بعضهم وصمموا على قتله ونمى اليه الخبر ، فجمعهم فى الصباح واتهمهم قائلا : ان الشرف العسكرى يأبى أن يعمد الجندى الى طرق النذالة والجبن واذا أراد أحدكم الانتقام فأمامه المبارزة والقتال . وصوّب عليه بعضهم بنادقهم فى حادثة أخرى فأخطأوه فأعمل فيهم السوط لأنهم لم يصيبوا المرمى وأمرهم بتعمير البنادق وتصويبها نحوه ووقف أمامهم ثابت الجأش فبهتوا عارا وخجلا ورموا بنادقهم وتقدموا اليه صارخين باكين يطلبون العفو . فعفا عنهم باسما ، وبعدها لم يقع منهم ما يخل بالنظام العسكرى وامتثلوا أوامر رئيسهم وأحبوه حبا جما ثم ما لبث "سيف" أن اعتنق الديانة الاسلامية ظاهرا حسب ما أشار به محمد على اذ الحقيقة أنه كان من الذين لا يهتمون بأمر الدين ، فزاد الاخلاص والولاء بينه وبين عساكره ولم تمض سنوات ثلاث حتى ضارعت جنوده أحسن الجنود الأوربية نظاما وشجاعة واقداما كذلك تمكن "سيف" من الرقى السريع حتى وصل الى أرقى مراتب الجيش .

استخدام السودانيين فى الجيش :

ولما وجد الضباط الاكفاء فكر محمد على فى جمع الجنود ، ولم يشأ أن يكون بينهم أتراك ولا ألبانيون لئلا يحرضوهم على الفتنة ، فعمد الى السودانيين وكان قد أرسل حملته الى السودان ، وجمع منهم ثلاثين ألفا وأتى بهم الى "بنى عدى" قرب منفلوط ووكل أمرهم الى الضباط الذين تخرجوا فى أسوان فبدءوا بتدريبهم فى سنة ١٨٢٣ وما انتهت سنة ١٨٢٤ حتى كانوا قد تدربوا على التمرينات العسكرية اللازمة ، فاستعان بهم محمد على وأرسل منهم فرقا الى بلاد العرب وأخرى الى السودان وأرسل الباقى الى حرب "الموره" .

استخدام المصريين :

ولكن النتيجة لم تكن سارة أبدا ، لأن أبناء السودان لم يألفوا المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ولم تقو أجسامهم الهزيلة على احتمال البرودة فمرض منهم عدد عظيم ومات معظمهم فى سنين قلائل . وأخيرا بدت له فكرة تكوين جيش من جنود مصرية ، وظهر فى أول الأمر أن هذه المحاولة مملوءة خطرا ، وأبان له بعض أتباعه والمقربين منه أن الزراعة فى البلاد لابد أن تتأثر من عواقب التجنيد ، وأن التجنيد بين قوم لم يألفوا الجندية منذ زمن بعيد سيكون أمرا مكروها جدا الكراهية لايمكن أن يأتى بأقل ثمرة .

وأى نفع كان يرجى من قوم كانت مهمة من يحكمهم منذ الأزمان الغابرة أن يلصقهم بالأرض وفلاحتها ثم يرهقهم بالضرائب فيحرثون ويزرعون ليقووا على دفع هذه الضرائب ؟ وهكذا كانت قواهم دائما منهوكة فى الزراعة التى هى منبع ثروة الأهالى وسبب مذلتهم فى آن واحد . غير أن محمد على لم يأبه لهذه الاعتراضات ونفذ مشروعه ، فقامت بعض حركات عدائية فى الأقاليم ضده وأخذ الفلاح النشيط يوقع الأذى بنظره وجسمه ويهاجر

الى بلاد العرب و بلاد الشام تهربا من نظام الجنـدية ، غير أن المصريين مالبثوا أن رحبوا بالنظام الجديد بعد ماوجدوه فيه من تأنق فى ملبس الجندى وسعة عيشة ومكافأة المجتهد منهم ومنزلة الجندى بين غيره من الناس ثم لما زادت أعمال الجيش أدخل محمد على فى خدمته غير سليمان بك من الضباط الفرنسيين فعاونوا على فتح مدارس حربية على النظام الفرنسى ففتحت مدرسة "المشاة" بدمياط ومدرسة "الموسيقى" بالقلعة ومدرسة "الفرسان" بالجيزة ومدرسة "المدفعية" فى طره : فتعلم الطلبة فيها اللغات والرياضة والرسم والهندسة والحركات العسكرية حتى ضارعوا أحسن جنود أوربا بشهادة أكابر الضباط الأجانب ، وكان اصلاح الجيش سبب الاهتمام بأمر التعليم والصناعة والصحة فى البلاد ، وسنعود الى ذلك فى محله .

أثر تكوين الجيش فى المصريين :

أما مصر فجنت من وراء الجيش فوائد أدبية ووطنية لاتقدر ، فالجيش كان عنوان وحدتها اذ القبطى والمسلم فيه سواء ، وأوجد فى البلاد روحا نظامية قوية كانت مفقودة منذ قرون ، وقد أمن البلاد من مصائب الفئات الظالمة الفوضوية التى كانت تعيث فى الأرض فسادا ، ولا ننسى الروح الوطنية التى تولدت على أثر تكوين الجيش اذ أخذ المصريون يتنافسون فى مضمار النبوغ ودبت فى قلوبهم روح الثقة والفخر : الثقة بقوة أبنائهم وجنودهم والفخر بكفاءتهم وانتصاراتهم ، ومن ذا الذى يمكنه أن يخلص فى الزود عن بلاده وفى محاربة عدوها و يحرص الحرص كله على حريتها واستقلالها أكثر من أبناء البلاد أنفسهم الذين أظهروا من خلائق الصبر واحتمال المشاق ماجعلهم من أحسن الجنود .

يالها من فكرة علوية أتت بوافر الخير على مصر ، فان انتظام الفلاح فى سلك الجندية بعد أن عاش قرونا طويلة مستعبدا فى كسر بيته أخرجه من حالة الذل والجبن والمسكنة التى كان فيها وعلمه دروسا جديدة فى النظام وأداء الواجب ، علمه الشرف الحقيق والتنافس فى سبيله ، علمه أن يضحى بنفسه فى ميادين القتال من أجل مصر وملكها واستقلالها .

وكان محمد على يقضى معظم وقته ملازما للجيش الجديد ويشترك فى رحلاته وتدريبه وتمرينه ولقد قص محمد على مرة على معتمد انجلترا ماشاهده من بوادر الرقى الأدبى فى جيشه الجديد فقال : "جرح ذراع أحد الجنود جرحا بالغا أثناء التعليم العسكرى بسبب اهمال الجندى الواقف خلفه فلما طلب اليه الضابط أن يخرج من الصف ليضمد جرحه أبى وقال الآن وقد أصبحت جنديا فأنا اليوم غيرى بالأمس ، وما دامت تجرى فى عروقى نقطة دم واحدة سأبقى فى مكانى حتى انتهى من واجب اليوم" .

هذه الروح الجديدة تفسر الانتصارات الباهرة التى صادفها الجيش المصرى الجديد فى ميادين القتال سواء أكان فى أوربا أم أفريقية أم فى آسيا ، واستمر محمد على يعنى بالجيش عناية خاصة، اذ أصبح فى نظره مسألة حيوية فى الدرجة الأولى من الأهمية ، لأنه علم أن اعتماده على حسن نيات الباب العالى نحوه أمر محفوف بالخطر وانه مهما قدم للباب العالى من الخدمات فلن يرحمه السلطان اذا ضعفت قوته أو قلت شوكته يوما ما .

حملة السودان

أسباب الحملة :

ماذا يعمل محمد على وقد عاد اليه جنوده الألبانيون منتصرين من بلاد العرب؟ أيسمح لهم بالاقامة بالقاهرة فيعيدوا عهد الثورات والنهب والسلب ويشغلونه عن اصلاحاته وربما وقفوا أمام مشروع النظام الجديد موقفهم فى سنة ١٨١٥ ؟ لاشك فى أن حسن السياسة كان يملى عليه أن يرسل هؤلاء الأرناؤود الى ميدان جديد فيستريح من مشاغباتهم ويقلل من عددهم ففكر فى تجهيز حملة السودان ليطارد بقايا المماليك الذين استوطنوا إقليم "دنقله" ونصبوا أنفسهم فيه حكاما ، وكان الناس يتحدثون فى ذلك الوقت

ومحمد على يعتقد أيضا أن فى السودان مناجم غنية بالذهب والمعادن النفيسة ، فظن الألبانيون أن هناك غنما عظيما يجب ألا يفلت من أيديهم فرحبوا بفكرة محمد على .

هذا ، وأن حاجة محمد على الى استيراد جنود جديدة لجيشه الجديد جعلته يطمع فى فتح الأصقاع المجاورة لمصر كى يتمكن من ادماج شبان تلك البلاد فى جيشه ، وأراد محمد على من هذه الحملة أيضا أن يبسط سلطانه وأسواقه على سواحل البحر الأحمر الغربية بعد أن انتشر نفوذه وتجارته فى شبه جزيرة العرب الى خليج العجم ، ولا تنسى اهتمام محمد على وعنايته بأمر النيل وروافده التى يتوقف عليها رى البلاد وحياة أرضها الزراعية وأهلها فقد كان من أغراض الحملة حل اللغز الذى حير الناس منذ " هيردوت " وهو محاولة استكشاف منابع النيل والسير فيه الى أقصى نقطة ممكنة ، ولذلك أرسل محمد على مع الحملة تشبها بنابليون علماء فرنسيين ليمدوا ابنه اسماعيل قائد الحملة بالمعلومات الجغرافية والخاصة بالتعدين .

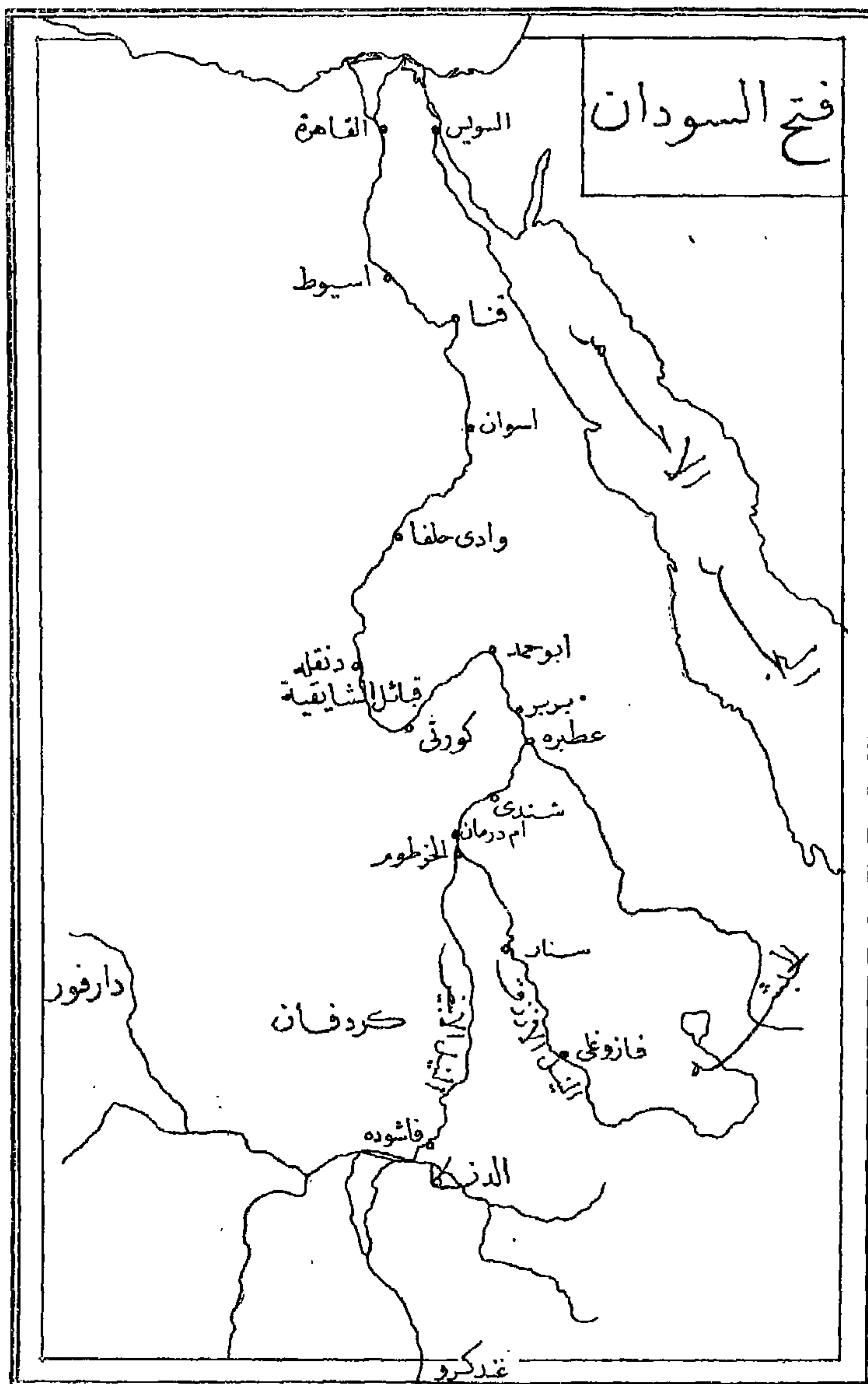
مهمة اسماعيل :

وبدأ محمد على فى اعداد الحملة فى يونيه سنة ١٨٢٠ بجمع ٣٠٠٠ من المشاة و٢٥٠٠ من الفرسان ومدفعية مركبة من ١٢ مدفعا ، وعين على رأس الحملة اسماعيل ثالث أنجاله وكانت هذه أول مهمة حربية ذات شأن عهد فيها الى اسماعيل ، الا أن واجبه لم يكن من الصعوبة كواجب أخيه " طوسون " من قبل لأن قبائل السودان كانت همجية لاتعرف استعمال الأسلحة النارية على العكس من العرب الذين كانوا على اتصال ببلاد الهند والعجم فكانت أسلحتهم على ذلك أرقى كثيرا من أسلحة السودانيين ، كذلك كانت حال حكومة " سنار " المعروفة " بالدولة الزرقاء " التى لحقها الضعف منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ولم يبق من الدولة العظيمة سوى عدد من الوزراء الذين ظلوا يتنازعون الحكم الى أن جاءت حملة اسماعيل فقدموا له المملكة غنيمة سهلة . أما الكردفان فكانت تحت حماية سلطان دارفور بالاسم فقط .

سير الحملة :

ولما كانت قبائل السودان من المسلمين السنيين لاشيعة ولا وهابيين أصحب محمد على الحملة عددا من العلماء ليبرروا أغراض الحملة فى نظر المسلمين وليراقبوا أعمال الجيش حتى لايخرج الجنود عن الحدود المشروعة فى الدين واضطر محمد على الى اصدار فتوى تحلل له فتح هذه البلاد الاسلامية حتى لايحصل غضاضة أو تذمر بين جنوده المسلمين . وسارت الحملة عن طريق النيل، وأما الفرسان فساروا بمحاذاة النيل ووصلت الحملة الى "دنقله" فذعر المماليك وفروا الى أقاصى السودان ، ولم تجتمع لهم قوة بعد ذلك ، ثم سارت الحملة جنوبا ولقيت من القبائل المعروفة "بالشيقية" أو الشائقية مقاومة عظيمة اذ اجتمع منهم ثلاثون ألفا على الخيول والهجن وتأججت فى رءوسهم نار الحرب فاستماتوا فى الدفاع عن أوطانهم ولكنهم انهزموا انهزاما حاسما فى "كورتى" ثم سقطت "شندى" و "بربر" و بعد ذلك سارت الحملة الى "سنار" فخضعت بدون كبير مقاومة .

وفى سبتمبر سنة ١٨٢١ حضر ابراهيم باشا على رأس حملة كحملة أخيه اسماعيل ، وحضر أيضا محمد بك الدفتردار صهر الباشا على رأس حملة لفتح الكردفان ، فسار ابراهيم فى النيل الأبيض الى تلول "دنكا" عند مصب نهر سوباط ، أما اسماعيل فسار شرقا فى النيل الأزرق الى حدود الحبشة ومعه العالم الطبيعى "كيار Caillard" الفرنسى ليفتش عن مناجم للذهب فلم ينجح الا قليلا ، وأخيرا عاد اسماعيل الى "سنار" وكان ابراهيم قد مرض ورجع بعد أن وصلت جنوده الى "دنكا" ثم كتب اسماعيل يطلب الرجوع الى مصر بعد أن بقى سنتين فى السودان ، ولكنه قبل أن يصل اليه أمر الرجوع أحرقه الملك "نمر" صاحب "شندى" وكان اسماعيل قد أهانه فدبر نمر للانتقام وليمة دعا اليها اسماعيل ومن معه من الضباط والجنود فلما حضر اسماعيل دقت الطبول وأجريت الألعاب وفى نهاية الوليمة أمر نمر بجاء اتباعه بقش واحطاب كانوا قد أعدوها ووضعوها حول المنزل ثم اضرموا فيها النار فاحترق المنزل بمن فيه ومنهم اسماعيل فخلف



فتح السودان
القاهرة
السويس
اسيوط
قنا
اسوان
وادى حلفا
ابو حمد
دنقله
قبائل الشايقية
كورتى
بربر
عطبره
شندى
ام درمان
الخرطوم
سنار
النيل الأزرق
النيل الأبيض
فازوغلى
الحبشة
دارفور
كردفان
فاشوده
الدنكا
غندكرو

صهره " الدفتردار " الذى فتح الكردفان أن لابد من قتل ٢٠٠٠٠ فدية لاسماعيل و بالفعل نفذ يمينه وأكثر فى القتل ، وفى سنة ١٨٢٤ رجع الدفتردار وعين " رستم بك " حاكما على السودان .

تقدير نتائج الحملة :

و يمكننا أن نقول أن حملة السودان لم تحقق مطامع الباشا الا قليلا لأن الذهب لم يوجد ، ولأن تجارة القوافل كانت قليلة وتستلزم عناية لا تثمر الا بعد سنين ، ولأن الجنود السود لم تنفعه فى شى بل اضطر الى أن يستبدل بهم المصريين ، ولكن يقابل ذلك أن أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية وضمن محمد على لمصر مراقبة موارد ماء النيل وفتح مجالا واسعا للمصريين للاتجار والاستثمار ، وأسس محمد على " الخرطوم " فى سنة ١٨٢٢ واتخذها " الدفتردار بك " قاعدة للحكم فوسعها و بنى فيها " دارا للصناعة " و بنى البيوت وأنشأ السفن النيلية بكثرة وأصبحت " الخرطوم " محطة لتجارة السودان .

أشهر الولاة :

ومن أشهر الولاة الذين عينهم محمد على فى السودان " خورشيد باشا " (١٨٢٦) الذى قام فيه باصلاحات جمة ومد الفتوحات جنوبا واستولى على " فاشوده " وخلفه " أحمد باشا " المعروف " بأبى ودان " (١٨٣٧) الذى نظم الادارة وقسم البلاد الى مقاطعات ومديريات وعين حدودها وأدخل كثيرا من الأشجار والحيوانات المصرية فى السودان . وما فتىء محمد على يرسل البعثات العلمية للبحث عن المعادن من آن الى آخر وفى آخر الأمر سافر هو بنفسه وهو فى سن السبعين عام ١٨٣٨ متكبدا مشاقا عظيمة ، فأصلح الادارة و وصل الى حدود الحبشة وأعلن الغاء تجارة الرقيق لا اعتقادا منه بضرورة ذلك بل ارضاء للدول الأوربية ولكسب

مودة انجلترا . ولشدة اهتمامه بالاستكشافات الجغرافية أرسل أحد ضباطه "البكباشي البحرى سليم افندى" فى ثلاث رحلات مختلفة بين ١٨٣٨ — ١٨٤١ وغاية ماوصل اليه حدود نهر سو باط عند خط عرض درجة ½ ٤ شمالا . وكان " سليم قبودان " يكتب التقارير الوافية عن رحلاته و يرفقها بجداول خاصة بالارصادات الجوية فكانت هـــذه التقارير أول المستندات التى ظهرت فيما يختص بداخل أفريقية (١) .

---

(١) ومن العلماء الفرنسيين الذين رافقوا سليم افندى فى رحلته الأخيرة " دارنوا " .

الفصل الثامن

اصلاحات محمد على الداخلية

العناية بالأرض :

إن أول واجب يتحتم القيام به على أية حكومة متنورة نصبت نفسها لحكم مصر هو حفظ الأراضى المزروعة والتى يمكن زرعها من عبث الصحراء المحيطة بالبلاد ، ولا يتأتى ذلك الا باستتباب الأمن وتنشيط الفلاحة المستديمة و بتوافر طرق الرى وتوزيع الماء بالطرق التى تكفل سلامة المحصول .

وانا لنرى أن الماء والرمل عنصران أولهما مرادف للحياة وثانيهما للهلاك يتنازعان دائما السيادة فى وادى النيل، فمتى قبضت على زمام الأمور حكومة ضعيفة ألفيت الرمل قد انتصر على الماء وفاقه ، وما هى إلا سنوات قليلة حتى يجف الزرع ويقل الحرث والنسل وتكثر المجاعات وتعم الأوبئة والأمراض ، وما عهد مصر أيام حكم المماليك ببعيد ، قال نابليون ": لو بقى المماليك فى مصر عشرين سنة أخرى لفقدت مصر ثلث أراضيها الزراعية " .

خطة محمد على الزراعية :

أما محمد على ففطن الى أهمية الزراعة فى مصر وعلى ذلك منحها كل عنايته والتفاته وأحدث انقلابا هاما فى نظام تملك الأرض والزراعة الذى وصفناه فى عهد المماليك فنقل اليه أولا حقوق "الملتزمين" ثم الغى "الالتزام" نهائيا معتمدا على أن الأرض للحاكم ، ولكنه منحهم من المال راتبا سنويا مساويا تقريبا لقيمة دخلهم السنوى . وكان قد أخذ منهم قبل ذلك

بيانا عن ايراداتهم فقللوا قيمتها بقدر الامكان . أما أراضى " الوسية " التى ظهرت أحقية تملك أصحابها لهـا فتركها ، وعلى العموم ضم محمد على أراضى "الوسية" بالصعيد لقيام الملتزمين بثورة ضده وترك أراضى "الوسية" بالوجه البحرى لأصحابها . أما أراضى الأوقاف فانه احترمها من حيث المبدأ فقط ، وأما عمليا فانه عزل العلماء والمشايخ الذين كانوا نظارا عليها وعين نفسه ناظرا على تلك الأراضى وأخذ على نفسه تنفيـذ الشعائر الدينية التى تتطلبهـا هذه الأوقاف وعين للمشايخ رواتب سنوية . أما العقار الموقوف والحدائق فلم يتعرض لهـا .

ولمـا حل محمد على مكان الملتزم وزع الأطيان على الفلاحين فأعطى كل فلاح من ثلاثة الى خمسة أفدنة ، وترك لمشايخ القرى قسما يبلغ ٤ ./. من مجموع أراضى القرية دون أن يفرض عليهم ضريبـة ما . وذلك لقيامهم بضيافة عمال الحكومة ، وعرف هذا الجزء "بمسموح المشايخ " . وكان الفلاح يزرع الأرض بصفته مستأجرا و يسقط حقه فى فلاحتها اذا عجز عن دفع الخراج ، ورتب لهم محمد على أجورا من جنس المحصول بمقـدار السدس عادة ، وأمدهم بالآلات والمواشى والمـاء للرى . وكان المأمور يحـدد المساحات الخاصة بزرع المحصولات المختلفـة واذا نضج المحصول قـدرته الحكومة بالثمن الذى تحدده ثم تأخذ من المحصول قيمة الضريبـة وتترك له الباقى أو تشتريه عادة لنفسها . وكانت الحكومة تودع ما تجمعه من المحصول فى مخـازن أو " شون " عمومية أعدتها فى جميع أنحاء البلاد وتنتظر الفرص المناسبة للبيع .

فوائد الخطة :

ويظهر أن هـذا النظام كان الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى ثروة اقتصادية فى البلد يعتمد عليهـا الباشا فى اصلاحاته العظيمة . لأنه بذلك تمكن من تحسين طرق الزراعة ومراقبـة الفلاح وتزويده بالنصائح اللازمة وامداده بالآلات ، وأمكن ادخال المحصولات الجديدة كالنيلة والدخان

والقطن والحرير والأفيون[1]، ولو ترك الفلاح وحده مع ما هو معروف عنه من المحافظة على القديم والكسل والاعتماد على القضاء والقدر لخسرت الزراعة شيئا كثيرا . كذلك لو كان تركه يبيع محصوله لأخفق فى السوق ولاشتراه الأجنبي بثمن بخس . أما محمد على فأمكنه أن يبيع هذه المحصولات فى الأسواق الأوربية فأحرز ربحا وافرا لولاه ما وصل محمد على ولا وصلت مصر الى ما وصلت اليه من الرقى فى عهده .

عيوب الخطة :

غير أنه يجب ألا ننسى ما جره هـذا النظام من المصائب على الفلاح ، فقد كانت الحكومة تقدر المحصول تقديرا قهريا وتشتريه من الفلاح بثمن بخس ثم تبيعه له أحيانا اذا احتاج لشيء منه بثمن مرتفع ، بل ربما تعذر عليه الحصول على قوته فى حين أن مخازن الحكومة غاصة بأنواع المحصولات. وقد يكون بعضها فسد من استمرار خزنه وتعرضه للجو ، هذا فضلا عما فى هذه الخطة من تقييد لحرية الفلاح فى العمل وتعويده الاعتماد على الغير وحرمانه من الانتفاع بثمرة جهوده .

هذه السياسة التى اتبعها محمد على فى الزراعة جرت معها نظام الاحتكار فكما أنه صار المزارع الوحيد أصبح التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد أيضا وتشمل الاحتكارات جميع المحصولات التى كانت تشتريها الحكومة خاصة

---

(١) أدخل محمد على ما لا يقل عن ٣٨٠٠٠ آلة لرفع المياه وانقذ من تعدى الصحراء ١٠٠٠٠٠ فدان فى الوجه القبلى أضافها الى الأراضى المزروعة . هذا عدا ما أقامه من القناطر وحفره من الترع والمصارف وأدخله من الأشجار وخاصة شجرة التوت لتربية دودة القز واهتم ابراهيم باشا بانشاء الجنائن ونشر زراعة الأزهار والفواكه .

لنفسها من الفلاح . ولا يشمل هـذا كل ما ينتجه الفلاح بل هناك محصولات تركت له الحكومة حرية بيعها . وأهم المحصولات التى احتكرها محمد على القطن والأرز والصمغ والنيلة والأفيون والسكر والحرير .

الضرائب :

و كان المورد الثالث لثروة محمد على غير الأرض والاحتكار من الضرائب، وأولهـا ضريبة الأرض أو "الخراج" أو "الميرى" وكان الملتزمون كما عرفنا يجمعون هـذه الضريبة و يقسمونها ثلاثة أقسام : قسم للسلطان و يسمى "بالميرى" وقسم للكاشف و يعرف "بالكشوفية" وقسم للملتزم و يعرف "بالفائض" . وكان الملتزمون يتعسفون فى جمع هذه الضريبـة وغيرها من الضرائب الاضافية . أما فى عهد محمد على فكانت جميع الأراضى ما عدا "الأبعديات" والأراضى الموقوفة على الخيرات ، تدفع المـال للحكومة ، و يختلف قدره على حسب جودة الأرض من ٦٠ قرشا الى ٤٠ قرشا الى ٢٤ قرشا للفدان الواحد . ولضمان مالية الحكومة كانت القرى تتضامن فى دفع ضرائبها حتى اذا عجزت قرية عن دفع قسطها دفع الباقى عليها جارتها وهكذا .

وكثيرا ما منح محمد على كبار موظفيه فى الجيش والادارة اقطاعات من الأرض أصبحت لهم ملكا خاصا ، وهى التى أطلق عليها "الأبعديات" لبعدها عن الأراضى الزراعية المسكونة ، ولاحتياجها للعناية والاصلاح قبل زراعتها تركت بدون أن تجبى منها ضريبة .

أما الضريبـة المعروفة "بفردة الروس" فكانت مفروضة على كل فرد مسلم أو قبطى بلغ سنه الثانية عشرة ، وتختلف بحسب ثروة الرجل فكانت

تتراوح بين ٥٠٠ قرش و ١٥ قرشا فى السنة ، وكانت الحكومة تجبي غير هذه عوائد المكوس وعوائد على الذبح وعلى السفن الخ[١].

*
* *

التجارة :

ولما زادت محصولات البلاد عنى محمد على بالتجارة ، وقد وجد فى مركز مصر الجغرافى الفذ ما شجعه على العمل ، وكانت الحالة التجارية فى مصر وفى موانى البحر الأبيض المتوسط على العموم فى كساد وهبوط عظيمين بسبب انتقال الحركة التجارية الى موانى ساحل المحيط الاطلانطيق التى تتصل بأمريكا و بالشرق الأقصى ، وأصبحت الحال كذلك منذ أن ساح " فاسكوده جاما " حول رأس الرجاء الصالح فتحولت التجارة من مصر ومن حوض البحر الأبيض ونضبت منابع الثروة التى كانت تفيض على مصر من الشرق .

---

(١) ملخص ميزانية تقريبية لسنة ١٨٣٣ :

مجموع الايرادات :		٦٢,٧٧٨,٧٥٠	فرنك	
منها		٢٨,١٢٥,٠٠٠	«	من ضريبة الخراج
		١٦,٥٠٠,٠٠٠	«	من احتكارات الحبوب الخ
		٣,٠٧٠,٠٠٠	«	الجمارك
مجموع المصروفات :		٥٠,٠٠٠,٠٠٠	«	
منها		١,٥٠٠,٠٠٠	«	للقسطنطينية
		١٥,٠٠٠,٠٠٠	«	للجيش
		١٠,٥٠٠,٠٠٠	«	للاسطول
		٥,٠٠٠,٠٠٠	«	لموظفى الحكومة

(راجع كتاب نظرة عامة فى مصر لكلوت بك الجزء الثانى صفحة ٢٠٨)

طريق التجارة البرى :

فلما تمت لمحمد على السيادة البحرية فى البحر الأحمر فكر جديا فى اعادة طريق التجارة البرى بين الهند والشرق الأقصى و بين أور با . فطهر البحر من لصوصه وقذف الرعب فى قلوب عرب الصحراء الشرقيــة فأصبحوا لا يجرءون أن يمسوا أحدا أو شيئا بسوء . ثم أنشأ المواصــلات بين مصر والسو يس على ظهور الجمال، وشيد المنازل على طول الطريق لراحة السياح، ثم رأى ضرو رة اتصال الاسكندرية بالنيل فحفر سنة ١٨١٩ أول قناة ذات شأن وهى "قناة المحمودية" التى تصل اسكندرية بفرع رشيد ، واستخدم فى حفرها الألوف من الفلاحين بطريق السخرة ، وبذلك صار فى الامكان تسيير السفن فى القاهرة الى الأسكندرية مباشرة ، وأمر بأخذ المكوس مرة واحدة فقط لا مرات متعددة كما كان يحصــل فى البلاد التى تحت الادارة العثمانيــة ، وسهل الحركة بانشــاء محطات للبريد بواسطة الهجن والخيول السريعــة ، وتبادل الرسائل البرقية بواسطة الإشارات من فوق أبراج مرتفعة أقامها على أبعاد معينة بين القاهرة والاسكندرية .

ثم لم يمض إلا قليل حتى اخترعت البواخر فأحدثت انقلابا فى عالم التجارة، وظهرت رغبة انجلترا فى أن تسهل مواصلاتها بأملاكها الشاســعة فى الهند وتتبع فى ذلك طريقا سريعا آمنا يقرب المسافة ، فلفت أنظار " الشركة الهندية الانجليزية " طريق مصر البرى فعمدت اليــه أولا لنقل حقائب البريد والمسافرين بفضل مساعى الضابط " توماس واجهورن Thomas Waghorn " الذى أرسلته الشركة لدرس المشروع فرأى من محمــد على أعظم مشجع له . وسارت أول باخرة للبريد من "بمباى" الى "السويس" ومنها الى الاسكندرية برا ثم من الاسكندرية الى مرسيليا بحرا ومنهــا الى انجلترا ، ولم يكن قطع هذا الطريق يستغرق أكثر من شهر .

وأخذت أهمية هذا الطريق تزداد على الرغم من التفكير فى انشاء طريق آخر يمر بالبصرة والفرات وحلب ، غير أن طريق السويس هو الذى تغلب



بوغوص بك يوسف
وزير الخارجية والتجارة لمحمد علي

فى النهاية وأخذت أهميته تزداد تدريجيا إذ ما لبثت التجارة أن تحولت الى هذا الطريق فاضطر محمد على الى انشاء مصلحة مستقلة خاصـة بالطريق البرى وعقد اتفاقا تجاريا مع انجلترا تعهد فيه بنقل البريد الانجليزى مقابل مبلغ خاص تدفعه الخزانة الانجليزية ، فزادت ثروة مصر كثيرا ممـا كان يصرف داخلها من مصروفات نقل ومعيشة ومكوس ورواتب موظفين .
وظلت الفكرة ترقى حتى ختمت بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩

وهذا المشروع بإضافته الى فتوحات محمد على وللمحصولات التى كان يتجر فيها قد فتح أمامه أبواب التجارة فربح أرباحا وافرة وأصبح له فى معظم الموانى الشهيرة وكلاء ينظرون فى مصالحه التجارية والسياسية ، وكان ناظر التجارة والخارجية لحكومته رجلا أرمنيا يدعى "بوغوص بك يوسف" الذى أخلص فى خدمة محمد على إخلاصا عظيما فكان يثق فيه الباشا ويعهد اليه بدقائق مشروعاته السياسية والتجارية .

لوازم التجارة وتكوين الأسطول الجديد :

إلا أن التجارة لا تقوم إلا على شيئين أساسيين ، أسطول لحملها وحمايتها وأسواق لتصريفها فيها ، تلك سنة الأمم التجارية من قديم الزمان لا مندوحة عن اتباعها لأنها نتيجة طبيعية لمقدمات ثابتة . سار محمد على وفق هـذا القياس المنطقى وعمل على الوصول الى هذين الغرضين فبدأ ببناء الأسطول أولا عند "بولاق" كما ذكرنا عند الكلام على حمـلة الوهابيين ، ثم لما اتسعت دائرة العمل أصلح النقص الطبيعى فى ميناء الاسكندرية ، فأصبحت محطة تجارة مصر ومهـد أسطولها العظيم ، ولقـد جاء تكوين الأسطول المصرى متأخرا وعلى أثر انتهـاء حرب "المورة" التى قضت على أسطوله وجله مكون من خليط من السفن التى صنعت فى الخارج واشتراها الباشا من "مرسيليه" و "ليفورنو" و "تريسته" و "جنوه" فلما عادت الحملة المصرية من "الموره" سنة ١٨٢٧ فكر محمد على فى تكوين أسطول مصرى من جديد فتم له ذلك بفضل جهود مهندس فرنسى كان صاحب

معامل للسفن فى " تولون " اسمه " سيريزى Cerisy " فهو الذى عهد اليه الباشا فى انشاء " دار صناعة " بحرية بالاسكندرية تبلغ مساحتها ٦٠ فدانا بواجهة على البحر يبلغ طولها نصف ميل، وبها حوض يسع أكبر السفن . وكان محمد على شديد الرغبة فى أن يكون له أسطول يغنيه عن شراء ما يلزمه من السفن من الخارج وأن يتم له ذلك بسرعة فوضع "سيريزى" مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية حتى ضارعت الاسكندرية "تولون" وأدهشت كل من رآها من السياح ثم بدأ " سيريزى " بتمرين البحارة والصناع على الأعمال المختلفة الخاصة بالسفن وانشائها وتسييرها وجاهد فى سبيل ذلك جهاد الأبطال متغلبا على الصعاب والدسائس التى قامت ضده وأخيرا عاد الى فرنسا ١٨٣٤ وقام " بسون Besson " بانجاز السفن اللازمة للأسطول الحربى ، وفى ٣ يناير سنة ١٨٣١ نزلت بالبحر أول سفينة من الأسطول الجديد ، وكان كلما تعلم المصريون عملا من الأعمال استغنى عن العمال الأوربيين حتى لم يبق منهم إلا عدد قليل ، ثم جاء "موجل Mougel " المهندس الفرنسى الشهير فأنجز أعمالا جديدة وأسس مدرسة للملاحة لتخريج الضباط البحريين . وأن ظهور الأسطول الجديد ودار الصناعة البحرية فى مدة أربع سنوات لدليل جديد على ما يمكن أن تنجزه النفس الطامحة الى العلى اذا كان الشعور مصحوبا بالإرادة والعمل ، قال الدكتور " بورنج " فى تقريره أنه رأى الأسطول المصرى ورجاله وهو لا يختلف عن أى أسطول أوربى آخر إلا فى الملبس الرسمى(١) .

ولما تم الأسطول تفرغ محمد على لإيجاد الأسواق اللازمة ، ولا يتيسر ذلك إلا بالهجوم والفتح ، فأعد جيشه لهذا الغرض وبلغ عدده فى النهاية ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ جندى، منهم ٤٠٠٠٠ من غير النظاميين وهذا عدد هائل بالنسبة الى مجموع سكان مصر وقتئذ الذى كان يبلغ من ٢,٥٠٠,٠٠٠ الى ٣,٠٠٠,٠٠٠.

---

(١) كان الأسطول يتركب من ٣٠ قطعة حربية ، منها ١١ سفينة كبرى على كل منها ١٠٠ مدفع أو أكثر و ٧ قطع على كل منها ٦٠ مدفعا و ٣ بواخر . وعدد رجال الأسطول ١٨,٠٠٠ منهم ٨٠٠ ضابط .

حاجات الجيوش والأساطيل :

غير أن للجيوش والأساطيل مطالب وحاجات لابد من القيام بها إذا كان الغرض من تأليف الجيش وطنيا اقتصاديا. رأى محمد على حاجة الجيش الى مدارس مختلفة لتخريج مختلف الضباط والى مستشفيات للمرضى والى معامل لتوريد ما يلزم من أسلحة ومؤن وذخيرة . والى مصانع لامداد الجيش بما يحتاج اليه من أسلحة وملابس وأحذية وأغطية وأدوات مختلفة، ووجد فى كل ذلك فرصة قد تعود بالنفع المادى والأدبى اذا تولى هو تقديم ذلك كله فعلت همته الشماء الى مستوى آماله العظيمة . ورأى الباشا بثاقب نظره أن الاعتماد على الأجانب لا يمكن أن يؤدى الى قوة حقيقية فاستعان بهم ريثما يتعلم الوطنيون العمل ثم استغنى عن الأجانب تدريجا .

العناية بالتعليم :

وقد أراد أن يكون للوطنيين كل مزايا الأجانب فأرسل البعوث العلمية والصناعية الى أوربا لتلق فروع العلم والعمل المختلفة ، وأرسلت البعثة الأولى فى سنة ١٨٢٦ وبلغ عدد أعضائها ٤٤ وصار ١١٤ فى سنة ١٨٣٣ ، ولما رجعت البعوث أعانت محمد على كثيرا فى تأسيس مشروعاته العظيمة ، وانبرى أفرادها لخدمة محمد على فى مصالحه المختلفة ولو أنه لم يتقيد كثيرا باختصاصاتهم وترتيبات المسيو "جومار" رئيس البعثات فى فرنسا وأحد علماء حملة نابليون ، بل عين منهم كما اقتضته حاجته . واهتم بكل درجات التعليم أولى وثانوى وخاص، وأسس مدارس على النظام الحديث لكل هذه الأنواع لأول مرة فى البلاد، وكان يساق اليها الطلبة كما يساقون الى الجيش قسرا على الرغم من ترغيب الباشا لهم بايوائه التلاميذ واطعامهم وما كان يقدمه لهم من الكسى والرواتب الشهرية غير أن أساس اهتمامه بالتعليم لم يكن الرغبة الخالصة فى تعميمه بين الأهالى ، بل كانت المدارس فى نظره جزءا من نظام الجندية ، وكان الطلبة يعاملون معاملة الجنود ، وادارة المدارس تتبع الحربية . فاهتم محمد على بالمدارس ما بقيت حاجته للجيش فلما

قل عدد الجيش بمقتضى "فرمان" سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس كذلك ، وعلى كل حال أوجد اهتمامه بالتعليم حركة علمية جديدة ونهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتلها العامية فعربت الكتب فى مختلف العلوم وألقى الأساتذة المصريون محاضراتهم بالعربية وأخرجت المطبعة الأميرية ببولاق عددا عظيما من المؤلفات العربية وأصدر الباشا صحيفة " الوقائع الرسمية " باللغتين العربية والفرنسية ابتداء من سنة ١٨٢٨ وكانت أنجح مدارس الباشا المدارس الخاصة بأسلحة الجيش ومدرسة الطب ومستشفاها وقد أنشئت أولا " بأبى زعبل " سنة ١٨٢٧ ثم أنقلت الى محلها الحالى ، وصرف " كلوت بك Clot " جهدا عظيما فى الاهتمام بحالة البلاد الصحية وادخال الاصلاحات وتعليم علم الطب مما خلد له أحسن الذكر فى تاريخ الصحة والطب بمصر . ومن أشهر المهتمين بأمر التعليم فى مصر "أدهم بك" الذى عين رئيسا لمجلس المعارف العالى ومعه نخبة من عظماء رجال العلم فى ذلك العصر (١) .

الاصلاحات الحكومية :

أما اصلاحاته فى نظام الحكومة فانه بعد أن مسح الأراضى فى سنة ١٨١٣ قسم مديريات مصر الى سبعة أقسام على كل قسم منها مدير، أربعة بالوجه البحرى وثلاثة بالوجه القبلى ، وقسم المديريات الى مراكز وكل مركز الى أقسام وكل قسم الى قرى . وعلى رأس كل مركز مأمور . ولكل قسم ناظر ، وعلى رأس كل قرية شيخ يساعده " الصراف " و " الخولى " . وكانت وظيفة المأمور مراقبة الزراعة وجمع الأموال والمحصولات وأنفار القرعة، أما المدير فعليه تنفيذ أوامر الباشا ومراقبة الرى وأعماله . وكان يختار المديرين من الأتراك فى مصر وأما المأمورون فيعينهم من المصريين .

---

(١) ومن المدارس التى أسسها محمد على : المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٣٤ ، والألسن بالأزبكية سنة ١٨٣٦ ، والصنائع سنة ١٨٣٩ ، والتجهيزية بأبى زعبل سنة ١٨٣٦ ، والمبتديان بالسيدة زينب سنة ١٨٣٩ ، وأما مدارس الجيش وهى : المشاة ، والفرسان ، والطبجية : فأسست حول سنة ١٨٣١

أما القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فكان يحكم كلا منها حاكم أو محافظ وضابط .

وكان يساعد محمد على فى القيام بادارة البلاد " مجلس خاص " يعرف بالديوان العالى أو "الخديوى" ومن اختصاصه النظر فيما يقدم من الدعاوى والعرائض ، وكان المجلس يجتمع بانتظام فتعرض عليه أمور الحكومة كافة فيفحصها ويعرضها على الباشا .

وكوّن محمد على "مجالس خاصة" لكل ادارة فى الحكومة ، فكان هناك مجالس للحربيــة والبحرية والزراعة والتجارة والأمور الافرنكية والمدارس والصحة . وفوق كل هذه المجالس "مجلس شورى الدولة" يجتمع فيه كل رؤساء الادارات المختلفة والمختصون والأعيان للنظر فى شؤون الدولة الهامة. ولقد عرف محمد على من أول الأمر أن خير طريقــة لتحسين الادارة هى توزيع الأعمال على وزارات مختلفة ، فاختار لكل وزارة رجلا كفئا يعينه المجلس الخاص ، وعلى الرغم من أن هــذا النظام لم يصل فى عهده الى حد الكمال فلا يغيب عنا أنه الى محمد على يرجع الفضل فى توزيع أعمال الحكومة والعمل بحسن نية وبعزيمة صادقة على التقدم والارتقاء فى الادارة ، هذا على الرغم من أن محمد على ظل طول عهده ينظر فى جميع أمور الدولة بنفسه وظلت كلمته هى القانون والحكومة ، وبقى الحال كذلك فى عهد خلفائه الى أواخر عهد الخديوى اسماعيل .

مشروع الاستقلال الاقتصادى :

على أن كل تلك الأعمال المدهشة والاصلاحات الهائلة التى قام بها محمد على لتتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه قنصل السويد الذى ذكر لمحمد على أن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقى هو الاستقلال الاقتصادى ، فكما أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية ، كذلك يجب أن تنتج معاملها كل مايحتاج اليه محمد على لجيشه وأسطوله العظيمين وما تحتاج اليه أسواقه وأملاكه من

المصنوعات، بدل أن تظل مصر دائما محتاجة الى مصنوعات أوربا. ولايخفى أن المذهب الاقتصادى المعمول به فى تلك الأزمنة وهو المبدأ المعروف بحماية التجارة والصناعة يقضى بالتقليل من الواردات والاستغناء عن البضائع الأجنبية بقدر الامكان .

وأول مالفت نظره الى المصنوعات وجود المواد الغفل (الخام) بكثرة، وأولها القطن وكان قد أدخل زراعته فى الحقول بناء على اشارة المسيو "جيمل Jumel" النساج الفرنسي الذى حضر الى مصر وأجرى عدة تجارب فى زراعة القطن من أحسن أنواعه الأمريكية فى سنة ١٨٢١، وكانت مصر كذلك تنتج التيل من الكتان والحرير وصبغة النيلة وأصباغا أخرى تصلح لتجهيز النسيج ، كما أنه عنى بتربية الأغنام وجلب الأصناف من الخارج لتحسين نوع الصوف الذى تنتجه البلاد ، لذلك صمم محمد على على انشاء المعامل المختلفة معتمدا على أن العمل فى مصر ميسور بأجور رخيصة، غير مكترث بندرة المعادن فى البلاد و بعدم ملاءمة الجو المحمل بالغبار الكثير الجفاف ، ولم يوقف محمد على عن مشروعه متى صمم عليه عدم استعداد الأهالى للقيام بالأعمال الصناعية الحديثة ولا عظم المبالغ والنفقات التى يتطلبها ، ولقد لجأ الى استيراد ما يلزمه من الفحم الحجرى والحديد والصناع الفنيين من أوربا، وعلى ذلك أنشأ المغازل والمعامل والمصانع المختلفة وأصبح جو "بولاق" يدوى بصوت المطارق وأزيز الأنوال[1].

---

(١) كان بمصر ١٤٥١ دولابا للغزل، و١٢١٥ نولا، و٣٠٠٠٠ عامل من غزالين ونساجين وخراطين وحدادين وسباكين ونجارين . وأخرجت المعامل البفتة والشيت والشاش والأجواخ والطرابيش والبنادق والأسلحة المختلفة ، وقطع العدد الصغيرة . وكانت مغازل القطن تخرج ما يقرب من مليونى قطعة سنويا وأهم هذه المعامل فى بولاق والخرنفش وقليوب والمحلة الكبرى الخ. وكانت هناك معامل للبنادق ومسابك للصلب ومعاصر للزيت . وكانت هذه المصنوعات توزع فى أسواق مصر والخارج .

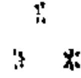
نقد المشروع :

ولقد أغنت هذه المصنوعات محمد على عن مصنوعات أوربا ، ولكن كان مقضيا عليها فى النتيجة بالفشل وخاصة بعد أن زال سبب تكوينها وهو الجيش اذ نقص عدده الى ١٨٠٠٠ منذ سنة ١٨٤١ . واننا اذا وازنا مقدار ما كانت تتكلفه مصانعه من النفقات بالفائدة التى كان يجنيها محمد على رأينا أن مغارمها كانت أكثر من مغانمها وأن ثمن السلعة فى النهاية كان أرخص لو اشترى من الخارج مباشرة ، وكان محمد على على تمام العلم بهذا العجز فى ايرادات مصانعه ولكنه استمر للنهاية يستخدمها و يعتنى بها رغبة منه فى تعويد القوم الصناعة وتسيير الآلات الحديثة والظهور بمظهر المستقل وتشبها بنظام فرنسا وانجلترا فى ذلك الوقت وهو نظام حماية التجارة والصناعة. ولما كان محمد على هو المالك الوحيد لهذه المشروعات كانت الخسارة واقعة على خزانة الحكومة ، ولو أنها كانت لشركات أهلية لسببت تأثيرا سيئا عظيما . وقد فشل مشروعه الصناعى نهائيا لضخامته وغرابته فى مصر ولأن المشروع كان لا يمكن أن يغنى عن بضائع أوربا فالوقود والآلات اللازمة للصناعة نفسها كانت كلها ترد من أوربا . ومن أسباب الفشل أيضا احتياج الزراعة فى مصر لكل الأيدى العاملة ، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول أن قيام بعض الصناعات فى مصر كعمل السكر والصابون والزجاج و بعض المنسوجات لازم وممكن ومفيد تمام الفائدة .

مشروع القناطر الخيرية :

بقى علينا عمل نهائى ختم به محمد على اصلاحاته وهو تشييد " القناطر الخيرية " وهى أعظم عمل نافع أنشئ فى مصر لضبط مياه النيل باقامة سد عظيم ذى عيون قرب تفرع الدلتا . ولقد فطن محمد على لما يمكن أن يأتى به مثل هذا المشروع من جزيل الفائدة إذ ترتفع المياه فى الترع على أثر حجز الماء فى أحد الفرعين فتروى الأراضى بسهولة ،وكان اهتمام محمد على بالوجه

البحرى عظيما جدا لامكان زراعة القطن فى أراضيه ، و بعد درس المشروع أصدر فى سنة ١٨٣٥ أمره الى المسيو " لينان Linant de Bellefonds " لتنفيذ هـــذه الفـــكرة التى إن نجحت روت آلافا من الأفدنة فى أوقات " التحاريق " . غير أن مشروعا كهذا كان يتطلب وقتا طويلا لانجازه لأن مالية الحكومة كانت لاتسمح بالانفاق على هذا المشروع دفعة واحدة ولأن تثبيت القواعد فى قاع المـاء أمر يتطلب وقتا وعناية ، ولكن تسرع محمد على ورغبته فى انجاز العمل كى يتم فى عهده لم يمكنا " لينان " من تثبيت أساس البنـاء بالمتانة اللازمة فاضـطر الى اصـلاحه ثانيـا ثم جاء المسيو " موجل " وواصل العمل فى القناطر ولكنها لم تتم فى عهد محمد على الذى توفى سنة ١٨٤٩ وظلت الى أواخر أيام سـعيد ، ومع ذلك فان ضخـامة المشروع وفائدته الكبرى لمـا لايبقى مجالا للبالغة ، وكفى أن مشروع القناطر هو الذى ولد فكرة خزان أسوان والخزانات الأخرى التى بنيت على النيل .



تقدير عام لأعمـال محمد على :

بذلك أدخل محمد على طرق التمدين الحديث فى مصر بفضل اهتمامه بالجيش وملحقاته وحاجاته ، ولا غرابة فى أن يدخل التمدين فى بلد على يد الجيش ففى البلاد الشبيهة بالمتمدينة لا يمكن أن يدخل الرق والاصلاح على أيدى المجموع ولا يتسنى لغير الحاكم المتنور ذى الهمة العلياء أن يرغم شعبه بالقوة على قبول الاصلاح ، ولمـا كانت القوة أول ما يتطلبه الحاكم المستبد لتأييد سلطانه نرى أن الجيوش والأساطيل كثيرا ما مهدت السبيل لاصلاحات عامة قد لا تتفق مع مصالح الجيش ذاته .

وفى مصر كان تكوين جيش نظامى داعيـا لايجاد روح نظامية سرت فى كل طبقات المجتمع فتمتع الأهلون بنعم الأمن على الحياة وعلى الأملاك وأن ما قام به محمد على من جعل الحكومة مركزية قد أوجد وحدة قومية

حكومية بدل البقايا المتنافرة التى كانت من قبل .وكانت نتيجة ادخال النظام فى أعمال الحكومة وجباية أموالها واهتمامها بالزراعة والتجارة والصناعة أن زادت ايرادات الحكومة زيادة ظاهرة أنفقها محمد على فى رفعة شأن مصر وشؤونه الخاصة كبناء القصور وتأثيثها بأفخر الأثاث . وقد كان لمحمد على هيبة واحترام عظيمين فى قلوب شعبه ، ومع أنه كان حاكما مستبدا كان كريما رؤوفا يقبل النصائح والاقتراحات التى يبديها له غيره ، وقد لقى من الفرنسيين فى كل مشروعاته كل تعضيد ومساعدة واخلاص وان أسماء " سيف " و " سريزى " و " كلوت بك " و " لينان " و " موجل " " و بسون " لتبقى على الدوام تذكارا لمنشئ مصر الحديثة ، وانك لترى على العموم أن تسامح محمد على وترحيبه الأجانب وشغفه الزائد بتعرف كل مايجد أمامه كان له أثر عظيم فى تكوين شهرته التى طبقت الآفاق لأنه مامن رجل عرفه وعامله الا واقتنع بعبقريته ونبوغه وعطف على أمانيه السياسية ، ووصل الحال الى أن بعض معتمدى الدول وممثليهم كانوا مع حكومة محمد على مرتبطين بصلات ودية مادية جعلتهم يتغاضون عن مصالح حكوماتهم الخاصة ولا يجرءون على الدفاع عنها أمام مصلحة محمد على .

وكان محمد على على علم دقيق بأحوال السياسة فى أوربا عارفا تاريخ كل سياسى شهير فيها ، وكان المترجمون يطالعون له كل مايكتب عن السياسة ورجالها من أوثق المصادر على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة الا متأخرا ومن العوامل التى كان لها أحسن وأسعد أثر فى حياة محمد على إخلاص أبنائه وأسرته له واحترامهم إياه وتضحيتهم بكل شىء فى سبيل طاعة رئيسهم الأكبر وهنائه ، وهناك عامل آخر لولاه ما استطاع محمد على أن يجمع فى شخصه كل هذه القوة التى ذاع صيتها والتى مكنته من احتلال أكبر أقاليم السلطان ثروة وأعظمها أهمية له ، ذلك أن الباب العالى كان على درجة عظيمة من الضعف والتفكك الداخلى بالرغم من جهود السلطان محمود الثانى فى الاصلاح .

المجال واسع للناقد :

لقد أسهبنا فى الكلام على أعمال محمـد على وما أوجده فى مصر من خير وإصلاح ، غير أن هناك أيضا مجالا واسعا للناقد الذى يريد التنقيب عن الجزء المظلم من صفحة محمد على ، فيجد فى استبداد المديرين البعيدين عن رقابة الباشا ، وفى فقر وانهاك قوى الأهالى بسبب الاحتكارات والتجنيد ، وفى مقتـل المماليك ، وفى تبـديد الأموال من غير فائدة على المصانع الجديدة ، وفى قيام تجارة الرقيق فى السودان ، تجـد فى كل ذلك مجالا للانتقاد لا نهاية له ، ولكن من الظلم أن نحكم على محمد على بحسب مقاييس الغرب ونسير أعماله بمخبارهم ، فنظام الاحتكار ونظام التجنيد كانا — وهذا مما يؤسف له — ضروريين على الرغم من ثقل وقعهما على الشعب ، ولم يكن منهما بد لصيانة مصر ومنعها من الوقوع تحت حكم الأتراك مرة أخرى من أجل ذلك اضطر محمد على للمال والجيش وفضل أن تتحمل مصر آلام هذين النظامين على أن تسود فيها الفوضى ، ومع ذلك فان نظام الاحتكار لم يلغ من أوربا الا حديثا ، وما من حكومة إلا وانتقدت سياستها بشأن أعدائها السياسيين أو بشأن جمع جنودها أو توزيع أراضيها وثروتها .

أما تجارة الرقيق فهـذا نظام ألفه الناس فى الشرق منذ قرون ولم يكن من السهل إلغاؤه إلا تدريجا ، ولقد أرسل محمد على خطابا الى حاكم السودان فى أول ديسمبر سـنة ١٨٣٧ قال فيه : " ليكن معلوما لك أن نظام الرقيق يحط من قدرى من نظر العالم المتمدين وخاصة فى نظر الحكومة الانجليزية التى بين حكومتى وبينهـا علاقات ودية ، وانى لا أريد أن أكسب من تجارة لا تشرفنى ، واذا كان الغاؤها يتطلب بعض تضحيات فأنا مستعد لتحملها " .

وفى الختام نرى أننا اذا راعينا الظروف الخاصة التى ظهر فيها محمد على وعرفنا عظم الواجب الذى أخذ على عاتقه القيـام به وسـط تلك الفوضى والجهل والظلام والدسائس السائدة بمصر وبتركيا ، وجب علينا أن نعد

نجاحه فى حكم مصر وما خلده من آثار و إصلاحات وما لعبه فى العالم السياسى الأوربى دليلا على نبوغ محمد على ، ولا أدل على عطفه على مصر تلك البلاد التى تبناها وأصبحت فى نظره كل شىء يستحق الوجود من أجله من تلك العبارة التى فاه بها للدكتور " بورنج " المندوب الانجليزى :

" إن بلادكم لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقى الحالى إلا بجهود أجيال كثيرة مضت وأن الطفرة محال فى رقى الأمم وتقدمها ، ولكن يمكننى أن أقول انى قد قمت ببعض الشىء لمصر وأصبحت الآن تمتاز عن ممالك كثيرة لا فى الشرق فحسب بل فى الغرب أيضا ، نعم يعوزنى شىء كثير لا زلت أجهله ، كذلك يعوز شعبى شىء كثير ولذلك ترانى الآن مرسلا الى بلادكم " أدهم بك " ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ما تعلمه بلادكم فعليهم أن ينظروا الى الأشياء بأنفسهم وعليهم أن يمرنوا على العمل بأيديهم وأن يخبروا مصنوعاتكم جيدا ليعلموا وليكشفوا أسباب سبقكم ورقيكم واذا ما مضوا زمنا كافيا بين أهل بلادكم عادوا الى بلادهم وعلموا الشعب " (١) .

---

(١) تقرير الدكتور بورنج ، أوراق برلمانية : الجزء ٢١ من سنة ١٨٤٠

الفصل التاسع

ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان

معنى المسألة الشرقية :

يريدون " بالمسألة الشرقية " الحالة السياسية الدولية التى قد تنتج على أثر انهزام تركيا انهزاما يؤدى الى انحلال أوصال الدولة وسقوط عرش الخلافة بالقسطنطينية . ففى هذه الحالة ماذا يكون موقف دول أوربا ازاء الدولة الغالبة ؟ أتلزم الحيدة وتترك الغالب يستأثر بالغنيمة كلها أم تتحالف عليه وتزكى بذلك نار حرب أو ربية عامة ؟ ثم ماذا يكون مصير الشعوب الخاضعة للدولة أيعترف باستقلالها أو تدخل دائرة الحماية الروسية ؟ وخصوصا ماذا يكون مصير البوغازات والقسطنطينية نفسها ؟ كل هذه أسئلة يتكون من مجموعها ما يعرف بالمسألة الشرقية . وعرفت بذلك لأن القسطنطينية خاصة وأملاك تركيا عامة واقعة فى طريق الشرق ومن استولى عليها كأنه قبض على مفتاح الشرق . وظاهر أن المسألة الشرقية لم تولد ولم يظهر لها أثر حين كانت تركيا متغلبة ظافرة فى حروبها بل الأحرى اذ ذاك أن توجد "مسألة غربية" حيث كانت تركيا تهدد وجود المجر والنمسا .

ولكن منذ أواخر القرن السابع عشر بدا ضعف تركيا الحربى وتوالت انهزاماتها أمام النمسا والروسيا ففقدت بذلك المبرر الوحيد الذى كان يدعوها لاحتلال أملاكها وهو فوقانها الحربى .

حالة الدولة العثمانية :

ذلك لأن الدولة العثمانية قامت بالسيف ولا تزال الصفة الحربية عنوانها الى اليوم ، فبالسيف فتحت فتوحاتها وبفضل ما استولت عليه من الأملاك

أصبحت الدولة فى صفوف دول أوربا العظمى ، غير أنه من سـوء حظ الدولة أن فتوحاتها كانت غريبة عنها فى صفات كثيرة فلم يربطها بأملاكها إلا روابط ضئيلة ، فلا دين يجمع بينهما ولا لغة ولا جنسية ولا تقاليد ، فأصبحت فتوحاتها على ذلك سريعة الانثلام مهددة فى كل وقت بالثورات الداخلية .

فلما انحطت الدولة العثمانيـة من مركزها الحربى وهى الدولة الحربية قبل كل شىء ضاع نفوذها الأدبى ولم تقو على مطالبة رعاياها بالاخلاد الى السكون والطاعة ، ولمـا لم يكن فى مقـدور السلطان تأييـد سلطانه فى أملاكه أو مزج هذه الأملاك فى جسم الدولة بأية طريقة اكتفى الباب العالى من أملاكه بدخل سنوى يجمعه ممن تنتهى اليه المساومة من بين الباشوات ، وببعض أفراد ينتظمون فى سلك الجيش أو فى البحرية ، ولم يعد يفكر فى شىء من الاصلاحات أو الأنظمة اللازمة لحفظ أملاكه. على هـذا تركت الولايات العثمانية فى حالة شبه استقلالية يحكمها فى الغالب ولاة طغاة .

على أنه لغاية القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية لا تزال ظاهرة أمام العالم الأجنبى بمظهر القوى الثابت وذلك بفضل أنظمتها التى كانت تحجبها عن أنظار أوربا حتى لم تعرف عن داخليتها إلا قليلا ، نعم كان البناء قائما فى نهاية القرن الثامن عشر ولكن البنيان كان من صخور نخرة واهية توشك أن تنهار اذا ما هبت عليها العاصفة ، وسرعان ما هبت العاصفة من الغرب ، فان زوابع الثورة الفرنسية وحروب نابليون التى لفحت أوربا فأيقظت أهلها من سبات عميق قـد صدمت كذلك سياج الدولة العثمانية المفككة العرى فتغلبت الأفكار القومية والاستقلاليـة على شـعور رعايا السلطان المسيحيين فى أوربا .

ومما زاد فى خبال الدولة ما كانت عليه الحكومة المركزية من الضعف وما كان يتأجج فى داخلها من نيران الثورات ومن المذابح والمظالم وخاصة بعد ثورة الانكشارية ضد السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٦ فى القسطنطينية

ولم تكن الثورات مقصورة على عاصمــة الخلافة بل كانت عامــة فى جميع أنحاء الدولة ، فقــام الوهابيون فى بلاد العرب وأخذوا يمدون ســلطانهم حتى استولوا على مكة والمدينة، وقام عثمان باشا المعروف "بسبان أوغلو" والى " ودين " فأخضع اقليم بلغاريا وانتصر على جنود السلطان واضطره الى تعيينه واليا على هذا الاقليم فى سنة ١٨٠٧ . وقام سكان " الجبل الاسود " ضد الباب العالى وانتهى الأمر بأن أعلن السلطان عدم تدخله فى شؤون الجبل، وقام على باشا حاكم "يانيه" الذى أخضع البلاد المجاورة له حتى أصــبح المسيطر على اقلــيم " ابيروس " . وقام " قره جورج " فى سنة ١٨٠٤ فى بلاد الصرب وعقد جمعية وطنية أعلنت استقلال الصرب الداخلى فحارب الصربيون جنود الانكشارية وانتصروا عليهم وأخرجوهم من بلغراد فى سنة ١٨٠٦ وأصبح " قره جورج " الحاكم المطلق .

خطة نابليون فى الشرق وخطة روسيا :

كل هــذه الحوادث جعلت الخطب يتفــاقم فى بلاد تركيا ، وجعلت نابليون ييأس من مواصلة سياسته الأولى التى بدأها سفيره القائد "سبستيانى" والتى كانت تقضى بتقوية تركيا حتى تكون حليفــة قوية لفرنسا يعتمــد عليها ويستخدمها ضد الروسيا وانجلترا ، وكانت الروسيا لا تفتأ تذكر وصية " بطرس " وخطة " كترينة الثانية " وتحين الفرص لتحقيق أمانيهــا فى احتلال القسطنطينية وسواحل البحر الأسود ، ولم تكن الفرصة أكثر ملاءمة منها فى سنة ١٨٠٧ ، وكان نابليون فى ذلك الوقت منتصرا فى واقعة " فريدلند " على روسيا وبروسيا فتقابل القيصر والامبراطور نابليــون فى " تاسست " واتفقا بشأن المسألة الشرقيــة اتفاقا سريا بمقتضاه تشترك فرنسا مع الروسيا فى تجزئة الدولة العثمانية كما أن الروسيا تشترك مع فرنسا فى اعلان الحصر البحرى على انجلــترا ، وبدأت فعلا مفاوضات التجزئة ولكــن نابليون أصر على أن تبــق القسطنطينية و بلاد الروملى الشرقى تابعتين للدولة العثمانيــة ، وأصر القيصر على أخذ القسطنطينيــة فلم تأت المفاوضات بنتيجة ، هذا الى أن انجلترا كانت بالمرصاد فى البحر .

وبينما كان نابليون يعد العدة ضد انجلترا والدولة جاءت الأخبار بانكسار جيوشه فى أسبانيا وقيام الشعوب ضده فى شبه جزيرة الأندلس ثم فى النمسا والمانيا ، وفى هذه الأثناء قامت الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٠٩ واستمرت ثلاث سنوات انتصرت فى أثنائها الروسيا كالمعتاد ، ولكن لما رأت الروسيا بوادر النزاع بينها وبين نابليون بدأت مفاوضات الصلح مع تركيا ، وعلى الرغم من تدخل نابليون فى المسألة والحاحه فى ايقاف مفاوضات الصلح لم يصغ الباب العالى لنصحه متذكرا ماعمله نابليون فى " تلست " ومتجاهلا سير السياسة العامة فى أوربا لأنه لو لم يعقد الصلح لاضطر القيصر الى ابقاء جزء عظيم من جيشه فى البلقان وما أمكنه مقاومة حملة نابليون الشهيرة فى الروسيا ، ولكن القيصر فطن لهذا فلم يتشدد وعجل بعقد معاهدة " بخارست " فى مايو سنة ١٨١٢ فتنزل القيصر عن حماية البغدان والأفلاق وأصبح نهر « البروت » هو الحد الفاصل بين الروسيا والدولة العثمانية .

مؤتمر ڤيينا والمسألة الشرقية :

ولما انعقد مؤتمر الدول فى " ڤيينا " سنة ١٨١٥ لم يتعرض ساسة أوربا للمسألة الشرقية رغم أنها من المسائل التى كان يتوقف عليها ضمان السلم العام فى أوربا الذى من أجله انعقد المؤتمر ، وخشى "الاسكندر" الذى كان صاحب النفوذ الأول فى المؤتمر أن تعرض المسألة أمام مؤتمر ڤيينا فتفقد الروسيا حرية العمل بمفردها فى حل المسألة التى كانت تعتبرها كأنها مسألة داخلية خاصة بالروسيا دون غيرها من الدول فعمل على اقصاء المسألة عن بحث المؤتمر .

الاسكندر الأول وسياسة روسيا :

وكان قيصر الروسيا اسكندر الأول رجلا شاذا اعتقد منذ كارثة " موسكو " أنه مرسل من لدن الله للقضاء على قوة نابليون ، وجعل منذ

ذلك الوقت يسيطر على اتجاهات السياسة الأوربية العامة ، وكان الاسكندر لايستقر على قرار بشأن سياسته فبينما تراه يحبذ الأفكار الدستورية ويعمل على تأييدها فى بولنده وفرنسا ، تراه آونة أخرى يعضد مشروعات "مترنخ" وينصر السياسة الرجعية فى كل مكان ، وكانت سياسة الاسكندر حيال الدولة كسياسة قياصرة الروس منذ بطرس الأكبر وهى التعجيل باضعاف الدولة العثمانية والعمل على اضمحلالها ، واذا كان لم يتيسر للاسكندر تحقيق أغراضه فى سنة ١٨١٢ بعد انتصاره الباهر فذلك لأن نابليون كان يعد حملته الشهيرة ضد الروسيا ، فلما سقطت دولة نابليون واستتب السلام فى غرب أوربا عاد الاسكندر الى مواصلة مشروع القيصرة "كترينة الثانية" وكانت أسباب النزاع بين روسيا وتركيا متوافرة بفضل الحقوق التى كسبتها روسيا على رعايا السلطان المسيحيين فقد فسرت معاهدة "كجوك قينردجه" سنة ١٧٧٤ بأن لها حق حماية الرعايا المسيحيين دينيا وسياسيا أينما كانوا ، مع أن نص المعاهدة لا يقضى الا بأن يكون للروسيا حق حماية كنيستها بالقسطنطينية وغيرها التى من جنسها ، ولم تكن الروسيا تعد نفسها حامية للمسيحيين فحسب بل كانت تعتبر أن الواجب يقضى عليها بتخليص هؤلاء الأقوام من حكم العثمانيين .

ولقد هال الباب العالى أن يرى قيصر الروسيا يقدم وثيقة "المحالفة المقدسة" وفيها ظهرت الدول المسيحية كأنها أسرة واحدة يجب أن تعمل على حسب تعاليم الكتاب المقدس ، فظهر لتركيا عزلتها عن باقى ممالك أوربا فخافت أن يكون المقصود من مثل تلك الوثيقة اثارة حرب صليبية من جديد ، فكتبت تستفهم من حكومتى لندره وفيينا فأجابتاها بأن تستفهم من القيصر فطمأنها ، ولكن الحقيقة لم تخف عن أنظار الباب العالى الذى رأى الخطر يتهدده لاحتفاظ القيصر بجيش عظيم يبلغ ٦٠٠٠٠٠ جندى ، مع أن الدول كانت قد أنقصت جيوشها الى النصف منذ سنة ١٨١٦ ، ودل القيصر على نياته ضد الباب العالى بتعضيده للثورة فى الصرب وبايوائه "قره جورج" فى سنة ١٨١٣ بعد استعادة السلطان لنفوذه وبمساعدته "لميلوش ابرونوفتش"

الزعيم الصربى الثانى الذى نال من الباب العالى حق الاستقلال الداخلى للصرب سنة ١٨١٧ بعد أن قتل " قره جورج " منافسه .

كذلك أدخل القيصر فى خدمته كثيرا من اليونانيين أمثال "كابودسترياس" والأخوين " ابسلنتى " وساعد اليونانيين على تأليف جمعية سرية تدعى " بالهتيريافليكى " أى " جمعية الاخوان " التى أخذت تعد العدة للثورة ضد العثمانيين على مثال جمعية " الكربونارى " فى ايطاليا بالنشر والتحريض ، كل هذا كان يعمله القيصر علانية ، غير أن انجلترا والنمسا كانتا على حذر وحاربتا سياسة روسيا بقدر ما فى وسعهما ، لأن النمسا كان لايسعها أن ترى الروسيا تبسط حمايتها على الشعوب الساكنة على سواحل الدانوب قريبا من أملاكها فلم تساعد أهالى البلقان على الثورة ضد الاتراك . وأما بريطانيا فكان من رأى ساستها أن حفظ كيان الدولة العثمانية أمر ضرورى لدوام السلم فى أوربا ولمعارضة الروسيا فى سبيل تقدمها نحو الشرق والبحر الأبيض المتوسط ، وسيظهر هذا الخلاف جليا عند نشوب ثورة اليونانيين .

ثورة اليونانيين

حالة اليونانيين العامة :

كان اليونانيون أكثر الأجناس الخاضعة للسلطان عددا وأقربهم اليه منزلة وكان الباب العالى يخصهم بوظائف ومزايا سامية وكان فلاحو اليونانيين أسعد حظا من زملائهم فى أوربا اذ لم يكن نظام رقيق الأراضى معروفا فيها فى حين أن آثاره كانت باقية فى روسيا وبروسيا وبولنده ، وكان السلطان يعين ولاة من العثمانيين يدعون الى مشاورتهم فى شؤون الادارة أعيان اليونانيين والأتراك ، وكان يترك توزيع الضرائب وجبايتها فى أيدى

سكان كل قرية فكانوا ينتخبون عددا من بينهم لتقرير الضرائب وتوزيعها على السكان وكل ما كان يهم الباب العالى هو وصول المال للخزانة والحصول على العدد اللازم من بحارة الجزر اليونانية لالحاقهم بالاسطول العثمانى .

امتيازهم الدينى :

أما من الوجهة الدينية فكانت سياسة السلطان دائما فى كل فتوحاته ترك كل ملة وشأنها ، ولما كان المذهب المسيحى السائد فى تركية أوربا هو الأرثوذكسى وفق الكنيسة اليونانية ، خص الباب العالى اليونانيين بادارة الشؤون الدينية فى جميع أنحاء الدولة فكان يعين منهم " بطريقا " عاما مقره القسطنطينية ، وكانت هذه الوظيفة من أسمى الوظائف فى الباب العالى اذ كان للبطريك اليونانى نفوذ على كافة الكنائس المسيحية فى الدولة العثمانية ماعدا بلاد الصرب وكان له حق تعيين الأساقفة ولهؤلاء حق عقد محاكم خاصة لمحاكمة المسيحيين ، وقد أوصلهم حذقهم فى السياسة الى أعلى الوظائف فى الدولة العلية فكان لهم أربع وظائف وقفا عليهم وهى وظيفة " كاتب سر الأسطول " و " مترجم الباب العالى " و " حاكم الافلاق " و " حاكم البغدان " .

حالتهم التجارية :

أما حالتهم التجارية فقد بلغت شأوا بعيدا منذ معاهدة " قينردجة " سنة ١٧٧٤ التى بمقتضاها فتح البحر الأسود للتجارة الروسية ، وانتفع اليونانيون بمزايا هذه المعاهدة فأخذوا يصنعون السفن التجارية العظيمة ويسلحونها بدعوى الدفاع ضد غزوات لصوص البحر ، فأخذوا يتاجرون مع الممالك البعيدة تحت الراية الروسية أو تحت الراية الانجليزية ، وقد زادت تجارة اليونانيين وسفنهم أثناء حروب نابليون والحصر البحرى ، فأصبح اليونانيون ذوى تجارة واسعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، ومن دلائل اتساع حركة التجارة اليونانية ظهور ميناء " أودسا " على البحر الأسود فى سنة ١٧٩٢ وهجرة اليونانيين اليها بكثرة حتى أصبحت ملجأ لجماعة من أثريائهم .

حالتهم الأدبية :

كذلك ارتقت حالة اليونانيين الأدبية فبدأوا يتعلمون فى البلاد الأجنبية ويتلقون دروسا جديدة نبهت عقولهم وجعلتهم يضمرون التخلص من نير الأتراك . وظهر من بينهم المصلح الشهير "كوريس" (١٧٨٤ — ١٨٣٢) الذى اليه يرجع الفضل فى وضع اللغة اليونانية الحديثة ، فانه رأى أنه لايكمل الشعور القومى بدون رابطة اللغة ورأى أن اللغة اليونانية فى ذلك الوقت خليط عقيم عن اللغات الأجنبية المجاورة مع أن اللغة اليونانيةالقديمة كانت من أفضل اللغات فأخذ "كوريس" ينقى اللغة من الغريب السوقى ويستبدل به اليونانى العريق ، وهكذا أخذ يصلح اللغة و يزيد عليها ويدمج القديم فى الجديد وأخرج مؤلفات جديدة وأحيا الآداب القديمة فأعاد ذكرى مجد اليونانيين القدماء وجعل لهم لغة ذائعة معروفة .

من ذلك يتبين أن اليونانيين قبل الثورة لم يكونوا مستعبدين بل كانوا فى الحقيقة شبه مستقلين ، وأنهم وصلوا الى درجة عظيمة من الثروة والرقى وخاصة فى مركز نهضتهم وهو قسم " الفنار " فى القسطنطينية حيث كانت دار البطريق التى نشأ حولها طائفة " الفناريين " المعروفين ويليهم فى الرقى يونانيو البغدان والأفلاق وأودسا .

تكوين جمعية الاخوان :

غير أن هذا الرقى كان باعثا على تحريك الهمم ضد سيادة الأجنبى وخاصة بعد ماعلموه من نجاح الثورة الفرنسية وظهور نابليون الذى أصبح مثالا يقتدى به فى الثورات التى قامت عقب سقوطه مطالبة بالاستقلال ، كذلك شجع اليونانيين على القيام بالثورة ماعلموه من قيام على باشا حاكم " يانيه " وغيره فى أنحاء الدولة ، ولكن المسئول مباشرة عن تنظيم حركة الثورة ضد الأتراك هو جمعية "الهتيريا" أو جمعية الاخوان وهى جمعية سرية أسست فى " أودسا " و " ڤيينا " فى سنة ١٨١٤ لما علم اليونانيون بأن مؤتمر

" ڤينا " سيهمل البحث فى المسألة الشرقيــة ، وأخذت دائرة الجمعية تتسع تدريجا حتى انضم الى صفوفها فى غضون ست سنوات كل يونانى ذى مكانة .

قيام الثورة وأغراضها :

وكانت هـــذه الجمعية تتاجر باسم قيصر الروسـيا ووزيره اليونانى " كابودسترياس " فلما اجتمع أعضاء الجمعية لتبادل الآراء فى أمر اعلان الثورة فى ولايات البغدان والافلاق لقربها من الروسيا وأعلنوا أنهم يريدون اســتقلال أمارات البلقان وطرد العثمانيين خارج أوربا وتجديد الدولة البوزنطية ، كانت الآمال معقودة على أن يكون القيصر عضدا للحـركة ، فلما أرادوا انتخاب رئيس لقيادة الحركة خابروا " كابودستارياس " وزير القيصر فى الأمور الخارجية فأبى علما منه برغبة القيصر عن ذلك فوقع انتخابهم على " اسكندر ابسلنتى " وكان ضابطا فى الجيش الروسى فى خدمة القيصر أيضا ، فأعلن الثورة فى " ياش " فى ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى فى الأهالى المسيحيين بالقيام ضد الأتراك وأصـدر التماسا للقيصر يطلب التعضيد ، ولكن آمال "ابسلنتى" كان مقضيا عليها من المبدأ ، لأن شعوب البلقان كانت حانقة على اليونانيين وخاصة فى رومانيا حيث كانت الديانة " كاثوليكية " وعلى ذلك لم يكن من مصلحة الرومانيين والبلغاريين مثلا أن يساعدوا فى تكوين امبراطورية اغريقية جديدة ، لذلك لم تصادف دعوة " الهيتريين " قبولا من الفلاحين فى رومانيا كما كانوا ينتظرون .

فشل الثورة فى البلقان :

أما القيصر اسكندر الأول فقد جاءه خبر قيام "ابسلنتى" وهو فى مؤتمر " ليباخ " يتناقش مع الدول بشأن اخضـاع الثائرين فى " نابلى " واعادة صاحب الحق الشرعى فيها الى ملكه ، وكان اسكندر فى تلك الآونة قــد غير أفكاره السياسية الحرة وتلق السياسة الرجعية عن أســتاذها " مترنخ "

وصار له أعظم معين فى سياسته ، فما كان ينتظر أن يكون اسكندر عدوا للثورات فى غرب أوربا وعضدا لها فى شرقها وقريبا من أملاكه ، لذلك لما بلغه خبر قيام " ابسلنتى " بش للخبر أولا ولكن مازال به " مترنخ " حتى كتب يستهجن عمل " ابسلنتى " ويبرئ نفسه منه ، كذلك أصدر " البطريق " اليونانى بالقسطنطينية قرار الحرمان ضد " ابسلنتى " ، وفى الوقت نفسه أرسل السلطان جيشا لقمع الثورة فعبر نهر الدانوب وهزم الثوار ففر " ابسلنتى " الى داخل حدود المجر حيث اعتقل ومات .

قيام المورة

تبادل الفظائع من الجانبين :

هذا ماحصل من اليونانيين فى شمال البلقان ، ولكن الثورة لم تقتصر على ذلك بل امتدت الى الجنوب أيضا أى فى شبه جزيرة " المورة " مهد اليونانيين الأصليين فقاموا فى ١٨٢٢ ، وكان القصد من هذه الحركة الخروج من نير العثمانيين واعلان استقلال اليونان فقط ، ولما شق اليونانيون عصا الطاعة أتوا بفظائع مروعة ضد العثمانيين وخاصة من كان منهم فى داخلية البلاد ، فلما وصل خبر هذه المذابح الى مسامع الأتراك ثارت نفوسهم وانتقموا لأنفسهم شر انتقام فأعدم السلطان محمود الثانى البطريق اليونانى فى صبيحة عيد الفصح وأعدم غيره من الأساقفة اليونانيين ، وظل الجانبان يتبادلان وتتنافسان فى صب العذاب على رءوس الأبرياء ، ثم استولى الثوار على "تريبولترا" مقر الحكم ١٨٢٢ ومثلوا بالأتراك شر تمثيل فقابلهم الأتراك بالفتك بسكان جزيرة " شيوس " .

عجز السلطان عن قمع الثورة :

ثم أعد الباب العالى جيشا بقيادة " خورشيد باشا " الذى كان حاكما على مصر فى سنة ١٨٠٤ وبعد أن أخضع على باشا والى "يانيه" سار جنوبا

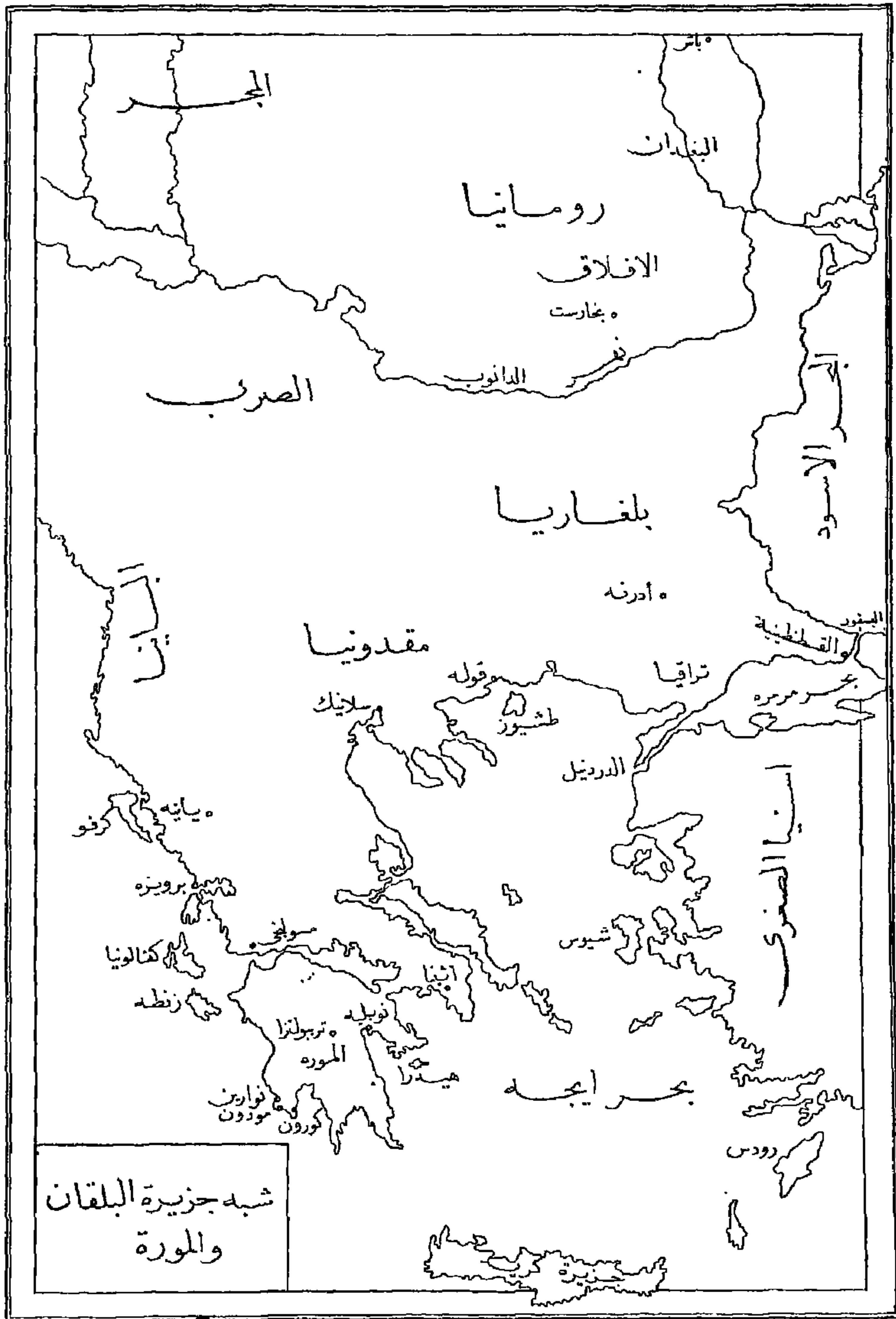
ووقف جزء من الجيش أمام ميناء « مسولنجى » وسار جيشه مخترقا مضيق " ترموبيل " ولكنه أهمل تحصين المرتفعات من ورائه ، فلما قابله " كولكترونس " رئيس " الكلفت " أو العصابات اليونانية الجبلية ، وأحد زعماء الثورة اضطر الجيش الزاحف الى التقهقر فوجد اليونانيين محصنين فى المرتفعات ، فدحر الجيش بأكمله وانتحر خورشيد باشا بعد هذه الهزيمة ، كذلك ظهر فى البحر ملاحو جزر الارخبيل بقيادة " ميوليس " و " كاريس " فهزموا الأتراك وأغرقوهم هم وسفنهم أينما عثروا بهم وسرعان مازالت سلطة الأتراك من الأرخبيل ، فلما جاء يناير سنة ١٨٢٣ أعلنت اليونان استقلالها برياسة " ماوروكرداتس " و " ديمترى ابسلنتى " أخى اسكندر ابسلنتى ، ولكن المنافسة بين الوطنيين كانت شديدة فأدى ذلك الى ضعف الحكومة الوطنية .

طلب المساعدة من محمد على :

ولما لم يكن لدى السلطان جنود لقمع الثورة ولى وجهه شطر محمد على باشا باشارة سفير النمسا التى كانت تريد القضاء على الأفكار الثورية وعدم اعطاء الروسيا فرصة للتدخل ، وأرسل السلطان لمحمد على أمرا بذلك فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٢ وعينه حاكما على " كريد " ثم على " الموره " فأذعن محمد على للأمر ورحب بفرصة يظهر فيها للعالم قوته البرية والبحرية و يبرهن مرة ثانية أنه أقدر من السلطان فى ميادين القتال ، فأرسل قوة الى " كريد " أولا ثم جهز حملة مكونة من ١٧٠٠٠ جندى سافرت على ٩٩ سفينة منها ٦٣ قطعة حربية ونقلية و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر ، وقد جعل الرياسة لابنه ابراهيم باشا ورياسة الأسطول لصهره محرم بك.

خطة الحملة المصرية :

وذهب الأسطول أولا الى جزيرة " رودس " فانضم الى الأسطول العثمانى وشجعه على الخروج والمخاطرة ، واقتحم الارخبيل على الرغم من



شبه جزيرة البلقان والمورة

تعقب سفن اليونانيين لهم وكان الأسطول أقوى أسلحتهم ولكن ابراهيم اضطر — بعد أن رأى ضعف الأسطول العثمانى وتخاذله عند كل موقعة — الى الالتجاء الى جزيرة " كريد " وبقى بها مدة أصلح فيها أحواله وانتهز فرصة منازعات اليونانيين بسبب يأسهم من تعضيد أوربا لهم بعد أن منوا أنفسهم بذلك زمنا طويلا . فخرج ابراهيم فى فبراير سنة ١٨٢٥ منتهزا فرصة بعد سفن اليونانيين عن مياه كريد ونزل بميناء " مودن " .

وكان نزول الجنود المصرية على أرض " المورة " فاتحة عهد جديد اذ كان مستحيلا على اليونانيين مقاومة جيوش ابراهيم المدربة على النظام الحديث فأخذت انتصارات الأتراك والمصريين تتوالى سنة ١٨٢٥ و١٨٢٦ واخضع ابراهيم "كورون" ثم " نوارين " و "تريبولتزا" وحاصر "نوبليا" مركز قيادة الثورة ، ولكنه ارتد عنها ولم يبق من " المورة " غيرها كذلك كان رشيد باشا يحاصر " مسولنجى " فلما أعياه فتحها طلب الى ابراهيم باشا المساعدة : فتقدم ابراهيم بعد استئذان أبيه وكان اليونانيون مستميتين فى الدفاع عن هذه الميناء ولم يتمكن ابراهيم من فتحها الا بعد حصار دام من أول الأمر خمسة عشر شهرا وسقطت فى أبريل ١٨٢٦ بعد أن هلك ثلاثة أرباع سكان المدينة وثلث القوة المصرية . وبعد " مسولنجى " سقطت " أثينا " (يونيه ١٨٢٧) وبذلك خضعت اليونان ولم يبق لهم الا بعض جزر الارخبيل و " نوبليا " عاصمتهم فانحطت حالتهم الأدبية وتنازعوا أمرهم بينهم ولم ينقذهم من الفناء الا شيئان : تدخل أوربا وضعف تركيا الداخلى ، وكان السلطان قد قضى على جنود الانكشارية عن آخرهم فى سنة ١٨٢٦ لما شاهده من فوقان الجنود المصرية ، وبدأ بتنظيم جنود جديدة لايرجى صلاحها للحرب الا بعد سنين .

تدخل الدول

السياسة السائدة فى أوربا :

لما ظهرت حركة الاستقلال اليونانى كانت المبادئ السياسية فى أوربا لاتتفق البتة مع أمانى الثوار اليونانيين، فمبادئ المحالفة المقدسة صريحة بشأن الشعوب التى تثور ضد ملوكها وحكوماتها، ولم يكن ينتظر من المؤتمر الدولى فى أوربا أو من ممثله " مترنخ " أن يحبذ الثورة ضد السلطان ، فالثورة ضده لم تخرج عن كونها ثورة ضد صاحب الحق الشرعى على أى حال ، على الرغم من أن السلطان لم يكن من الموقعين على المحالفة المقدسة ولا من المشتركين فى المؤتمرات الدولية .

وكانت الدول فى أول نشوب ثورة اليونان مشتغلة بمسألتى ايطاليا واسبانيا وما حصل فيهما من التغيرات الحكومية، فكان اهتمام الدول ومن بينها الروسيا بشأن الحالة فى الغرب عظيما ، فلما قام اليونانيون رأت الدول أنه وان كان الأمر يقتضى التدخل فى جانب صاحب الحق الشرعى وهو السلطان وفاقا للمبادئ الموضوعة منذ سنة ١٨١٥ فعلى الأقل يجب عليها أن تلزم الحيدة حتى تأتى الحرب بنتيجة فعليــة . نعم كان الروس والاسكندر متحفزين للوثوب على عدوهم القديم تعضيدا لاخوانهم فى الملة ، وبالفعل أرسل "الاسكندر" انذارا نهائيا للباب العالى وسحب سفيره من القسطنطينية ولــكن " مترنخ " " وكسلرى " وزير خارجيــة انجــلترا سكتا من روع الاســكندر وأوضحا له الخطر الذى قد يحدث على أثر دخول الاســكندر فى جانب الثوار ضد السلطان ، فأذعن لسياستهما ولم يشأ الدخول فى جانب الثوار وخاصة لما رأى أن أفكار الثوار متجهة نحو الاســتقلال ، وظل كذلك الى أن مات فى ديسمبر سنة ١٨٢٥

خطة انجلترا :

كذلك مات " كسلرى " وزير خارجية انجلترا منتحرا فى سنة ١٨٢٢ وخلفه فى وزارة الخارجية "جورج كاننج" وكان سياسيا جريئا صريحا، من خطته مناوأة مؤتمر الدول ومنعه من التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الصغيرة ، فأدت حدة سياسته تدريجيا الى عدم اشتراك انجلترا مع دول وسط أوربا فى قراراتها وجعلته يعلن اعتراف انجلترا باستقلال مستعمرات أسبانيا فى أمريكا سنة ١٨٢٤

أما سياسته ازاء المسألة اليونانية فانه مع عطفه على الثوار لم يتدخل فعليا فى جانبهم وكان يعلل نفسه بأن اليونانيين لابد أن ينتصروا على الأتراك نهائيا فتستقل اليونان من غير تدخل الدول .

خطة النمسا :

أما "مترنخ" الوزير الأكبر للنمسا فلم تكن له الا سياسة واحدة فى الشرق وفى الغرب وهى سياسة المحافظة على القديم واخماد الحركات القومية والدستورية واحترام الحقوق الشرعية وأصحابها سواء كان صاحبها " فرديننذ السابع " ملك أسبانيا أو " محمود الثانى " سلطان تركيا ، لذلك كانت مساعدة النمسا للأتراك ضد الثوار اليونانيين أقرب من نقيض ذلك وخاصة لاتصال البلقان بأملاك النمسا. أما سياسة فرنسا فكانت حكومة ملكها "شارل العاشر" تريد اكتساب ثقة الشعب ملكيين وجمهوريين بالدخول فى جانب اليونانيين انتصارا للشعوب الضعيفة من جهة وتأييدا للمسيحيين ضد الأتراك من جهة أخرى . أما بروسيا فكانت سياستها هى عين سياسة مترنخ ، لأنها لم تكن لها مصالح ذات شأن فى البلقان ، هذه هى سياسة الحكومات .

عطف شعوب أوربا :

أما شعوب أوربا فكانت منذ الساعة الأولى تعطف على اليونانيين فتألفت جمعيات "أصدقاء اليونان" فى كل مملكة أيدت الثوار بالمال و بالذخائر و بالرجال المتطوعين ، ومن أشهرهم اللورد "بيرون" الشاعر الانجليزى الذى مات أثناء حصار "مسولنجى" والكولونيل "فابفيير" الفرنسى .

ولا غرابة فى ذلك فاليونان فى نظر أوربا أم الحكمة ومنبع العرفان ، وهى البقية الباقية من المدنية القديمة ذات الفضل العظم والأثر المحمود فى مدينة أوربا الحديثة ، وهى البلاد التى انبثق منها نور الحرية والديمقراطية الأولى ، فكان حقا على أوربا أن تسدد جزءا ولو صغيرا من دينها السابق .

غير أن الرأى العام فى أوربا كان وقتئذ وفى هذه المسألة يعمل مدفوعا بعواطفه ولايعلم الحقيقة التى لا مراء فيها وهى أن اليونانيين الحديثين قوم قد امتزجوا بالأمم الصقلبية وتطبعوا بطباعها فكانوا الى الفطرة أقرب منهم الى المدنية ولم يتميزوا عن باقى الأمم السلافية فى شىء ، فان البيئة الجغرافية واحدة وقد أثرت فى الجميع على السواء ، اللهم الا اليونانيين الذين رحلوا عن بلادهم وتعلموا وامتزجوا بالأمم الأخرى فانهم حقيقة كانوا ذوى ثروة ونشاط ومقدرة .

على أن عطف شعوب أوربا على اليونانيين لم ينقذهم من الاذعان لسلطان ابراهيم باشا والعثمانيين ، وكان محمد على قد أرسل المدد لابنه ابراهيم فخافت حكومات أوربا أن تكون عاقبة تغلب المصريين فى بلاد اليونان أن ينقرض اليونانيون وتثبت أقدام المصريين فى تلك البلاد ، فأصبح التدخل لابد منه وخاصة من ناحية روسيا .

خطة القيصر نيقولا الأول :

وكان القيصر "نيقولا الأول" الذى خلف القيصر اسكندر أقوى مراسا من سلفه مقداما حازما ولم يكن من رأيه التمسك بمبادئ المحالفة

المقدسة لأنه لم يتقيد بخلفه بقرارات سنة ١٨١٥ ومابعدها .وكان من رأيه الصريح التدخل ضد الأتراك فأرسل انذارا نهائيا بشأن شروط لمعاهدة " بوخارست " لم ينفذها الباب العالى ،ولم يقو على التصريح بذكر المسألة اليونانية ، فلما علم " كانبج Canning " بذلك خاف أن يؤدى الأمر الى تدخل الروسيا بمفردها فى حل المسألة فيكون لروسيا النفوذ الأكبر فى البلقان فأرسل الدوق " ولنجتون Wellingiton " سفيرا لدى الروسيا ليعمل على توحيد غرض الحكومتين،فاتفقا مبدئيا فى ٤أبريل سنة ١٨٢٦ على أن تمنح اليونان الاستقلال الداخلى وتبقى السيادة لتركيا .

ومقابل هذا الاتفاق سعت انجلترا لدى الباب العالى بأن يسرع فى الاتفاق مع القيصر على تنفيذ شروط معاهدة "بوخارست" وفعلا و وفق على ذلك باتفاق " أكرمان " سنة ١٨٢٦ و بمقتضاه أصبح للروسيا حق فى ولايتى الدانوب لايقل عن حق تركيا ، وأخذت الروسيا بعض بلاد فى جنوب القوقاز ، وأصبحت الملاحة حرة فى البحر الأسود ، ووافق السلطان على ما نالته الصرب من الاستقلال الداخلى .

ولكن المسألة اليونانية كانت تتطلب النظر فيها بسرعة ، فعمدت انجلترا والنمسا الى نصح الباب العالى بقبول الاتفاق المبدئى (أبريل سنة ١٨٢٦) بين انجلترا وروسيا ولكن الحكومة العثمانية أبدت بدل الموافقة لومها للدول،لأنها لم تراع مبادئ المحالفة المقدسة،ولأنها شجعت الثوار على الخروج على صاحب الحق الشرعى، وأنكرت عليهم حقهم فى التدخل فى مسائل الدولة الداخلية ، وكانت الروسيا تحين الفرص لاعلان الحرب والتدخل فى المسألة فعدت اصرار السلطان على عدم الاتفاق مع الدول مبررا للحرب ، كذلك اتخذت الوزارة الانجليزية منذ تولى " كانبج " رياستها موقفا هجوميا، فلم تشأ أن تستسلم لماطلة الباب العالى ، وعلى ذلك سرعان ما تم الاتفاق بين روسيا وانجلترا وفرنسا فى معاهدة لندره سنة ١٨٢٧

معاهدة لندره (١٨٢٧) :

أما النمسا فقد أعلنت مبدأها الذى لا تحيد عنه وهو أنها لا تتدخل أبدا بناء على طلب الثوار، وأن خير طريق لحل المشكلة هو أن تنصح للسلطان وديا بأن يمنح اليونانيين مطالبهم ، لذلك لم يتحرك " مترنخ " وترك الدول الثلاث توقع المعاهدة ، وفى مقدمتها يقولون: "إنهم عقدوا هذه المعاهدة لمنع الأضرار التى لحقت بمتاجرهم فى الشرق واجابة لدعوة الثوار وتلبية لنداء الانسانية ، و بمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن تفصل اليونان عن تركيا نهائيا وأن تبقى السيادة لتركيا من غير أن تدفع اليونان الجزية وأن تعلن الهدنة بين المتحاربين تنفيذا لشروط المعاهدة وإلا تدخلت الدول بالقوة ، ولم يمهل الباب العالى إلا شهرين للاجابة" .

موقف الحلفاء وموقعة نوارين :

ولما رأى الحلفاء ما ينتظر من عناد الباب العالى واصراره على عدم الاذعان، قرروا سرا أن يرسلوا بعض أساطيلهم الى شواطئ اليونان استعدادا للتدخل بالقوة ، فجاء أمير البحر "كدرنجتون Codrington " أولا على رأس الأسطول الانجليزى وألقى مراسيه عند "نوارين" ثم جاء الفرنسيون بقيادة أمير البحر" ريني Rigny " والروسيون بقيادة " هيدن Heyden " وبدأت المفاوضات فى الحال مع ابراهيم باشا وكان واقفا بأسطوله العثمانى المصرى داخل خليج "نوارين" . أما الثوار فحين جاءهم خبر ابرام المعاهدة عدوه انتصارا باهرا لهم بعد أن كانوا قد وصلوا الى حالة سيئة للغاية وخاصة بعد أن سقط حصن " أثينا " عقب " مسولنجى " فدبت فى نفوس الثوار روح جديدة ورحبوا بالمعاهدة حال عرضها عليهم، أما الباب العالى فانه بايعاز من النمسا توقف وامتنع عن الاعتراف بالمعاهدة فتهدد باستعمال القوة، ولكن لم يجد ذلك نفعا وفات الوقت من غير رد أو تساهل

من قبل الباب العالى فوقف الأسطول المتحد أمام ميناء "نوارين" واتفق مبدئيا على أن تبقى الحالة كما هى حتى تصدر أوامر جديدة . ولكن حصل سوء تفاهم بين الأسطولين أثناء غياب ابراهيم داخل المورة وكانت تعليمات أمير البحر "كدرنجتن" تقضى باستعمال القوة اذا دعت الحالة فدارت واقعة " نوارين " فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وقضى على الجزء الأعظم من الأسطول العثمانى المصرى فى ثلاث ساعات فتشجع الثوار وأخذوا يستردون مكانتهم .

أثر الموقعة :

أما خبر موقعة " نوارين " فى تركيا فقد أتى بعكس المطلوب منه ، فان الباب العالى استشاط غضبا عند سماعه بالكارثة وطلب تعويضا كبيرا من الدول الثلاث ، ودعا السلطان اجتماعا عاما من كبار الأمة وقرأ عليهم منشورا نسب فيه للروسيا خاصة التحريض والمؤامرة ضد الباب العالى ودعا المسلمين الى قتال الروسيا عدوة تركيا ومسببة محنها ، فلم يسع القيصر الا اعلان الحرب فى سنة ١٨٢٨ ، أما فى انجلترا فقد حدث تغيير فى سياستها بسبب موت " كاننج " فى أغسطس سنة ١٨٢٧ وهو صاحب سياسة الهجوم وجاء بعده "ولنجتون" وهو من المحافظين الذين من سياستهم الحرص على بقاء كيان تركيا ، لذلك لم تواصل الحكومة الانجليزية سياسة " كاننج " فتسعى فى تنفيذ معاهدة لندره سنة ١٨٢٧ ، بل أبدى الملك " وليم الرابع " رسميا فى خطبة العرش (يناير سنة ١٨٢٨) أسفه على ما حصل فى واقعة " نوارين " مشيرا الى هذه الحادثة بقوله " الحادث النحس (The untoward event) " لذلك قصرت انجلترا مساعدتها فى المسألة اليونانية على أن تكون أدبية فقط ، أما فرنسا فأرسلت جيشا يبلغ عدده ١٥٠٠٠ بقيادة المارشال " ميزون Maison " لمراقبة اخلاء " المورة " من الجيوش المصرية .

خطة محمد على بعد الواقعة :

أما محمد على فقد كسب لنفسه مركزا بين الدول لم يكن ليحلم به ، اذ اضطرت الدول الى مفاوضته مباشرة ، ولا بد أن تكون الدول قد دهشت لما رأته من استعداد وموارد الباشا ، ولما أنس محمد على من الدول رغبة فى مصادقته ، رأى أن اصراره على المقاومة وانها كه قواه واضعافه لمركز مصر واستهدافه للخطر من أجل السلطان ليس من السياسة فى شىء لذلك لما دخلت الجنود الفرنسية " المورة " بقيادة " ميزون " فى أغسطس سنة ١٨٢٨ لم يقع بين الجانبين نضال أو كفاح وتصافى الجيشان وتحابا .

مركز مصر فى نظر الدولة :

وكانت المفاوضات فى غضون ذلك دائرة بين محمد على وأمير البحر الانجليزى و يتضح منها جليا مقدار تحسين محمد على لمركزه الدولى ، فقد كتبت اليه الحكومة الانجليزية تبدى عظيم أسفها على ما لحق الأسطول المصرى من الخسارة بسبب واقعة " نوارين " وتبدى رغبتها فى أن يكون علاقاتها دائما ودية مع الباشا ، ثم أفضت اليه الحكومة بأن الأخبار الواردة حديثا تدل على أن الباب العالى قد يستمر فى مقاومة الحلفاء الى درجة الدخول فى حرب علنية ، فاذا دخلت انجلترا فى حرب ضد تركيا فان حكومة انجلترا تعتبر مركز محمد على كما يأتى :

" إن جلالة الملك ، من غير تدخل منه فى العلاقات بين الباشا والسلطان الذى يعترف له الباشا بحق السيادة ، مستعد للاعتراف لسموه بالحيدة التامة متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة اذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة " (١) .

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن (مصر) : من " وزارة الخارجية " الى " سولت " فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧

لذلك لم يتردد محمد على ووقع على اتفاق الاسكندرية فى ٦ أغسطس سنة ١٨٢٨ [1] وأرسل يأمر ابراهيم بالجلاء عن "المورة" من غير انتظار لأمر السلطان فتم ذلك ، وفى ٢٩ ديسمبر وصل محرم بك الى الاسكندرية ومعه باقى الأسطول وهو ٣٨ قطعة و ٢٤٠٠٠ جندى ، وأصبح محمد على فى حالة سلم مع دول أوربا وترك الباب العالى وحده أمام روسيا .

الحرب الروسية التركية (١٨٢٨) :

وكان القيصر قد أعان الحرب على تركيا فى أبريل سنة ١٨٢٨ ولم تكن تركيا على استعداد تام بسبب تغيير نظام الجندية ، ومع ذلك قد انتصر الاتراك سنة ١٨٢٨ على قيصر الروسيا أمام حصون "شملا" و "سلستريا" على نهر الدانوب ، ولكن عاد القيصر فعين الجنرال "ديبتش Diebitch" الذى ترك حصون الدانوب دون أن يستولى عليها واخترق البلقان بقوة صغيرة فدخل "أدرنة" ولم يكن معه الا ١٥٠٠٠ جندى ، فلو أن السلطان واجهه بجيش أيا كان عدده لدارت الدائرة على الروس بلا مراء ، ولكن اضطربت أعصاب وزراء الباب العالى لما علموا باقتراب الجنود الروسية من أسوار القسطنطينية فلم يشاءوا الا الصلح ، وعجلت الروسيا بعقد معاهدة " أدرنة " سنة ١٨٢٩ وبها وافق السلطان على قرار معاهدة لندره بشأن

---

(١) وهاك ملخص نص الاتفاق الذى تم بين أمير البحر كدرنجتن ومحمد على :

(١) يتعهد محمد على برد جميع الرقيق اليونانى الذى أرسله جنوده الى ممتلكاته بعد واقعة " نوارين " وقبلها .

(٢) يتعهد أمير البحر كدرنجتون بارجاع الأسرى المصريين و برد سفينتين مصريتين فى مياه " مودون " .

(٣) تخلى الجنود المصرية بلاد المورة على سفن مصرية يرسلها محمد على ويحرسها الحلفاء .

وهذا اتفاق غريب فى بابه لأنه عقد مع تابع للسلطان باعتباره دولة مستقلة وشروط الاتفاق مخالفة كل المخالفة لرغبة صاحب السيادة .

اليونان . وأصبح النفوذ الروسى عظيما فى مجالس الباب العالى . قال الوزير الروسى "نسلرود Nesselrode" : "قد كان يمكن الروسيا أن تقضى على الدولة العثمانية ، ولكن بقاء هذه الدولة تحت حماية الروسيا أنفع لها سياسيا وتجاريا من ضم هذه الأملاك أو تجزئتها وتحويلها الى حكومات مستقلة لا يمضى عليها زمن طويل حتى تنافس روسيا فى الثروة والقوة والتجارة" (١) .

هذا يفسر عدم انتصار الروسيا لمطالب أهل البلقان الكاملة فى الاستقلال ليظل البلقان تحت نفوذها ، وخشيت الدول أن يزداد نفوذ روسيا فى اليونان بعد معاهدة أدرنة وكان "كابودسترياس" وزير الروسيا اليونانى السابق رئيسا للحكومة اليونانية المؤقتة فسعت انجلترا وفرنسا لدى الباب العالى فى أن تستقل اليونان استقلالا تاما . وتم ذلك فى سنة ١٨٣٠ باتفاق الدول الثلاث .

امتناع محمد على عن مساعدة السلطان :

ويلاحظ أن محمد على لم يتقدم لمساعدة السلطان فى هذه الحرب على الرغم من الحاح الباب العالى عليه بارسال جزء من جيشه . غير أن محمد على لم يسعه ازاء هذا الطلب الا أن ماطل واعتذر ببعد المسافة بطريق البر بين مصر وميدان الحرب ، ولعدم وجود أسطول لنقل جنوده ولوقوف أساطيل الحلفاء بالمرصاد . ثم اعتذر بتفشى الوباء فى مصر وفى الشام ، وعلى ذلك اكتفى بارسال مليون ريال للباب العالى . ولم توقع الدول على محمد على قوانين الحصر فظلت موانيه مفتوحة وتجارته سائرة كالمعتاد . ولم يضطهد الأروام فى مصر كما حصل فى جميع أنحاء الدولة فى ذلك الوقت .

---

(١) راجع المسألة الشرقية " لدريول " صفحة ١٠٨



ابراهيم باشا

الرقيق اليونانى وشدة ابراهيم :

أما شدة ابراهيم فى " المورة " فيظهر أن كتاب الافرنج قد غالوا فيها مغالاة تتفق مع عواطفهم نحو اليونانيين ، والحقيقة أن ابراهيم عامل اليونانيين على حسب الاجراءات الحربية التى كانت تتخذها أية دولة متمدينة فى ذلك الوقت . واتهمته أوربا كذلك بارسال أهل اليونان كرقيق الى مصر، ولكن ذلك غير صحيح، فقد كتب قنصل انجلترا العام الى وزارة الخارجية فى هذا الموضوع يقول: "ان الرقيق اليونانى الذى أرسل الى مصر لم يكن أرسله ابراهيم باشا ولا دخل له مطلقا فى وجود هذا الرقيق بمصر اذ القانون العسكرى العثمانى يجعل الأسير عبدا لآسره لا للقائد العام" فيظهر أن عددا عظيما قد باعته الجنود المصرية الى تجار الرقيق وهؤلاء أرسلوه الى مصر ليباع فيها . ويبلغ عدد الرقيق بمصر ٣٠٠٠ وقد اشترت الجمعية الأغريقية المسيحية نصفهم والباشا يجتهد فى تحرير عدد عظيم من الباقين [١].

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية (مصر) : من "سولت" الى "وزارة الخارجية" فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦

الفصل العاشر

بين الباشا والسلطان

أثر تجزؤ الدولة :

إن تجزأ الدولة العثمانية بهـذه الطريقة وانفصال أملاكها عنهـا لم يكن بالشيء الغريب، إذ ليس من المدهش أن تتساقط الحجارة من البناء المتداعي المنهار ، لذلك يمكننا أن نقول إن انفصال الصرب وأمارات الدانوب ، واليونان عاجلا أو آجلا كان عمـلا طبيعيا لم يكن منه مناص لأنه لم يكن الا نتيجة لحركات داخليـة قام بها أهل هـذه الأقسام أنفسهم يحركهم الشعور القومى أولا والتحريض الأجنبي ثانيـا، وليس هناك معنى فى أن تبقى الأقوام تحت سيطرة من لا قدرة له على المحافظة عليها .

غير أن الدول بمساعدتها هـذه الأقسام على الانفصال من جسم الدولة سواء كان ذلك بالتحريض أو بالمساعدة الفعليـة قد أحرجت مركزها أيما احراج . ويظهر أن حب الدول "لكلفت" المورة والبلقان على العموم قد أنساها أهـل الشرق وولاته ، نسوا أنهم باذلالهم السـلطان وبشدهم أزر الثائرين عليـه قد وضعوا مثلا جديدا يحتذيه غيرهم من رعايا السلطان. ولعلهم تخيلوا أن أهـل الشرق دون أهـل الغرب تفكيرا وشعورا وتعاموا فى ذلك على الحقيقـة الظاهرة وهى أن رعايا السلطان مسـلمين كانوا أو مسيحيين شرقيين أو غربيين كان نصيبهم من ظلم الولاة وعسفهم واحدا متماثلا .

نسيت الدول أنه اذا جرت على قاعدة وطبقتها على مسألة أو أكثر كان حقا عليهـا وعدلا أن تطبق القاعدة فى الأحوال المتماثلة التى قـد تنشب فى الدولة فى المسـتقبل ، وانه اذا لم تتبـع القاعدة الأولى يكون جزاؤها الازدراء وعدم الاكتراث .

لم يرغم الدول على العدول عن خطتها العدائية ضد السلطان الا محمد على، الذى أجبر الدول على أن تردد النظرية القديمة القائلة بحفظ كيان الدولة العثمانية . ولم يكن محمد على أول من قام يعارض الباب العالى عقب الثورة اليونانية، فقد سبقه على باشا حاكم "يانيه" فى أول عهد الثورة وتمرد ولاة "بغداد" و"عكا" و"اشقدرة" ولكن لم يكن فى قدرة واحد من هؤلاء أن يجرد السيف طويلا ضد السلطان . محمد على هو وحده الذى قدر له أن يضرب قلب الدولة و يرغم السلطان على الاتفاق معه على حسب شروطه الخاصة . كل ذلك على مرأى من الدول وضد رغباتها الأكيدة.



خطة محمد على الأولى :

ولما انتهى محمد على من حروبه فى بلاد العرب والسودان والمورة ظافرا كان اسمه قد طبق الآفاق وصار ذكر منجد مكة والمدينة على لسان كل المسلمين، وأصبح محمد على فى مركز يمكنه من معارضة السلطان اذا شاء ذلك ولكن محمد على كان له من النظر السياسى الصائب ماجعله يحافظ على علاقته بالدولة العثمانية ، ألم يكن له من ذلك ضمان صيانة أملاكه التى لم تكن الا جزءا من الدولة العثمانية المقول بضرورة حفظ كيانها واستقلالها ؟ ولقد وجد محمد على من مركزه فى الدولة حصنا منيعا مكنه من مواصلة سياسته التى كانت أبدا ترمى الى علو منزلته وامتداد نفوذه فى الدولة تحت ثوب اخلاصه الشفاف .

ولما انتهت الحرب اليونانية وانسحبت الجنود المصرية من "المورة" وتمكنت أوربا من تنفيذ كلمتها فى مصلحة اليونان ساء السلطان من محمد على عدم مساعدته للدولة فى حربها ضد الدول واكتفاؤه عند نشوب الحرب الروسية التركية بارسال اعانة مالية بدل حملة عسكرية ، لذلك اشتد حنق السلطان على محمد على واضطرمت فى صدره نيران الحسد لما ظهر به محمد

على من القوة ، وأخذ يوقع بين محمد على وابنـه ابراهيم ، ولم يكافئ محمد على على خدماته بشيء ممـا وعد به الا حكم جزيرة "كريد" . ومن مظاهر العداء أن السلطان أشار على محمد على فى سنة ١٨٣٠ أن يترك الاسكندرية ودمياط ورشيد ليتسلم حكمها قبطان باشا ، ومن مظاهره أيضا أن عين السلطان خسرو باشا صـدرا أعظم رغم العداء المستحكم بين خسرو ومحمد على[١] كل ذلك أوغر صـدر محمد على ضد الباب العالى وجعله يفكر فى مشروعات كلها طمع وأنانية .

مراجعة محمد على لخطته :

وأخذ محمد على يراجع خطته السياسـية نحـو الباب العالى ؛ فبينما كان الباب العالى يواصـل الحرب ضد الروسيا كان محمد على يعد العدة لأجل ما عسى أن يحصـل فى المستقبل ، فلما عادت الحملة من "المورة" واستقرت الجنـود بمصر شرع ابراهيم باشا يهيء عقول الضباط لاستقبال السياسـة الجديدة ضـد الباب العالى . فقـد قال فى خطبة له أثناء وليمة للضباط :

" ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان ؟ ألسنا فى الحقيقـة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنـا ! ألم نأكل جميعا من خبزه ؟ إن مصر حق لمحمد على، حق اكتسبه بالسيف ولا تعرف لنا ملكا غيره"[٢] . وفى تلك الأيام زار مصر " الأمير بشـير الشهابى " حاكم لبنـان ونزل ضيفا مكرما عند الباشا ولابد أن يكون قـد دار بين الاثنين اتفاقات ودية ، ويظهر أن محمد على كان يتأهب للتحفز اذا حدث ما يبرر هذا العمل .

---

(١) راجع "المقتطف" مايو سنة ١٩٢٥ وما بعده " مقالات الدكتور اسد رستم" .

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من قنصل انجلترا العام ٨ يناير سنة ١٨٣٢

خلق السلطان محمود الثانى :

أما لدى الباب العالى فلم تكن دلائل الشقاق والاستعداد أقل منها عند الباشا . وقد ساعد على اذكاء نار الخلاف ما كان فى خلق السلطان محمود الثانى من الشذوذ . فقد كان محمود الثانى سلطانا مستبدا سريع الانفعال ، تارة شديد البطش ، وأخرى شديد الكآبة والحزن ، يقابل تذبذبه بين القسوة واللين عناد شديد يتولاه فى ظروف معينة . وكان يعهد بحكومته الى أتباعه الذين يشملهم باحسانه فكان يولى و يعزل و يسجن كما شاءت تقلبات أهوائه . ومع ذلك كان محمود الثانى حقيقا سلطانا قويا يريد لأمته كل خير وصلاح ، ولكن لسوء حظه لم يسلك الطرق المناسبة التى توصله الى أغراضه إذ اتبع طرقا قهرية همجية خالية مما يحبذها و يقربها لدى الشعب . لذلك لم يصادف محمود الثانى فى أكثر اصلاحاته الا المعارضة الشديدة والاخفاق ، فكان محمود الثانى يتأكل قلبه حسدا من محمد على لأن هذا نجح حيث أخفق هو . ومن شدة حسده لمحمد على أن دعاه لحرب الوهابيين ، ثم لحرب المورة لعله بذلك يفنى جزءا كبيرا من قوته وثروته ، ولكن للدهر سخرية غريبة فبدل الضعف الذى كان يرجوه السلطان لمحمد على من جراء الحروب الطاحنة التى اشتبك فيها ناله منها الفخار والصيت الذائع ، ولم يجن السلطان منها الا الخسارة والذلة ، لذلك أصبح محمود الثانى وقلبه مفعم بالضغينة يحب الانتقام من محمد على .

بين محمد على ووالى عكا وفكرة ضم الشام لمصر :

فلما قام النزاع بين عبد الله باشا والى عكا ومحمد على بسبب عدم اذعان الأول لأوامر الباشا ، اذ رفض أن يصدر اليه الأخشاب اللازمة لأسطوله وأن يعيد اليه بعض المصريين الفارين من القرعة العسكرية والضرائب ، اشتكى عبد الله الى الباب العالى فعضد السلطان الوالى وشجعه

على معارضة رغبات الباشا ، فعزم محمد على على أن يتخذ من هذا التحرش سببا لتنفيذ مشروعه . أراد محمد على كغيره من كبار الفاتحين أن يوسع رقعة ملكه على حساب جيرانه الضعفاء ، وكان يرى فى بلاد سوريا جزءا متمما لمصر وبدونه لا تأمن مصر من غائلة العدو المهاجم من الشرق ، ورأى الباشا أن مصر بلد عديمة الغابات تلزمها الأخشاب من أحراش سوريا للوقود ولبناء أسطولها التجارى الحربى ، كما أنها فى حاجة لما تنتجه سوريا من ثروة معدنية وزيوت وحرائر وجلود وأحجار مما كانت تحتاجه معامل محمد على . وكان قد أفهمه مستشاروه من الفرنسيين — وهم الاخصائيون فى مسائل الحدود — أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق هى جبال " طوروس " على أبواب آسيا الصغرى لا صحراء العرب . وفى الحقيقة لم تعدم الحكومات القوية التى استولت على مصر طريقة لضم الشام الى أملاكها . وليس هناك أدنى شك فى أن محمد على كان مقتنعا بصحة دعاوى القائلين بضم جميع بلاد سوريا ، غير أنه كان فى بادئ الأمر متواضعا فى طلبه فلم يصمم الا على ولاية عكا [١] .

وانتهز الباشا فرصة اشتباك السلطان فى ثورة قامت فى " البوسنة " فقدم انذارا نهائيا للباب العالى يهدد فيه عبد الله والى " عكا " بالعقاب و باستعمال القوة ضده اذا لم يذعن لطلباته ، وخاف السلطان مغبة هذا الانذار بسبب قيام الثورات الداخلية فى بلاده ففتح بابا للاتفاق مع محمد على ، ولكن ما كاد يرسل الباب العالى رسله اليه حتى بلغته أخبار نزول حملة ابراهيم باشا الى الشام وكانت قد أخمدت الثورة فى " البوسنة " فلم يجد الباب العالى بأسا من تحدى محمد على ومنازلته .

قيام الحملة :

وفى ١٤ أكتوبرسنة ١٨٣١ قامت طلائع الحملة من مصر بطريق " العريش " ، وفى ٨ نوفمبر احتل الأسطول وعلى رأسه القائد العام ابراهيم باشا

(١) راجع مقدمة كتاب " نظرة عامة فى مصر " لكلوت بك .

ميناء " يافا " وفى ٩ ديسمبر بدئ حصر " عكا " وفى هـذه الأثناء كان قد وصل مندوب من قبل السلطان إلى الاسكندرية وهناك أوضح له محمد على خطته بكل صراحة ، قال محمد على : " بعـد أيام قلائل ستقع "عكا" فى يدى فاذا رضى السلطان وقفت عند هذا الحد ، واذا لم يوافق زحفت جنودى على " دمشق " فاذا وافق السلطـان على أن أضم دمشق وقفت عند ذلك وان لم يرض أخذت "حلب" فاذا لم يوافق السلطان فمن يدرى ماذا يكون ؟ " فعرف المنـدوب اصرار محمـد على وفهم استعداده لتنفيذ أغراضه للنهاية فنصح للباب العالى بالاذعان لطلب محمد على ، وكان جزاء صراحته أن سحب من اسكندرية وسجن ، وأخذ السلطان يعد جيوشه بكل همة لمزاولة حرب لم يكن لها على استعداد .

سقوط عكا وأثره :

ولكن قبـل أن يتأهب الجيش التركى للعمل بقيادة حسين باشا الذى عينه السلطان قائدا للجيش وواليا على مصر بدل محمد على ، كان قـد سقط حصن عكا فى ٢٧ مايو سـنة ١٨٣٢ فى أيدى المصريين بعد حصار طال ستة شهور تقريبا ، واذا ذكرنا أن نابليون تقهقر أمام حصن عكا أدركنا أهمية هذا الانتصار لابراهيم باشا ، ولكن يجب أن نذكر أيضا أنه لم يكن هنـالك أسطول معاد يعمل ضد ابراهيم فى ميناء " عكا " كما كان يعمل " سدنى سمث " ضد نابليون .

سير الحملة :

وكان لسقوط عكا وانتصار محمد على دوى نبه العقول من غفوتها فقام النـاس ضد العثمانيين مرحبين بالجيوش المصرية أينمـا حلت ، وتشجع الأمير " بشير " فأعلن صراحة انضمام أهل الجبل لمحمد على ، وأتى الناس من كل فج يعلنون قبولهم للحكم المصرى ، وبينما كان ابراهيم يحاصر "عكا"

كانت قد استولت الجنود المصرية على " بيت المقدس " " وطرابلس " " وبيروت " ولما سقطت " عكا " أرسل محمد على مندوبا للمفاوضة مع الباب العالى بشأن شروط الصلح طالبا " فرمانا " بتوليته "سوريا" .

خطة الباب العالى وانهزام جيوشه :

وكان السلطان فى ذلك الوقت قد أرسل قرارا بعزل محمد على من مصر وابنه من مكة وقرارا آخر بطردهما خارج القانون ، فلما علم محمد على بذلك أرسل من قبله واليا على دمشق ودخلها ابراهيم باشا بلا مقاومة ثم اقترب من "حمص" وهزم الأتراك شر هزيمة ، ودخل " حماة " وتقهقرت جيوش السلطان الى " أنطاكية " ولما اقترب حسين باشا القائد العام من حلب وصدت فى وجهه الأبواب ورحل الى الاسكندرونة فدخل ابراهيم باشا حلب فى ١٥ يوليه بدون مقاومة وتقابل هو وجيوش حسين باشا فى مضيق " بيلان " بين أنطاكية واسكندرونة فانهزم حسين باشا وترك جيوشه ومؤنته وكل شيء وفر الى " اطنة " أو " اذنة " أما ابراهيم فدخل أنطاكية فى أول أغسطس. ثم فتح محمد على باب المفاوضة للصلح ولما لم يصله الرد عزم على أن يسير نحو القسطنطينية بعد أن يتمكن ابراهيم من الاستيلاء على مفاتيح جبال الطوروس التى تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى[١] .

ويظهر أنه كان فى نية محمد على الأولى أن يقف عند هذا الحد. ولكن لما تكرر رفض السلطان لشروط محمد على التى كان يقدمها عقب كل انتصار اضطر ابراهيم الى أن يعبر الجبال وينزل فى سهول آسيا الصغرى واحتلت الجنود المصرية أقليم " اطنة " على الساحل بناء على أوامر محمد على .

انحياز الرأى العام الى ابراهيم :

ولما شعر القوم بوجود قوات محمد على بينهم انبعثت فى قلوبهم الحماسة العظيمة وانهالت على ابراهيم رسائل الترحيب وطلبات التخليص من نير

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من المعتمد "باركر" الى "بالمرستون" فى ٨ يونيه سنة ١٨٣٢

الأتراك . فكتب سكان اقليم "قسطموني" الكائن في الركن الشمالي لآسيا الصغرى يقولون : "نحن سكان هذا القسم قد قررنا أن نهجر حزب الحكومة التركية التي عجزت عن صيانتنا والدفاع عنا ، ولما كنا نرغب في أن نتمتع بالسعادة والسكون الشاملين للأقسام التي خلعت نير الحكومة ودخلت تحت حكمكم فنلتمس أن تقبلوا خضوعنا وأن تشملونا بحمايتكم ورعايتكم" .

موقعة قونية :

فتشجع ابراهيم باشا بهذا الشعور الذي ظهر من جانب الأهالي وجاءه المدد من مصر فتقدم الى الداخل واحتل موقعا حربيا في غاية من المنعة عند "قونية" وكان قد هجرها الأتراك عند سماعهم بقدوم ابراهيم باشا فقضى ابراهيم فصل الشتاء يدرب جنوده في الجهات المجاورة استعدادا لمقابلة الجيش العثماني الجديد بقيادة رشيد باشا زميل ابراهيم في حصار "مسولنجي" في حرب المورة .

وكان رشيد بك قد أخضع العصاة في ألبانيا والبوسنة فكسب بذلك رضا السلطان الذي علق على تعيينه للقيادة أهمية عظمى . وفي ٢١ نوفمبر سنة ١٨٣٢ دارت رحى القتال عند "قونية" وهزم الجيش العثماني شر هزيمة وأسر القائد العام . وقد كانت خطته في أول الأمر أن يتحصن في نقطة معينة ليحول دون وصول ابراهيم باشا قرب القسطنطينية وعند هذه النقطة ينتظر المهاجم ، ولكن السلطان أرسل اليه أوامره بالتحرك لمقابلة المصريين وكان عدد الجيش العثماني ضعف عدد الجيش المصري فكانت النتيجة وبالا على الجيش والسلطان اذ أصبح الطريق الى القسطنطينية أمام قوات محمد علي .

المسألة الشرقية والدول :

كان أثر انتصارات ابراهيم باشا السريعة المتوالية أن أثارت مخاوف السلطان محمود ، ولما لم يكن هناك ولاة يرجى منهم المساعدة ضد محمد على اجتهد السلطان بمساعى وزيره خسرو باشا أن يكسب دول أوربا الى جانبه وذلك بأن يشوه سمعة محمد على لدى الدول ، ولم تكن دول أوربا تعلم عنه الا قليلا ، ولو أن ساسة أوربا لم تنس حماسة المصريين وهم يحاربون فى المورة ، أما " بالمرستون " وزير خارجية انجلترا فانه لم ينس قط أن المصريين أخذوا معهم الى مصر ٣٠٠٠ من الرقيق اليونانى بصفة أسرى .

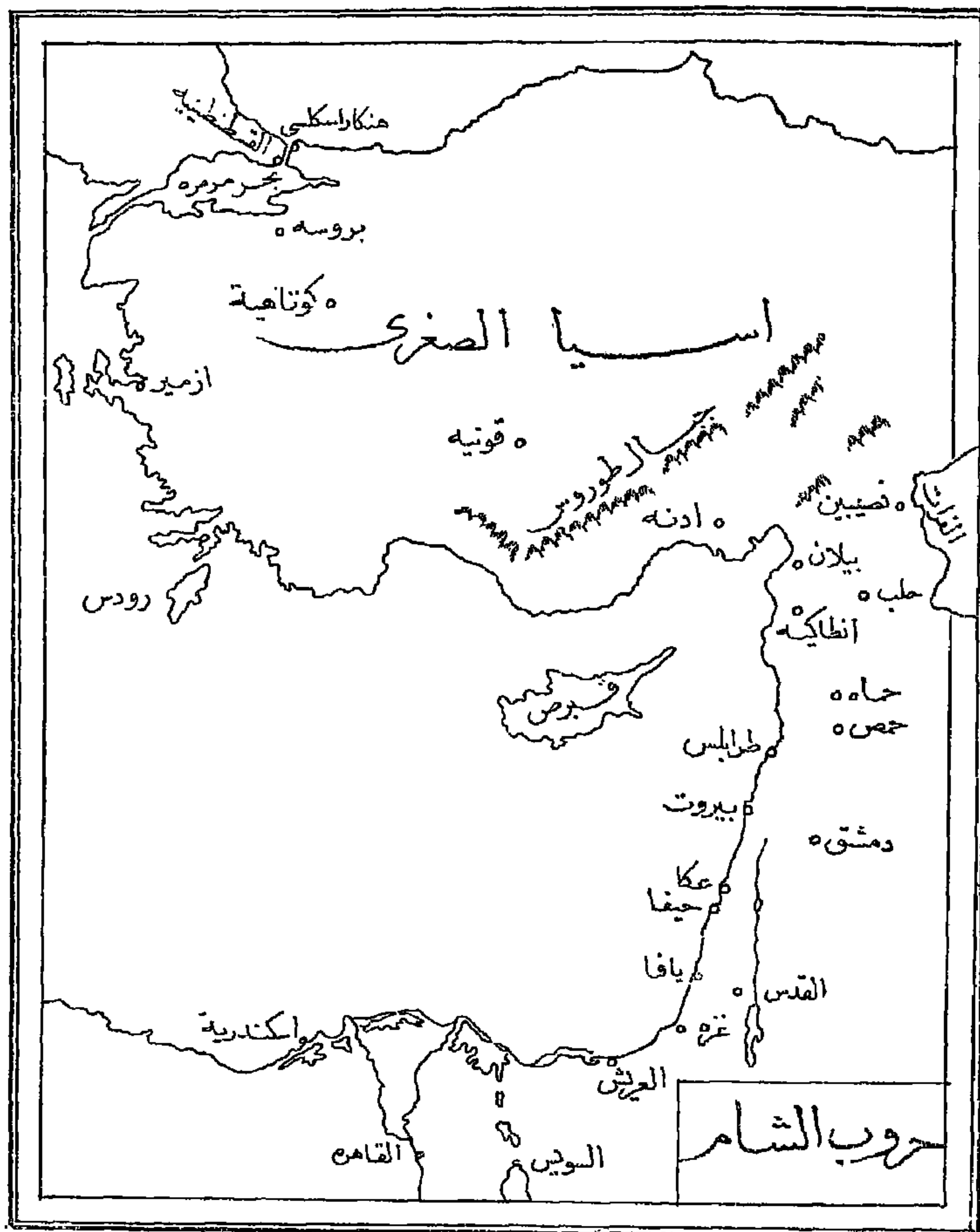
غير أن الدول مع شدة رغبتها فى حفظ كيان الدولة العلية ومساعدة السلطان لم يكن وقتئذ متفرغة للنظر فى مشاكل الدولة ، فكانت مسألة ثورة الأراضى المنخفضة وثورة بولندة وحروب اسبانيا الداخلية والاصلاحات النيابية فى انجلترا تشغل بال ساسة أوربا .

طلب المساعدة من انجلترا أولا :

وكان الباب العالى قد طلب الى سفير انجلترا السير "استراتفورد كاننج Stratford Canning" عقد محالفة بين تركيا و بريطانيا العظمى الغرض المباشر منها اخضاع محمد على ، ووعد الباب العالى أن يمنح انجلترا أى امتيازات معقولة مقابل ذلك (١) وأردف الباب العالى ذلك بأن أرسل سفيره فى النمسا ليفاوض انجلترا خاصة فى ارسال مدد بحرى تقوم تركيا بنفقاته ولو كانت انجلترا أجابت الطلب لحال المدد البحرى دون استيلاء ابراهيم باشا على "عكا" بسهولة ولعرقل مساعى محمد على بالشام ، غير أن الوزارة البريطانية

---

(١) سجلات وزارة الخارجية تركيا (سرى وخاص) : من السير "استراتفورد كاننج" فى ٩ أغسطس سنة ١٨٣٢



هنكاراسكلسى
بحر مرمره
بروسه
كوتاهية
اسيا الصغرى
ازمير
قونيه
طوروس
ادنه
نصيبين
بيلان
حلب
رودس
انطاكيه
قبرص
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
حيفا
يافا
القدس
غزه
اسكندرية
العريش
السويس
القاهره
حروب الشام

قررت رفض ارسال المـــدد مخالفة فى ذلك رغبة الوزير " بالمرستون "
واضطرت الوزارة أن تعلن فيما بعد فى مجلس العموم أنه لم يكن من المستطاع
فى حين اشتغال القوات الانجليزية فى هولنـدة والبرتغال ارسال قوة بحرية
تناسب مركز بريطانيا البحرى [١] .

ورد الوكيل السياسى لدولة بريطانيا أمام الاستانة قائلا : " ان المسألة
أصعب مما يتصوره الباب العالى وأن الحكومة البريطانية ستحتاج الى وقت
تجيب فيه ، ولكنها فى الوقت نفسه سترسل الى محمد على فى أقرب فرصة
معــبرة عن الأسف الذى سببته خطته وعلى أملها فى أن يعقــد الصلح مع
السلطان مباشرة ، وأن الحكومة أرسلت معتمدا سياسيا "كولونيل
كامبل" لأجل التشـــديد على محمد على بعقد الصلح وتفهيمه بأن العبث
بوحدة الدولة العثمانية لا يمكن أن يحدث بدون أن تتحرك انجلترا[٢] .

طلب المساعدة من روسيا :

ففت فى ساعد السلطان وزاد يأسه لما علم بتهديد ابراهيم للقسطنطينية
واضطر أخيرا الى أن يتنزل فيرسل فى طلب الصلح من محمد على ، و ياليت
الأمر وقف عند ذلك بل طلب المعونة من الروسيا بعد أن أخفقت مساعى
الباب العالى لدى انجلترا التى زودته بالقول دون العمل .

أما الروسيا فوجدت فى المحنة التى وقع فيها السلطان فرصة لتأييد نفوذها
ووضع حمـايتها الأدبيـة على البوغازات كذلك لم يكن من مصلحة
الروســيا أن ينتصر محمد على و يتفوق على السلطـان فتنشأ حينئــذ
حكومة قوية فى القسطنطينية تحول دون بلوغ الروسيا لأمانيها ، فقد كتب
" نسلرود " وزير الروسيا الى سفيره فى الاستانة يقول : "اذا انتصر محمد

---

(١) حياة بالمرستون : الجزء الثانى ص ٣٥٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية : الى "مندفيل" فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٣٢

على فان النفوذ الفرنسى يزداد فى القسطنطينية فتصبح هـذه المدينة مأوى للذين يتآمرون ضـد حكومة الروسيا ، لذلك ترى الروسيا فى محمد على جارا قويا ظافرا بدلا من جار ضعيف مقهور [١] .

حضور المندوب الروسى :

وعلى ذلك أوفدت الى القسطنطينيـة فى ٢٢ ديسمـبر مندوبا خاصا وهو القائد " موراڤيف Muravieff " فعرض على الباب العالى المساعدة الفعلية ضـد محمد على وفى ١١ يناير وصل المندوب الى الاسكندرية ليهدد محمد على باسم القيصر نيقولا بالويل والثبور وعظـائم الأمور اذا لم يقبل شروط الصلح المقدمة من لدن السلطان بوساطة المندوب خليل باشا الذى أوفده السلطان فى ٧ يناير لمفاوضة الباشا ، فوجل محمد على من تدخل الروسيا ويقول " سنت جون " وهو شاهـد عيان أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ من المصريين لحضور صلاة جامعة أمام قصره داعين الله بنصر الباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين [٢] .

وقوف ابراهيم عنـد كوتاهية ونزول المـدد الروسى بالبسفور :

غير أن محمد على كان على علم تام بمجرى السياسة فى أوربا فلم يتزعزع أمام تهـديد الروسيا ، ولمـا عرض خليل باشا شروط الصلح رفضهـا باحترام وأدب ، ولكن لكى يرضى الروسيا أرسل الى ابراهيم يأمره بالوقوف وهو فى طريقه الى " بروسه " فوقف عند " كوتاهية " بعد أن رفض الوقوف بنـاء على رغبة " دى فارن De Varennes " المعتمد السيـاسى لفرنسا بالقسطنطينية قائلا أنه لا يقف ولا يتحرك إلا على حسب أوامر ورغبات

---

(١) البسفور والدردنيل لغريانوف : ص ٣٠

(٢) مصر ومحمد على لسنت جون : الجزء الثانى ص ٥٢٤

أبيه ، وعندئذ كان السلطان قد طلب إلى الروسيا إرسال المدد خوفا على عرشه أن يسقط من جراء الفتن الداخلية التى كان يؤجج نارها محمد على باشا فلبت الروسيا طلبه،وفى ٢٠ فبراير رست القوة البحرية الروسية فى "البسفور" أمام "ترابيا" حيث دار السفار الانجليزية ، فاشتد قلق انجلترا وفرنسا من تدخل الروسيا الفعلى وانفرادها بالعمل ، وسارع سفير فرنسا الجديد أمير البحر البارون "روسين Roussin" الى الاحتجاج أمام الباب العالى ونصح لوزير الخارجية بأن يجيب طلبات محمد على فى الحال حتى لا يعرض المملكة للخطر الذى لابد أن ينجم من وجود الجنود الروسية بين الأهالى .

خطة الدول :

وكانت الدول فى هـذه الآونة ترقب الأحوال وهى صامتة أثناء عراك محمد على والسلطان فلم تحرك قيد أنملة لايقاف الحرب، ولكن لما كسب محمد على الواقعـة بدأت الدول تتململ حتى اذا ما ظهرت الروسيا بمفردها فى الميدان أوجس باقى الدول خيفة وبدأ الساسة يتكلمون.وأنه من السهل تلخيص سياسة الدول إزاء المسألة الشرقية .

كانت الدول تعتبر المحافظة على كيان الدولة ضرورة سياسية لازمة لتأييد السلم العام فى أوربا . ولما كان تهديد ابراهيم للقسطنطينية يعد عبثا بكيان الدولة وجب على الدول التدخل ، ولكن حال دون ذلك موانع : (أولها) اشتغالها بأحوالها الداخلية كما ذكرنا ، (ثانيها) انتصارات محمد على السريعة التى لم تكن فى الحسبان ، وثالثها أن الدول كانت تميل الى جعل النزاع بين محمد على والسلطان مسألة داخلية لا ينبغى أن تعقدها الدول بتدخلها .

غير أن رسالة القائد "مورافيف" وقبول السلطان لمساعدة الروسيا أثارا الشكوك فى قلوب الدول الأخرى ، حتى "مترنخ" نفسه — على الرغم من تفاهم القيصر معـه — لم يوافق على وجود الأسطول الروسى بالبسفور . أما انجلترا وفرنسا اللتان كانتا فى حالة اتفاق ودى فانهما نظرتا الى الحالة

السياسية بعين الاهتمام العظيم وكانت سياسة انجلترا التقليدية ترمى الى التمسك بالمحافظة على الدولة العثمانيـة ، أما فرنسا فكانت لها سياسة مزدوجة ترمى الى نصرة الدولة العثمانيـة من جهة والى تقوية حكومة مصر الناهضة من جهة أخرى . غير أنه بسبب تدخل الروسـيا بمفردها فى المسألة انضمت انجلترا الى جانب فرنسا نصيرة محمد على وأصبح لفرنسا الشأن الأول أمام " الرئيس افندى " وزير الخارجية العثمانية ولعب "دى فارن" وأمير البحر " البارون روسين " دورا هاما فى المخابرات التى جرت بين الباب العالى من جهة ومحمد على وابراهيم من جهة أخرى .

ارسال معتمدين سياسيين لمحمد على :

أما انجلترا فانها سارت وفق فرنسا فى جميع أدوار هـذه المسألة و زادت بأن أرسلت سفيرا ممتازا أمام الباب العالى وهو اللورد" بنسنبي Ponsonby" ولمـا رأت ما وصل اليه اسم محمد على وحكومته من الصيت بادرت فأرسلت الى مصر معتمدا سياسيا فى شخص الكولونيل" كامبل Campbell" ليؤكد لمحمد على ما يشعر به جلالة الملك نحو سموه من الاحترام والاعتبـار الشخصى و يسـاعد فى توثيق الروابط الودية التى تربط البلدين . كذلك أرسل "مترنخ" الكولونيل "بروكش ڤن استن Prokesch Von Osten" ليعبر عن اعجاب الامبراطور بتفوق عقلية محمد على و يقوى العلاقات التجارية والودية بين البلدين [١] .

ويظهر أن الباب العـالى بتسويده صحيفة البـاشا أمام الدول ومداومة الشكوى من نمو قوته قد قدم لمحمد على أجل خدمة ، إذ بذلك جذب عقول الدول نحو محمد على رمز القوة الناهضة الزاحفـة ، والقوة فى عرف الدول مستودع جميع الفضائل .

---

(١) مصر ومحمد على لسنت جون : ص ٥٣٢

و بينما كان محمـد على يستقبل الوفود ومعتمدى الدول ومندوبيها الذين ساقهم حب الاستطلاع الى مصر حيث الرجل العصامى العبقرى الذى كاد يقيم فى الشرق ما رسمه نابليون فى مخيلته سنة ١٧٩٨ ، كانت المفاوضات تدور بنوع من القلق والشدة بين الباب العالى وسفراء الدول بشأن الشروط التى يجب التسليم بهـا حتى تزول أشد أزمة وقع فيهـا السلطان ، وكان "البارون روسين" المعين حديثا سفيرا لفرنسا لدى الباب العالى قطب هذه المفاوضات من يوم نزوله بالسفارة .

البارون روسين سفير فرنسا :

كان البارون روسين رجلا مستقل الرأى صريحا معجبا بنفسه ومقدرته ولكن لقلة تدريبه فى أعمال السياسة كانت تعوزه الحنكة السياسية والنظر الصحيح ، وكانت فكرته الأساسية فى المسألة الشرقية محاربة مطامع الروسيا فى القسطنطينية فى كل وقت ، ولذلك كان ظهور القوة الروسـية أمام البسفور فى نظر "روسين" بمثابة اعلان للحرب على فرنسا ، فكان من المحتم عليـه مع مؤازرة انجلترا له ازالة كل ما يمكن حدوثه من النتائج السيئة من جراء وجود الاسطول الروسى ، غير أنه فى بدء عمله تسرع ولم يسدد خطاه فبدأ بأن تعهد لدى الحكومة العثمانية بأن يقبل محمد على شروط الصلح التى قدمها الباب العالى بواسطة خليل باشا التى بمقتضاها نزل السلطان لمحمدعلى عن أربعة أقسام فى سوريا وهى صيدا وطرابلس ونابلس و بيت المقدس ، وفى مقابل هذا يتعهد الباب العالى برفض المساعدات الأجنبية [١] واتبع ذلك بأن كتب الى محمد على تبريرا لتعهده كتابا جافا هو بمثابة تهديد بالحرب قال فيه :

" إن اصرارك على طلباتك وادعاءاتك التى أعلنتها ستجر على رأسك عواقب وخيمة أرجو أن يردعك الخوف منهـا . ان فرنسـا ستتمسك

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من مندفيل ٢١ فبراير سنة ١٨٣٢

بالتعهدات التى أبرمتها وأن لها القوة وأنا ضمين صدق إرادتها . وإنى لأرجو أنك لا تضطرنا الى الالتجاء الى الضرورة القاسية باستعمال القوة ضد مملكة نحن من مشيديها وضد عظمة وانتصار نحن من أخلص المعجبين بهما " . وزيادة على ذلك فقد كلف " ياوره " الحامل لكتابه أن يهدد محمد على شفاهيا بأنه اذا رفض الشروط فان انجلترا وفرنسا تشتركان فى ضرب الاسكندرية . وقد أرسل كتابا بهذا المعنى الى ابراهيم باشا غير أن الحكومة المصرية قابلت الرسالتين بما يستحقانه من السخرية ، فان محمد على قد صمم على أن يمد نفوذه الى سوريا جميعها والى " اطنة" فى آسيا الصغرى. وكان محمد على عالما بأن له من القوة ما يمكنه من تنفيذ أغراضه فى أقاليم تحتلها جنوده ، زد على ذلك أنه كان يعلم علم اليقين بأن اقترابه من القسطنطينية لابد أن يحدث حربا أوربية عامة ، من أجل ذلك تذرع محمد على بالثبات وتمسك بمطالبه الى النهاية ، أما عن رسالة " البارون روسين " فان قنصل فرنسا باسكندرية ومسيو " بوالكمت " المندوب الخاص من قبل فرنسا قد خففا من وطأتها وكتب محمد على الى البارون يرفض شروط السلطان رفضا جميلا بقوله : "اسمح لى ياسيدى السفير أن أسألك بأى حق تدعوننى لأن أضحى نفسى ، ان الشعب معى وما على إلا أن أرفع أصبعى فأثير الثورات فى " الروملى " و " الأناضول " وما دام الشعب معى ففى مقدورى أن أعمل كل شىء ، وأن دعوتك لى بأن أتخلى عن الأقاليم التى أحتلها هى بمثابة الحكم على بالاعدام السياسى ، غير أنى واثق أن فرنسا وانجلترا لا يخلان بالانصاف " وختم محمد على خطابه بعزمه على التمسك بمطالبه (١) .

(١) مذكرات جيزو : الجزء الرابع ص ٤٦

مساعى الصلح :

ولأجل أن يتبع القول بالعمل أرسل محمد على فصائل من الجند الى سوريا وأمر ابراهيم بالزحف على القسطنطينية اذا لم يقبل الباب العالى شروطه بعد مرور خمسة أيام من وصول خليل باشا الحامل لشروط محمد على ، وأمره بمواصلة الزحف حتى تجاب طلباته [١] .

فلما وصلت الأخبار الى القسطنطينية زاد رعب السلطان ، وكتب الباب العالى يطلب الى سفير روسيا الاسراع باحضار القسم الثانى من المدد الروسى ، فوقع الخبر على " روسين " وقعا أليما أعاد إليه رشده السياسى فعرف حقيقة الحالة وأنه لا يمكن أن يغادر الروس البسفور بمجرد انسحابه من القسطنطينية أو بضرب سواحل الاسكندرية ، وعرف أنه إذا ما تم الصلح بين السلطان والباشا فان الروسيا لايمكنها أن تبرر وجودها على سواحل البسفور وتضطر حينئذ إلى الجلاء ، لذلك عمد " روسين " ومعتمدو الدول السياسيون إلى نصح الباب العالى باجابة طلبات محمد على وبعد مفاوضات دارت بشأن استئناف القتال ، وجد الباب العالى أن لا فائدة البتة من حرب قد تجر معها الانهزام وخسارة كل شىء ، فقرروا أن يذهب المسيو " دى ڤارن " وكيل فرنسا السياسى الى " كوتاهية " قاعدة ابراهيم الحربية ويعرض عليه شروط السلطان القاضية بمنحه جميع سوريا ، ويفهمه بأن رفضه لهذه الشروط مما يغضب فرنسا كثيرا [٢] .

فسافر " دى فارن " فى ٢٠ مارس ولما عرضت الشروط على ابراهيم باشا طلب اضافة " ديار بكر " و " ارفا " وميناء واحدة على الأقل فى إقليم " اطنة " فرجع " دى فارن " فى ١٥ أبريل سنة ١٨٣٣ وقال ان ابراهيم لم يسعه الا الاذعان لنصيحة انجلترا وفرنسا وأنه متأكد من أن الباب العالى

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : رسالة نمرة ٦٠ فى ٢٧ مارس سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من مندوفيل ٣١ مارس سنة ١٩٣٣

لا يضن عليه باقليم " اطنة " وأنه قد أصدر أوامره بالجلاء من وراء جبال الطوروس على الرغم من أوامر والده الصريحة بعدم الجلاء مالم تجب مطالبه (١) .

حرج مركز السلطان وصلح كوتاهية :

ولكن لما علم بأن الباب العالى لم يتنزل عن " اطنه " بعد أن وافق على ذلك مبدئيا أوقف حركة الجلاء وانتظر سير الحوادث . وأخيرا عجل السلطان بتسوية المسألة على الرغم من حضور قسم ثالث من المدد الروسى وذلك لأن الأحوال الداخلية فى الدولة كانت فى حالة مزعجة : فان ابراهيم باشا كان يحتل جزءا كبيرا من " الأناضول " فأصبحت القسطنطينية مهددة بالمجاعة فى أى وقت ، وقد زاد فى ارتباك الحالة الاقتصادية وجود المدد الروسى الذى أصبح عدده أكثر من ٣٠,٠٠٠ ، زد على ذلك الاضطراب السياسى الكامن الذى سببه استعانة السلطان بعدو الأتراك القديم ، هذا إلى أن ضغط سفراء فرنسا وانجلترا قد جعل السلطان يجيب ابراهيم باشا الى مطالبه وذلك بأن عينه محصلا لاقليم "اطنة" وكانت قد نشرت الجريدة الرسمية الأقسام الأخرى التى عين عليها محمد على واليا فتم الصلح بذلك بين محمد على والسلطان ، ويعرف هذا الصلح باتفاق "كوتاهية" وفى ١٦ مايو سنة ١٨٣٣ دوت مدافع حصون الاسكندرية بمائة طلقة إعلانا بعقد الصلح بين الباشا والسلطان .



نتيجة الصلح وتفوق روسيا :

غير أنه ما كاد يتم هذا الصلح حتى أوقد شرارة كادت تضرم نار حرب دولية . وذلك أن السلطان محمود تعلم من تجاريبه الحديثة درسا جديدا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : رسالة نمرة ٧٠

وهو أنه لما اشتدت الأزمة وانهزمت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه يطلب المساعدة الفعلية فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا إخلاصهم له إلا بالكلام والقول الجميل . أما الروسيا فلما وجه اليها الطلب أجابته على الفور بالجيوش والأساطيل ، من ذلك عرف السلطان الناحية التى يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب المساعدة .

وفى يوم ٦ مايو عقب تسوية صلح كوتاهية أرسل القيصر سفيرا فوق العادة وقائدا عاما للقوات الروسية فى الدولة العلية هو الكونت "أرلوف Orloff" ليحفظ التوازن أمام نفوذ أمير البحر "روسين" الذى جلب على نفسه سخط القيصر نيقولا بسبب سلوكه فى الأزمة الأخيرة.وكان الكونت "أرلوف" من أكثر المقربين للقيصر اخلاصا ، ومهمته الظاهرية مراقبة اخلاء الجنود المصرية لآسيا الصغرى والاطمئنان على سلامة العاصمة ، ولما كان ابراهيم قد بدأ فى الجلاء فعلا عمد الكونت الى الاشتغال بالجزء الهام من مهمته فأخذ يقنع وزراء السلطان بأن لا سلامة للباب العالى إلا بقدر المعونة التى يمكن الروسيا أن تمد بها تركيا، وأخذ يواصل الاجتماع بالوزراء كل يوم حتى كاد يغطى على نفوذ "روسين" و "بنسنبى" وأخيرا فى ١٠ يوليه انسحبت القوات الروسية بعد أن غادرت الجنود المصرية الأراضى العثمانية .

عقد معاهدة هنكار اسكلسى :

غير أنه قبل انسحاب القوات بيومين كان قد تم التوقيع على معاهدة "هنكاراسكلسى" وهى محالفة هجومية دفاعية خاصة بين السلطان والقيصر ، وقد حفظ الباب العالى أمر هذه المعاهدة سرا فلم يبح " الرئيس افندى " بشىء عنها لسفيرى انجلترا وفرنسا ، فأقلق هذا الأمر بال هاتين الدولتين وجعلهما ينظران الى هذه المعاهدة نظر المستريب بعد أن علما بعقد المعاهدة بطريق غير رسمى ، وأهم ما فى هذه المعاهدة شرط سرى فحواه أنه فى مقابل المساعدة الحربية التى يتعهد القيصر بتقديمها للسلطان لا يريد القيصر أن

يطالب السلطان بمساعدة فعلية ، ويكتفى منه باغلاق " البوغازات" عند الحاجة فى وجه السفن الحربية لأية دولة ، وليس فى هذا الشرط شىء يغاير السياسة القديمة التى يتبعها البـاب العالى منذ زمن بعيد وهى إغلاق البوغازات وقت الحرب ، غير أن اللغز هو فى جملة " عند الحاجة " (١) وبدون هذه الجملة لا أهمية للمعاهدة أبدا ، فبفضل هذه الجملة تمكن الروسيا من الدخول الى البحـر الأسود والخروج منـه متى شاءت ويمكنها اذا ما أعلنت الحرب على أية دولة أن تقفل أمامها البوغازات وتصبح بمأمن من أى هجوم بحـرى ، وينتج من ذلك أن تصبح تركيا تحت أمر الروسيا وحارسة للبوغازات حفظا لمصالح الروسيا . وقبول البـاب العالى لمعاهدة مثل هذه برهان على حالة الضعف والاستكانة والخوف الشديد التى وصلت اليها الدولة العثمانية . فلا يستغرب اذن قول محمود الثـانى فى حالة ثورانه الفكرى : "ما ذا يهمنى من أمر الدولة جميعها ، ما أهمية القسطنطينية لى؟ انى أضحى الاثنتين معا للرجل الذى يحمل لى رأس محمد على !" (٢)

احتجاج انجلترا وفرنسا :

أما انجلترا وفرنسا فلم يدهشا لعقد مثل هـذه المحالفة بين الروسيا وتركيا لأن دلائل الأحوال فى الأزمة الأخيرة كانت تشير الى احتمال وقوع شىء مثل هذا ، وكانت نتيجة ظهور هذه المعاهدة أن زادت عرى الوفاق بين الحكومتين توثقا فقدما احتجاجاتهما فى القسطنطينية وسنت بطرسبورج وذكرا فى الاحتجاج المقـدم للكونت " نسلرود " كبير وزراء الروسيا : " ان المعاهدة غيرت علاقات تركيا والروسيا وصبغتها صبغة جديدة لا يسع الحكومتين ازاءها الا أن تضرب عنهـا صفحا وتعمل كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة " .

---

(١) Au besoin

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الرابع ص ٥٠ .

فقال الكونت " نسلرود " فى جوابه : " إن المعاهدة دفاعية محضة ولا يقصد منها إلا المحافظة على كيان تركيا ، أما من جهة تغيير العلاقات بين تركيا وروسيا فان المعاهدة قد استبدلت علاقات مبنية على العداء والريبة بعلاقات غيرها سداها ولحمتها الاخلاص والمودة ، وأن القيصر موطد العزم على التمسك بتعهداته للدولة على حسب المعاهدة فيعمل كما لو لم تعلن تصريحات الحكومتين "(١) .

اتفاق النمسا وروسيا :

أما موقف النمسا فكان فى جانب الاعتدال أثناء هذه الأزمة ، إلا أن " مترنخ " كان لا يميل الى اتفاق المبادئ الحرة بين انجلترا وفرنسا ولذا اتجه نحو " نيقولا " قيصر الروسيا الذى باح له بما فى قلبه نحو الدولة العثمانية وحفظ الحالة السياسية الحاضرة فتشجع " مترنخ " بتفاهمه مع القيصر وأنحى باللائمة على انجلترا وفرنسا وأعلن أنه لو كان موقع النمسا موافقا لما تردد فى تقديم المساعدة للسلطان بنفسه ، غير أن هذا لم يمنع " مترنخ " من أن يلوم القيصر على عقده معاهدة ظاهرها يزيد على نفعها الحقيقى ، وانتظر " مترنخ " فرصة ينسخ فيها المعاهدة بغيرها فجاءت هذه الفرصة عند اجتماعه بالقيصر فى " منشنجراتز " حيث عقد اتفاقا سريا لحفظ كيان الدولة ، وفحوى الاتفاق أن الروسيا والنمسا تتعهدان بمنع محمد على من مد نفوذه الى الولايات الأوربية واذا ما حصل انقلاب فى النظام الحكومى فى القسطنطينية فان الروسيا والنمسا تتفقان سويا على كل نقطة من حيث النظام الجديد(٢) وليس فى هذا الاتفاق شىء يخالف أفكار انجلترا وفرنسا ، ولكن كره القيصر نيقولا للمبادئ الحرة السائدة فى حكومتى الغرب الدستوريتين جعله يعضد هذا الاتفاق مع النمسا سرا من غير أن يعلم به

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (النمسا) "سرى" فى ١٤ يوليه سنة ١٨٣٤

انجلترا وفرنسا فأصبحتا بعد ذلك تسيئان الظن بسياسة القيصر نيقولا وأغراضه ويعدانه أعدى أعدائهما الى أن انثلم الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فانضم نيقولا الى جانب "بالمرستون" .

أمانى القيصر نيقولا :

ومع ذلك فلم يدر فى خلد نيقولا أن يعمل على إسقاط الدولة وقتئذ أو أن يغير فى مركزها السياسى ، بل إن غاية ما كان يريده هو أن تبقى الدولة حافظة لمركزها واقفة ساكنة لا تتقدم ، وعلى القيصر أن يحميها من الحركات الخارجية أو الداخلية التى ربما تثير الدولة من رقادها . وبهذه السياسة الحكيمة الخفية كانت حكومة القيصر تؤمل أن تصبح الدولة العلية تحت سيطرة الروسيا من غير أن تضطر الى فتح أو اعلان حرب ، وعلى الرغم من أن اتفاق "منشنجراتز" قد نسخ معاهدة "هنكار اسكلسى" كانت الدول قد بدأت تتخوف من أن تجد الروسيا مسوغا للدخول اذا فتحت المسألة الشرقية من جديد .

الفصـــل الحادى عشر

اتفاق الدول ضد محمد على

خطب وليم الرابع ملك انجلترا خطبة العرش فى فبراير سنة ١٨٣٤ فقال : "انه منــذ أن عقد الصلح بين السلطان ومحمد على لم يطرأ شىء يعكر صفو السلام ، وأنه يعتقد أن لايحصل شىء من ذلك". ثم قال : "وستكون مهمة حكومتى منع حدوث أى تغيــير فى علاقات الدولة العثمانيــة بدول أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالهـا". أعلنت الحكومة ذلك ليطمئن الذين يخشون على سلامة الدولة العثمانيــة من تدخل روسيا ، غير أن الأحوال فى الشرق كانت تنذر بغير ذلك اذ كان السلم مهددا فى كل ساعة، وذلك لأن محمود الثانى أجبر على الاذعان لمطالب محمد على ، فكان يضمر فى نفسه الانتقام منه وعلى ذلك لم يكن صلح "كوتاهية" فى الحقيقة إلا هدنة مسلحة .

وليس بعجيب أن تكون الحالة كذلك لأن شروط الصلح لم تكن حاسمة للنزاع القـائم بين محمد على والسلطان ، فالشروط مبهمة لا يمكن أن يطمئن لهـا بال أحد ، ولو كانت الدول أعلنت سيادة السلطان على جميع ولاياته وقصرت محمد على على أن يكون حا كما وراثيا على مصر وحا كما مؤقتا على ولايات آسيا مثلا لمـا تزعزع السلام مرة أخرى ولمـا اضطرت الدول الى الوقوع فى أزمة سياسية خطيرة فى سنة ١٨٤٠ ، ولكن الدول راعت فى ذلك الوقت تلافى الخطر الداهم من جراء تدخل الروسيا فضمنت بذلك السلام فى أوربا وتركت الشرق مهددا .

معاكسة انجلترا لروسيا :

نعم كانت فرنسا تود أن تكون العلاقات بين محمد على والسلطان قائمة على أساس متين دائم . ولكن انجلترا لم تنظر الى أبعد من البسفور فقصرت كل جهودها على فصل تركيا من الروسيا ولم يعدم "بالمرستون" وسيلة لاستفزاز روسيا ، فمن ذلك أنه أرسل السير" استراتفورد كاننج" سفيرا أمام حكومة "سنت بطرسبورج" على الرغم من عدم ميل القيصر الى هذا التعيين ، ومن ذلك أيضا أنه أمر سفيره بالقسطنطينية بأن يدعو الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض داخل الدردنيل اذا طلب السلطان المساعدة[١] وعلى العموم أصبحت العلاقات متوترة بين انجلترا والروسيا الى درجة توقع الناس معها الحرب .

قيام سوريا وتحرك الباب العالى :

وفى ذلك الوقت قامت ثورة فى سوريا على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية وجمع السلاح من الأهالى فشغل محمد على وكان السلطان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما قامت الثورة فى مايو سنة ١٨٣٤ فكر السلطان فى إرسال أسطوله لمعاقبة محمد على ، واستطلع رأى انجلترا وفرنسا فى ذلك فكان جوابهما أن عرش الخلافة يصبح فى خطر اذا جازف السلطان بحرب ضد محمد على . ولما أبى محمد على دفع الجزية فى سنة ١٨٣٤ فاتح الباب العالى سفير الروسيا بقصد تطبيق معاهدة "هنكار سكاسى" فتقدم الروسيا المساعدة اللازمة للسلطان ضد الوالى الثائر ، فكان جواب روسيا : "إن الروسيا لا تستطيع ذلك لأن المعاهدة دفاعية محضة ولا يمكن الروسيا تقديم المساعدة مادام الباب العالى هو البادئ بالعدوان وعلى ذلك نصحت له الروسيا بالعدول" [٢]

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من "بالمرستون" الى البحرية ٣٠ يناير سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) ٢٣ أغسطس سنة ١٨٣٤



بالمرستون وزير خارجية انجلترا

اخماد الثورة :

ثم جاء تصريح "بالمرستون" بأنه اذا بدأ السلطان العداء وهزم فى الحرب فان انجلترا وفرنسا لا يمكنهما حمايتــه من محمد على كما فعلتا سابقا[١] وكتب " بالمرستون " إلى البحرية الانجليزية ينبهها الى أن يستعمل القائد العــام لأسطول البحر الأبيض حكمته ونفوذه فى ايقاف الحرب بين الأسطولين العثمانى والمصرى ، واذا لم ينجح فى ذلك فليــذكر أن انجلترا فى حالة صلح مع الجانبين وليلزم الحيــدة التامة فلا يشــترك بأى حال من الأحوال فى الحرب . ولكن ما كادت تصل هذه الرسائل الى المسئولين حتى وصلت الأخبار بأن الثورة هدأت فى الشــام وأن محمد على بفضل مساعدة الأمير بشير وغيره من زعماء الجبل أصبح قابضا على ناصية الحالة فهدأت مخاوف أوربا وزال كل أمل للسلطان فى الانتفاع بمشاغل محمد على .

فلمــا استتب الحال فى ســوريا رجع محمد على ورأى أن يخلص نفســه من سيادة السلطان عليه لمــا رآه من سوء النية ودس الدسائس فى ســوريا فأراد أن يسبر سياسة أوربا بشأن اعلانه الاستقلال ، فكتب سفراء انجلترا وفرنسا والنمســا الى حكوماتهــم بذلك فجاء الرد بالرفض ونصحته انجلترا بالعدول عن تنفيذ مشروعه لأن حالة أوربا السياسية لا يمكن أن تسمح له تحقيق أمنيته[٢] فأرجأ محمد على موضوع الاســتقلال لفرصة أخرى ، وسعت فرنسا فى سنة ١٨٣٦ فى توطيد دعائم الصلح بين الباشــا والسلطان بحل مرضى ولكن حبط مسعاها ، وذلك لأن البــاب العالى كان قد فقد كل ثقة فى فرنسا على أثر احتلالهــا للجزائر وحمايتها لسواحل إفريقية الشمالية وخاصة فى مدة وجود "تيير Thiers " على رأس الوزارة ، فكانت هذه السياسة من جانب فرنسا مدعاة للنفور بين انجلترا وفرنسا ، ولدخول تركيا فى أحضان انجلترا .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من " بالمرستون " فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من " بالمرستون " فى ١ نوفمبر سنة ١٨٣٤

اعتماد تركيا على انجلترا :

وكانت انجلترا تظهر شدة التمسك بمصالح الدولة العلية ولذلك صار لسفيرها فى القسطنطينية اللورد "بنسنبى" الكلمة النافذة لدى الديوان العالى . وكان اللورد "بنسنبى" شديد الكره لروسيا ولكن كرهه لمحمد على كان أشد وأنكى ، إذ كان محمد على فى نظره بثرة فى جسم الدولة تمتص ماء حياتها وعونا لروسيا فى تنفيذ أغراضها من الدولة ، وكان كلما أعان "بنسنبى" عدم ارتياح حكومته من تسوية "كوتاهية" — وهذا بعكس الروسيا التى كانت تشدد دائما فى بقاء الحالة كما هى — زاد اعتماد تركيا على الحكومة الانجليزية التى مافتئت تنصح لها بتنظيم جيشها وأسطولها فعين الباب العالى الضابط البروسى "فون ملتكه Moltke" لاصلاح الجيش وعين ضباطا من الانجليز لإصلاح الأسطول ، وأخذ "بنسنبى" يبث أعوانه فى سوريا للتجسس على قوة محمد على ولتحريك الرأى العام ضده .

بوادر الاستعداد :

كذلك عين السلطان حافظ باشا وهو من المقربين الحربيين حاكما على ما بين النهرين ، والغرض من ذلك تكوين جيش وتدريبه بالأراضى المجاورة ودس الدسائس ضد الحكومة المصرية ، وعلى العموم لم يترك "بنسنبى" ولا الوزير "بالمرستون" فرصة تمر من غير إيذاء محمد على . مثال ذلك أنه فى سنة ١٨٣٨ أرادت انجلترا أن تضرب محمد على فى نقطة حيوية من موارد ثروته وذلك بعقد معاهدة تجارية بينها وبين الباب العالى بمقتضاها زادت ضريبة الواردات الى ٨٪ وحرمت بمقتضاها احتكار التجارة بجميع أصنافها ، وكان يظن أن هذا الشرط يشل حركة محمد على المالية ، ولكن الباشا

لم يتوان قط فى قبول المعاهدة من غير اهتمام ، وصرح " لكامبل " معتمد انجلترا السياسى بمصر بأن المعاهدة ستكون سببا فى زيادة ثروته زيادة تفوق ما كانت تجلبه له محتكراته(١) .

محمد على يحاول كسب رضاء انجلترا :

قبل محمد على المعاهدة التجارية كسبا لرضاء انجلترا لأنه كان شاعرا بعدم صداقتها له ، ولقد اجتهد بكل الطرق الممكنة فى إرضاء حكومة انجلترا لتقلل من حدتها ضده ، فأرسل البعثات الى معاملها ودور صناعتها البحرية ، وساعد مساعدة لا تقدر فى نجاح طريق التجارة بين البحر الأحمر والأبيض ، كذلك اضطر أن يطأطئ رأسه أمام رغبة انجلترا فى احتلال " عدن " سنة ١٨٣٩ وما كان محمد على ليسمح لأية دولة باحتلال هذه الميناء التجارية الحصينة . كل هذا أثر فى سياسة " بالمرستون " بعض التأثير فخفف من غلوائه وأرسل مندوبا برلمانيا وهو الدكتور " بورنج Bowring " ليكتب تقريرا ضافيا عن حالة مصر وإصلاحات محمد على ، ورفض الدخول فى معاهدة هجومية مع الترك ضد محمد على ، وفوق ذلك أعلن استعداده لبقاء شروط " كوتاهية " بأن كلف سفيره " بنسنبى " أن يشدد على السلطان فى تفهيمه " أنه وان كانت انجلترا ترى من المحتم عليها مساعدة الباب العالى ضد أى هجوم من جانب محمد على فان المسألة تتغير اذا بدأ السلطان بالمهاجمة "(٢) .

ولكن بينما كانت علاقات محمد على بالدول آخذة فى التحسين كانت علاقاته بالسلطان لا تبعث على الرضا وحسن التفاهم ، فقد وضع السلطان الانتقام نصب عينيه بعد إهانة " كوتاهية " ولما لم ينجح فى سنة ١٨٣٤

(١) تاريخ حياة بالمرستون : الجزء الثانى ص ٢٥٧

(٢) أوراق برلمانية : من " بالمرستون " فى سنة ١٨٣٩

أجل اليوم لتاريخ آخر ، وقصر همه على ابتزاز الأموال من محمد على بقدر ما يمكن فبلغت الأموال التى سحبها السلطان فى سنة١٨٣٧ أكثر من نصف مليون ريال[١] .

ارتباك محمد على المالى بسبب مركزه السياسى :

كل هـذا زاد فى ارتباك محمد على المالى وكلف الخزينة المصرية فوق طاقتها ، ولو كان هناك فائدة من دوام الصرف لأجاب محمد على طلبات السلطان من غير تململ ، ولكن الدلائل كانت تنبئ بوقوع الحرب لا محالة . وكانت عيون محمد على تعلمه بكل ما يدور فى الحكومة العثمانيـة فى حينه . من ذلك أصبح مركز محمد على مهددا من كل جهة فالجيش العثمانى فيما وراء النهرين يهـدد سوريا وحدود مصر نفسها وأصبح من المحتم إعداد جيش وأسطول ليكونا على استعداد لمقابلة الطوارئ . فزادت بذلك نفقات محمد على زيادة عظمى امتصت ثروة مصر وأثارت سخط الناس وغيرت حالة مصر من رغد وهناء الى خوف وانهماك فى إنتاج ثروة ضائعة فى سبيل ايقاف تعدى الأتراك على مصر .

محمد على يطلب استقلال مصر :

لذلك عزم محمد على فى سنة١٨٣٨ على أن يضع حدا لمركزه وكان قد انتهى فى ذلك الوقت من اخضاع نجد ودانت له شبه جزيرة العرب سياسيا وتجاريا فأعلن معتمدى الدول رسميا فى اجتماع خاص بعزمه الثابت على إعلان استقلاله قائلا : " لا يمكنى أن أرضى بترك ما شيدته من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طول هذه السنين مما كلفنى أموالا طائلة كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وعمالها والمدارس المتعددة والبعثات والمعاهد العلمية التى أنشأتها على النمط الأوربى والمناجم التى فتحتها

(١) راجع رسالة توماس واجهورن فى سنة ١٨٣٧

فى سوريا لاستخراج الفحم والحديد والقنوات والطرق التى رسمتها بمصر وسوريا — لا يمكننى ترك كل هذا للفناء فى يد الباب العالى بعد موتى . وان قلبى لينفطر كلما ذكرت أن ثمرة أتعابى ضائعة ومصيرها للفناء وأن أولادى وأسرتى ستترك بعد موتى تحت رحمة الباب العالى "(١) .

جواب الدول :

فجاء جواب الحكومة الانجليزية : " بأن الحكومة ترى من المستحيلات تنفيذ مشروع محمد على وترى من نتائجه المحققة الدمار للباشا " . وأجابت فرنسا : " بأنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم محمد على على اعلان استقلاله . وأن الحكومة الفرنسية ستضع كل العقبات ضد تنفيذ هذا المشروع "(٢) أما " مترنخ " فقال : " ان صفو السلام فى أوربا لا ينبغى أن يعكر " . وعبثا حاول الباشا بعد ذلك أن يطلب من الحكومة الانجليزية اتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على السلم فى الشرق . وقال بلا جدوى إن مالية مصر لا يمكن أن تتحمل نفقات التسليح باستمرار واحتمال الضرائب الزائدة التى اضطر إلى وضعها . ولما لم تجبه الحكومات إلى طلبه ترك مسئولية ما يقع من الحوادث على عاتق الدول وسافر إلى السودان مع أنه قد كان بلغ السبعين من عمره ليفتش على مناجم الذهب التى كان ينفق عليها وأخبر " كامبل " انه إذا رجع ومعه كثير من الذهب فانه يستغنى عن الجيوش وعن الأصحاب فى معاملة الباب العالى (٣) .

رغبة السلطان فى الحرب :

غير أن السلطان لم ينتظر وصول ذهب محمد على وانتهز فرصة تغيبه بالسودان وأخذ يحشد قواته على حدود سوريا ، وذلك لأن موقفه إزاء

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من " كامبل " الى " بالمرستون " ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من " بالمرستون " الى " كامبل " ٧ يوليه سنة ١٨٣٨

(٣) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من " كامبل " الى " بالمرستون " ١٢ يوليه سنة ١٨٣٨

الوالى كان موقفا مهينا للغاية . فأى ملك أو سلطان يرضى بأن يبرم صلحا مع تابع له بشروط خاصة تحط من قدره؟ واذا كانت الظروف قد اضطرت السلطان إلى أن ينزل عن هذه الأقاليم ألا يكون من أول واجباته التخلص من هذه الربقة غير الشرعية متى سنحت له فرصة ؟ على أن السلطان كان آخذا فى الشيخوخة ، وكان كلما كبر نما حبه للانتقام من ذلك الذى غطى اسمه على اسم السلطان ، وامتدت ممتلكاته من جبال طوروس شمالا الى النيل الأبيض جنوبا ومن خليج العجم شرقا الى جزيرة كريد غربا ، وهذا يشمل مصر والسودان ، والشام واطنه وكريد و بلاد العرب بما فيها المدن المقدسة . كل هذه البلاد كانت تحت حكمه ، وكان العالم الاسلامى فى جميع الانحاء ينظر إلى بطل الاسلام وفاتح المدن المقدسة بعين الاحترام والولاء . بل كان هناك رجال فى قلب الدولة يعملون على ازال السلطان الموالى للروس عن عرش الخلافة واعلان محمد على نائبا للخلافة .

ولقد كان السلطان شاعرا بكل هذا ، ولذلك أجتهد فى تخليص نفسه من هذا المركز الذليل ، فاستعد للحرب على الرغم من نصيحة كل أصدقائه ، ودهشت حكومات أوربا لما علمت بأن السلطان سيكون البادئ بالعدوان بعد أن كانت الفكرة سائدة بأن محمد على هو الذى سيضرب الضربة الأولى لأنه الجانب الأقوى ، ولقد عرف محمد على ذلك فأكد لمعتمدى الدول عزمه على ألا يبدأ بالعدوان . وأخيرا بدأت الحرب وذلك بعد أن عبر الجنود الأتراك نهر الفرات وهو الحد الفاصل بين الجانبين . أما فى القسطنطينية فان سفراء الدول حذروا الباب العالى من الحرب ، وأعلن سفير الروسيا أن حكومته لن تساعد السلطان فى حربه ضد محمد على ، وصرح باقى السفراء بمثل هذا الا سفير انجلترا فانه سلك سبيلا آخر .

مقدرة السفير بنسنبى :

كان اللورد "بنسنبى" سفير انجلترا سياسيا بارعا وله خبرة وقدرة غريبة فى تكييف التعليمات التى ترد اليه من حكومته بحيث يجعلها توافق أغراضه

وآرائه[1] ومن سوء الحظ أن كانت أفكار بالمرستون و بنسنبي متفقة فى النهاية ، غير أن بنسنبى كان يزيد على بالمرستون بميله الى استخدام الطرق السرية للنجاح فى مشروعاته . فعلى الرغم من الأوامر الصريحة التى وصلت اليه أخيرا تؤكد عليه بأن يبدى النصح للسلطان لتجنب الحرب ، كتب بنسنبى الى حكومته يقول : " انه نصح للسلطان بأن يؤخر كل شيء ان لم يكن فى الامكان ترك كل شيء نهائيا " [2] وصرح للحكومة العثمانية بأن الأسطول الانجليزى لن يعترض سير القوات العثمانية . وقال انه يرجو أن يكون الباب العالى قد أخذ الضمانات الكافية للنجاح . فتشجع الباب العالى بهذه الارشادات الخفية وصدق ما كان يكتبه حافظ باشا من التقارير المكذوبة عن حالة الجيش العثمانى ، ورأى السلطان أنه فى كلتا الحالتين لا يخسر شيئا لأنه اذا انتصر فى الحرب فبها واذا هزم فان انجلترا وروسيا لا يمكنهما أن يسمحا لمحمد على بالقضاء على الدولة .

الحرب الشامية الثانية :

وقف الجيشان وجها لوجه وكان الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا على أرض مصرية عند " عينتاب " والجيش التركى عند قرية " نصيبين " وكانت القوات تكاد تتكافأ ٦٠٠٠٠ مصرى و ٨٠٠٠٠ تركى ، الا أن المدفعية التركية كانت تفوق المصرية فوقانا ظاهرا . وكانت أوامر ابراهيم صريحة فى عدم البدء بالعدوان وعلى الرغم من تحرش القوات التركية فانه تحمل كثيرا حرصا على تنفيذ أوامر والده [3] .

حقا لقد كان محمد على يتوق الى محاربة السلطان ولكنه كان مصمما على أن يبدأ السلطان الهجوم أولا وذلك كسبا لرضا الدول ، ولكى يبرهن

---

(١) الحرب فى الشام لتابيير : الجزء الثانى ص ٣١

(٢) أوراق برلمانية : من بنسنبى الى بالمرستون ٥ أبريل سنة ١٨٣٩

(٣) أوراق برلمانية : من ابراهيم باشا الى حافظ باشا ٨ يونيه سنة ١٨٣٩

على شعوره السلمى أخبر معتمدى الدول بأنه مستعد لسحب جنوده الى جنوب دمشق اذا عبر الأتراك نهر الفرات ثانية ، واذا ضمنت الدول المحافظة على السلام فانه يسحب جنوده من سوريا بجميعها ويقبل شروط الصلح[١] .

ولكن السلطان كان مصمما على الحرب فبدأ حافظ باشا بالعدوان وذلك بإثارة الفتن بين قبائل سوريا وتوزيع الأسلحة عليهم وأخيرا بمهاجمة بعض فرق الجيش المصرى فى أرض داخل حدود سوريا[٢] فلما كتب ابراهيم لوالده بما حصل كتب اليه محمد على بأن يرد هجوم الأتراك وأن يعبر الحدود اذا اقتضى الحال ذلك وقال فى رسالته : "كلما صبرنا وكظمنا شعورنا مراعاة لرغائب الدول تقدم العدو ، واذا صبرنا أكثر من ذلك عجزنا عن صده" فبدأت الحرب وأصبح مستقبل الخلافة العثمانية معلقا .



اتفاق انجلترا وفرنسا ضد روسيا :

أخفق ممثلو الدول فى التشديد على السلطان بضرورة مراعاة اتفاق "كوتاهية" وكذلك أهملوا الإجابة عن مطالب محمد على المعقولة فنتج من ذلك أن أصبحت الدول أمام خطر طالما عملوا على تجنبه منذ معاهدة "هنكار سكلسى" ذلك الخطر هو اثارة المسألة الشرقية وفتحها من جديد واحتمال وجود الأسطول الروسى فى البسفور . ولم يكن بين الدول من يحسن الظن بنيات الروسيا غير النمسا ، أما باقى الدول فقد كان جل همهم عدم ايجاد ظروف تنتحل منها الروسيا عذرا لتقديم المساعدة على حسب شروط المعاهدة . وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا متفقتين على منع الروسيا من التدخل بمفردها ، فمن أجل ذلك أصدرتا التعليمات اللازمة لأسطوليهما

(١) أوراق برلمانية : من "كشليه" الى "سولت" ٧ يونيه سنة ١٨٣٨

(٢) » » : من "كامبل" الى "بلمستون" ٦ يونيه سنة ١٨٣٨

بأن يبحرا إلى الشرق الأدنى و يسعيا جهدهما فى إيقاف الحرب بين السلطان ومحمد على ، ثم كتبتا إلى سفيريهما بالقسطنطينية تعلمانهما بأنه إذا دخل الأسطول الروسى البسفور لأى سبب كان، وجب أن يسمح للأسطولين الفرنسى والبريطانى بالدخول أيضا(١) و بلغ الاتفاق بين انجلترا وفرنسا درجة عظيمة حتى صرح "بالمرستون" لسفير فرنسا بانجلترا : " بأن أعمال الحكومتين أصبحت أشبه بمعاملة عضوين فى وزارة واحدة " .

اقتراحات الدول بشأن الحالة :

كان هذا الاتفاق نتيجة خوف انجلترا الشديد من انفراد روسيا بالعمل . وكانت أعمال الروسيا فى وسط آسيا وتحريضها للأفغان والعجم ضد انجلترا مما ملأ قلوب البريطانيين خوفا على ممتلكاتهم فى الشرق وحنقا على روسيا التى أصبحت منذ عقد معاهدة "هنكارسكلسى" الحامية الوحيدة للسلطان، فاعتقد "بالمرستون" أن الفرصة قد سنحت أخيرا للقضاء على هذه المعاهدة ليحل محلها مؤتمر دولى ينظر فى المسألة الشرقية بجزئياتها(٢) .

أما فرنسا فانها كانت تريد عزلة الروسيا التى كانت تعارض فى عرض المسألة الشرقيـة على مسامع مؤتمر مكون من أعدائها . وعارضت النمسا فى تنفيذ مشروع يضر بمصلحة حليفتها الروسيا واقترحت أن يصرف النظر عن مؤتمر لابد أن ينضم اليه مندوب عثمانى ، واقترح " مترنخ " أن يعقد سفراء الدول فى "ڤيينا" اجتماعات يتذاكرون فيها فى الحالة ، فوافقت الدول على هذا الاقتراح وكتبت الى سـفرائها بالقسطنطينية بقبول التعليمات التى يرسلها سفراء حكوماتهم فى ڤيينا (٣)

---

(١) أوراق برلمانية : "بالمرستون" الى "بنسنبى" ١٨ يوليه سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الرابع : من "بوركنى" الى "سولت" ٢٥ مايو سنة ١٨٣٩

(٣) أوراق برلمانية : رسالة نمرة ٨٣ فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٣٩ .

مساعى فرنسا لوقف الحرب :

ولكن رأت فرنسا أن عقد اجتماعات السفراء فى ڤيينا لا يفيد السلم العام شيئا وأن الدماء ستراق فى الشرق اذا لم تتخذ تدابير فعالة فأرسل المارشال "سولت (Soult)" رئيس الحكومة الفرنسية ملحقين عسكريين أحدهما الى القسطنطينية والثانى الى اسكندرية لأخذ الأوامر اللازمة الى قواد الجيوش المتحاربة بايقاف الحرب أينما وصلتهم الرسالة وفعلا نجح الضابط " كاليير " المرسل الى محمد على فأخذ الأوامر الى ابراهيم بالوقوف، ولكن قبل أن يصل الى معسكر ابراهيم كانت الجيوش قد اشتبكت فى واقعة " نصيبين " فى ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ حيث دحر الجيش العثمانى عن آخره فى ساعات قليلة بالمدفعية والركبان فقط ولم تشترك المشاة فى الموقعة قط[١]. وقال سفير ألمانيا فى القسطنطينية أن سبب الهزيمة هو أن حافظ باشا خالف نصائح الضباط البروسيين وفضل حرب العراء على حرب الخنادق. ولم تصل أخبار الهزيمة الى آذان صاحبها السلطان محمود الثانى الذى قضى نحبه فى الثلاثين من شهر يونيه وبفضل مساعى الوزير خسرو كتمت الأخبار حتى نصب السلطان عبد المجيد بن محمود ولم يبلغ سنه اذ ذاك السادسة عشرة من عمره فتم ذلك بلا سفك دماء أو قيام ثورات كالمعتاد .

نكبات الباب العالى :

غير أن الكوارث ما فتئت تتوالى على الدولة الواحدة تلو الأخرى ففى اليوم الذى وصلت فيه أخبار هزيمة " نصيبين " الى القسطنطينية قام أمير الأسطول العثمانى "أحمد باشا فوزى" وخاف مغبة حكم خسرو باشا وخليل باشا فأدار دفة الأسطول نحو الاسكندرية ولم يطلع فوزى أحدا على عزمه إلا بعض الضباط المقربين وترك باقى البحارة ومن بينهم الضابط الانجليزى " واكر Walker " على جهل تام بما ينوى عمله .

---

(١) أوراق برلمانية : من "هملتن" الى "بالمرستون" ٢٤ يوليه سنة ١٨٣٩

وقد اتضح فيما بعد أن الأسطول الفرنسي بقيادة أمير البحر " لالند " قاطع الأسطول العثماني فى الطريق وعرف قصد أمير البحر أحمد فوزي فاستحسن الفكرة وطلب اليهم أن يحترسوا من مقابلة السفينة الانجليزية "فانجار" ، ولما اقترب الأسطول من الاسكندرية استعد البحارة للحرب ولكن بدل دوى المدافع سمعوا طلقات السلام والترحيب من طوابى الاسكندرية والأسطول المصرى ووضع أحمد فوزى الأسطول العثمانى طوعا بين يدى محمد على وهو فى نظره القوة الوحيدة التى يمكنها المحافظة عليه ، فأصبحت الدولة فى مدة أسبوعين فاقدة جيشها وسلطانها وأسطولها ولم يبق لها من أساليب الحماية إلا رعاية الدول وحكمة محمد على .

وقد أبدى خسرو باشا حكمة سياسية فى أول الأمر بأن أرسل رسولا الى محمد على مهمته الظاهرة اعلان تولية السلطان الجديد ولكنه فى الحقيقة كان يحمل شروط الصلح مع محمد على وفحواها أن تجعل حكومة مصر وراثية فى أسرة محمد على ، غير أن محمد على اعتمد على انتصاراته وطلب حكومة سوريا زيادة على مصر ورجع عاكف باشا المندوب العثمانى محملا بالهدايا .

عداء بالمرستون لمحمد على :

ولما وصلت أخبار الكوارث التى أصابت الدولة العثمانية الى مسامع الحكومات الأوربية استولى عليها القلق وأبدت الاهتمام بالأمر وحنق " بالمرستون " حنقا شديدا على محمد على لظفره فى الحرب وساءه أن تقع تركيا بين براثن محمد على وفى قبضة الروسيا ، فأضمر لمحمد على منذ ذلك الوقت العداء والمعارضة الشديدة لمصالحه . من ذلك أنه صرح فى البرلمان بلا تردد بأنه لما كانت بلدة "نصيبين" واقعة خارج إقليم محمد على فانه لا يمكنه أن يفهم كيف يكون السلطان هو المهاجم (١)

وكتب " بالمرستون " الى سفيره فى ڤيينا يقول : " ان انتصار محمد على فى واقعة ٢٤ يونيه لا يمكن أن يخول له أى اعتبار خاص من جانب الدول

(١) مجموعة هنسارد : ٣٠ أغسطس سنة ١٨٣٩ و ٢٠ مارس سنة ١٨٤٠

الخمس بل قد يؤدى انتصاره الى عكس مايتصوره لأن الواقعة قامت على الرغم من نصائح وتصريحات الدول" (١).

وقد كان أكثر ما ساء "بالمرستون" خضوع الأسطول العثمانى لمحمد على ، ففاتح فى الحال الحكومة الفرنسية بشأن الاشتراك لنزع الأسطول التركى من أيدى محمد على . وفعلا كتب "بالمرستون" للبحرية الانجليزية عن الخطة اللازمة لأجل ذلك حتى جاءه جواب الحكومة الفرنسية يذكره بأن أى عمل عدائى ضد محمد على من شأنه أن لا يسهل المشروع الذى تسير فيه انجلترا وفرنسا معا فأمسك من العمل (٢) .

خطة فرنسا :

أما فرنسا فان سياستها كانت فى مصلحة محمد على منذ انتصاره ، وأصبح من واجبها الأدبى تسوية الحالة بأحسن الشروط له . غير أن علاقة تركيا بأوربا كانت تتطلب من فرنسا اهتماما خاصا ، وكان جل أمانى السياسة الفرنسية أن تجمع دول أوربا وتجعلها ضد سياسة القيصر فى المسألة الشرقية.

خطة الروسيا :

أما موقف الروسيا فكان موقفا محاطا بالاحتراس والحكمة فلم تتحرك لمساعدة السلطان فى حربه مع محمد على لأنه كان المهاجم ، وما كان يتيسر لها الانتفاع بحزن السلطان لأن القيصر نيقولا كان قد صرف نفسه عن الأمل فى حل المسألة الشرقية على المنهج الذى يريد ، هذا الى أن الروسيا كانت تعلم أن محمد على قوة لا يستهان بها ، وأنه يمكنه الوقوف أمام الروسيا اذا اشتبكت بمفردها فى حرب ضده ، ولا يبعد أن تنحاز انجلترا وفرنسا حينئذ الى جانبه .

---

(١) حياة بالمرستون : جزء أول من "بالمرستون" الى "بوفيل" ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الرابع من "سولت" الى "بوركنى" ٦ أغسطس سنة ١٨٣٩

والحقيقة أن محمد على أخطأ فى ارساله الأوامر لابراهيم بالوقوف عقب موقعة" نصيبين " رغبة فى ارضاء " المرشال سولت " رئيس حكومة فرنسا ولو أن ابراهيم زحف على القسطنطينية ونزل الأسطول الروسى الى البسفور لما كان هناك شك فى النتيجة ، ولكن من حسن حظ أوروبا أنه لم تقع هذه الأزمة وأسرعت الروسيا باعلان رغبتها فى عدم تطبيق شروط معاهدة " هنكار سكاسى " وكان من رأى الروسيا حينئذ أنه مادام محمد على لم يهدد وجود تركيا بأوربا ومادامت المفاوضات بشأن الصلح جارية بين الجانبين يحسن بالدول أن تراقب الحالة من غير تدخل ما لم يرفض محمد على شروط الصلح مع السلطان رفضا نهائيا (١) .

اقتراح فرنسا :

وكانت فرنسا ترقب من بعد مجرى الحوادث فرأى " سولت " أن فى تصريح الروسيا سببا يتذرع به لعزلتها سياسيا فأرسلت الحكومة الفرنسية البلاغ الآتى للحكومات لتبليغه لتركيا وهو : " أن الدول توافق تمام الموافقة على أفكار الباب العالى السلمية ولكنها تشدد فى أن لا يتم صلح مع محمد على مالم يوافق عليه الحلفاء الذين بتدخلهم يمكنهم أن يحصلوا للسلطان على شروط مضمونة وأكثر موافقة لمصلحته " (٢) .

فقابلت انجلترا والنمسا هذه الدعوة من فرنسا بالترحاب ورأت هذه الدول أن الوقت قد حان للشروع فى عمل ليس لمنع الروسيا من التدخل بمفردها فحسب بل لايقاف مطامع محمد على الذى كان يستخدم نفوذه فى القصر السلطانى لأجل الحصول على شروط حسنة ، فقد اجتمع كبار رؤساء الحكومة وقرر المجلس ارسال مندوب آخر لمحمد على يؤكد له أن مهمة المندوب الأول كانت لاعلان تولية السلطان الجديد فقط وأن الشروط التى قدمها

---

(١) أوراق بريطانية : من "نسلرود" فى ٣ يونيه سنة ١٨٣٩

(٢) أوراق بريطانية : من "الدوق دلماسيا" الى "بوركنى" فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٩

لم تكن نهائية ، وكان يظن أن الشروط التى يحملها المندوب الثانى أحسن كثيرا من الشروط الأولى اذ كانت تتضمن زيادة على جعل حكومة مصر وراثية جزءا من الشام ان لم تكن سوريا بأكملها (١) .

تقديم المذكرة المشتركة :

فلما علم "مترنخ" بذلك رأى أن التصريح الذى أرسلته الحكومة الفرنسية اذا أعلنته الدول متحدة للباب العالى فان المفاوضات بين السلطان ومحمد على لابد أن توقف مراعاة لرغبة الدول . وفعلا أسرع فأرسل مذكرة ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ الشهيرة لسفيره بالقسطنطينية لتسليمها للباب العالى ، وكتب ممثلو الدول الى سفرائهم بالقسطنطينية ليشتركوا مع سفير النمسا فى تقديم المذكرة للحكومة العثمانية .

وفى ٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩ قبل سفر المندوب العثمانى الى الاسكندرية قدم سفراء الدول "المذكرة المشتركة" وفيها يذكرون الباب العالى بأن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية ويطلبون من حكومة السلطان أن لا يبرم أى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول (٢) .

فتقبل الباب العالى هذه المذكرة بالشكر، ولكن يظهر من الخطاب الذى أرسله خسرو الى محمد على أن كبار الدولة كانوا يفضلون تسوية المسألة مباشرة مع محمد على ، وأنهم ينظرون الى تدخل الدول فى مسألة بين السلطان والوالى من غير ارتياح . الا أنه لم يسع الحكومة العثمانية أمام مطلب الدول الا موافقتها .

---

(١) أوراق برلمانية : من "خسرو" الى "محمد على" يوليه سنة ١٨٣٩

(٢) أوراق برلمانية : رسالة نمرة ٢٢٦

أثر تقديم المذكرة :

وأعلن معتمدو الدول المذكرة الى محمد على فى ٦ أغسطس سنة ١٨٣٩ فاشتد غيظه من خسرو وهو المسئول فى نظره عن قبول مثل هذه المذكرة التى سلبت السلطان استقلاله ووضعته تحت حماية الدول فى أوربا . وعلى ذلك أرسل لوكيله بالقسطنطينية أن يستمر فى مفاوضة الباب العالى كأن لم تقدم هذه المذكرة .

الا أن تقديم المذكرة للباب العالى من الدول الخمس لم تكن لتتوقعه فرنسا التى كانت تحسب أن حكومة الروسيا لا يمكن أن تشترك مع باقى الدول فى اتخاذ هذه الخطوة . وكانت نتيجة اشتراك الروسيا احداث تغير عظيم فى مجرى الحوادث السياسية الآتية فقد كتب سفير فرنسا بلندن الى حكومته يقول : "ان اتفاق الروسيا الفجائى مع باقى الدول لم يكن منتظرا قط وأن الوقت قد حان لتغيير سياسة الريب والتهديد إزاء الروسيا[1]" .

---

(١) أوراق برلمانية : من "بوركلى" الى "سولت" ١٨ أغسطس سنة ١٨٣٩

الفصل الثانى عشر

عند مفترق الطرق

ظهور وتفوق بالمرستون :

بتقديم المذكرة المشتركة انتهى الفصل الأول من المسألة الشرقية ولكن انضمام الروسيا الفجائى الى جانب الدول كان بمثابة ضربة لفرنسا جعلتها تضطرب وتحار فى سياستها ، وأصبح "بالمرستون" بعدها ذا اليد الطولى فى ادارة الأمور بمهارة ومقدرة فائقة . تقلد "بالمرستون" وزارة الخارجية الانجليزية فى سنة ١٨٣٢ وسار على منهج أستاذه "كاننج" فى اتباع خطة هجومية لا يتقيد بتقاليد حزبية أو بمعاهدات ، بل كان رائده فى سياسته المصلحة وبعد الصيت . وكان فى ذلك الوقت فى السابعة والأربعين من عمره نحيفا وجريئا لا تزعزعه الحوادث ولا يأبه بمن يخالفه فى رأيه ، وكان مستقلا فى ادارة شؤون وزارة الخارجية لا يتدخل فى أعماله لا ملك ولا وزارة . وكان اذا نوقش فى "البرلمان" فى خطته السياسية تجنب الموضوع الأساسى للمسألة وأفاض فى الكلام على نقط الموضوع الفرعية وختم الكلام ختاما مقبولا من الجميع . وبالفعل كان "بالمرستون" ككل سياسى لا يبالى بما يقوله أو بما يسلكه من السبل ما دام ذلك كله فى سبيل تنفيذ أغراضه ، فلا غرابة اذن أن يصبح "بالمرستون" قطب السياسة الأوربية فى زمن كان يعيش فيه "مترنخ" و "لوى فيليب" و "نيقولا" .

وقد قرر رأى "بالمرستون" فى سياسته إزاء مسألة الشرق من أول ما بدأ النزاع بين الباشا والسلطان فقد كتب الى سفيره بباريس "اللورد جرانفيل" يقول : "انه قد استقر رأيه فى الموضوع منذ زمن طويل وهو وجوب مساعدة السلطان بكل قوة وإخلاص سواء اشتركت فرنسا أو لم تشترك"[١] .

(١) حياة بالمرستون : جزء أول من "بالمرستون" الى "جرانفيل" ٥ يونيه سنة ١٨٣٨

ولما نشبت الحرب بين السلطان ومحمد على صمم "بالمرستون" على شيئين : (الأول) عدم مساعدة محمد على بأى حال من الأحوال ، (الثانى) عدم السماح للروسيا بالانفراد فى العمل . ولما كانت ثقته فى الروسيا والنمسا قليلة وصل أواصر الاتحاد بينه وبين فرنسا خوفا من اتحاد فرنسا مع الروسيا . ولكن زالت مخاوف "بالمرستون" منذ أن وقع "بوتنف" سفير الروسيا بالقسطنطينية مذكرة "الدول" وعدّ "بالمرستون" هذا العمل من قبل الروسيا نزولا عن المركز الاستثنائى التى حصلت عليه بمقتضى معاهدة "هنكار سكلسى" . عند ذلك وجه "بالمرستون" كل مساعيه ليضعف من النفوذ الفرنسى فى الشرق وذلك بقهر محمد على وتحديد مطالبه . حقا أن "بالمرستون" قد أرضى محمد على لما رفض الدخول فى معاهدة هجومية مع السلطان ، وحين شدد على الباب العالى أن يتجنب محاربة محمد على ولكنه فعل كل هذا رغبة فى خدمة السلطان لا حبا فى محمد على . والآن وقد نشبت الحرب وعرفت نتيجتها وتدخلت الدول وقدمت المذكرة المشتركة عزم "بالمرستون" على تسوية المسألة الشرقية تسوية نهائية .

بالمرستون ومحمد على :

لم يكن محمد على فى نظر "بالمرستون" الا عنصرا ناخرا فى جسم الدولة لابد من بتره حتى تتمكن الدولة من الحياة والوقوف أمام الروسيا ، فلم يكن شأنه شأن الدول وخاصة فرنسا التى كانت تعتقد أن "الرجل المريض" صائر الى الموت وأنه يحسن بالدول توزيع التركة على وارثيه . بل كان من فكره أن الدول التى عاشت طويلا يكون سقوطها بطيئا وأن الدولة العثمانية على أى حال ستبقى إذا ما قوينا بنيانها بدلا من هدمه[١] .

وعلى ذلك كان "بالمرستون" يعتقد أن الواجب يقضى بطرد حكومة محمد على من سوريا ومن مصر إذا أمكن ، وعزز كلامه فى البرلمان ردا

(١) حياة بالمرستون : الجزء الثانى من "بالمرستون" الى "بلور" ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٩

على انتقادات المستر "هيوم" نائب "كابكنى" بقوله : "إن مركز محمد على بمصر يشبه مركز نائب الملك فى إرلندا إذا أراد تكوين حكومة وراثية لأسرته فى إرلنده واسكتلنده. ولست أرى كيف أن حسن إدارة الحكومة فى مصر يمكن أن يؤثر فى مسألة سياسية عظمى تمس مصالح بريطانيا ، وهى مسألة بقاء الدولة العثمانية أو تجزئتها(١)" ولما طالبه المستر "هيوم" بتعريف وحدة الدولة العثمانية وتفسير احتلال بريطانيا لعدن واغتصاب الروسيا وفرنسا لكثير من أملاكها لم يحر "بالمرستون" جوابا وغفل عن الرد وعلى ذلك لم ير بالمرستون فى سنة ١٨٤٠ مبررا لتعضيد حكومة محمد على وهو الذى قال عنه فى سنة ١٨٣٨ فى رسالة للقنصل : "أنه ما رفع اسم محمد على فى نظر حكومات أوربا إلا جهوده العظيمة التى قام بها فى سبيل تأييد السلام فى بلاده ومساعيه الناجحة فى إقامة دعائم العدل بين رعاياه(٢)" . وغريب أن تعترف حكومة انجلترا من تلقاء نفسها باستقلال المستعمرات الاسبانية فى أمريكا وتؤيد الحركات النيابية فى اسبانيا والبرتغال وتسعى جهدها فى سبيل استقلال اليونان والبلجيك وتضن مع ذلك على محمد على منشئ السلام والعمران فى مصر بكلمة واحدة فى سبيل تأييده .

ارتباط فرنسا بمحمد على :

ويظهر أن سبب العداء الذى كان يظهره بالمرستون لمحمد على هو اتحاد مصر الوثيق بفرنسا ونابليون. فقد أصبح محمد على فى نظر الفرنسيين نابليونا آخر يبذر بذور المدنية الفرنسية أينما قامت حكومته . زد على ذلك شكر الفرنسيين لمحمد على لاستخدامه كثيرا من أنصار الامبراطورية الفرنسية الأولى فى حكومته . وكان الفرنسيون ينظرون إلى أعمال محمد على بعين الاعجاب والفخر لأنه أنشأ حكومة ودولة أقوى كثيرا من الحكومة التى أقامتها جيوش أوربا وعواطف شعوبها على اطلال اليونان القديمة(٣) .

(١) مجموعة هنسارد : ٢٧ مارس سنة ١٨٤٠

(٢) أوراق برلمانية : من " بالمرستون " الى "كمبل" يوليه سنة ١٨٣٨

(٣) راجع مذكرات " السير شارلس مرى" عن "محمد على" .

من أجل ذلك أصبح محمد على محل اعجابهم ووجدت الحكومة الفرنسية فيه حليفا تعتمـد عليه فى نشر نفوذها على سواحل البحر الأبيض المتوسط ضـد نفوذ انجلترا . وفوق ذلك كانت فرنسا ترى فى تعضيدها لمحمد على تعضيدا وانهاضا لتركيا نفسها ومع أنه لم يكن من رأيهـا اسـتقلال محمد على استقلالا تاما عن الترك كانت ترى أن يبقى محمد على وممتلكاته جزءا من نظام الدولة العلية التى ضمنت الدول استقلالها ووحدتها .

غلطة فرنسا السياسية :

غير أن سياسة فرنسا فى الحقيقة لم تكن بمثل هذه الصراحة فلم تعلن فرنسا آراءها للدول على الرغم من ظهورها دائما بمظهر المعضد لمحمد على وفضلت أن تخفى الحقيقة وتظهر للدول أنها كغيرها صديقة للسلطان . وفوق ذلك كانت تعمل دائما سرا وعلانية ضد سياسة الروسيا . وكانت نتيجة هـذه الآراء المتضاربة أن ضلت سياسة فرنسا طريق الصواب وأدى ذلك الى وضع المذكرة المشتركة وتقديمها إلى الباب العالى . وهنا غلطة فرنسا الكبرى فانه لم يكن من مصلحتها الاشتراك فى تقديم مثل هذه المذكرة فى حين أنها تعلم أن آراءها فى مستقبل محمد على لم تكن لتوافق عليها باقى الدول .

خطة الروسيا :

أما الروسيا فقد وقعت على المذكرة لعلمها بأن اكتساب ثقـة الدول وخاصة ثقة انجلترا أنفع لهـا كثيرا من مركزها الوهمى على البسفور . وأما النمسا فانهـا رضيت بفكرة اجتماع مؤتمر الدول للبحث فى المسألة الشرقيـة وماذا كان يهم "مترنخ" أو "نيقولا" من جهة محمد على أو بشأن ما يمنحه السلطان من الأقاليم بجانب الأزمة السياسية بأوربا وما يمكن أن تنتجه من المنـازعات .

ولما تم تقديم المذكرة المشتركة بدأت فرنسا تصلح خطأها الأول وذلك بايضاح شروط الصلح مع محمد على . وقد أرجأت الحكومتان الانجليزية والفرنسية المناقشة فى تحديد الأقاليم التى تمنح لمحمد على لتظهرا بمظهر الاتحاد التام أمام الروسيا فى أول الأمر .

ظهور الخلاف بين انجلترا وفرنسا :

وأول ما بدأ الخلاف كان بشأن الأسطول العثمانى الذى وضع فى أيدى محمد على ، فقد كان من فكر الحكومة الانجليزية إخراج الأسطول بالقوة من المياه المصرية ولكن فرنسا اعترضت على استعمال القوة ضد محمد على . وفى المرة الثانية نشأ خلاف بين الحكومتين بسبب وجود اللورد "بنسنبي" السفير الانجليزى بالقسطنطينية الذى كان يعمل ضد أغراض الحكومة الفرنسية .

أما الخلاف الحقيق بين الحكومتين فانه نشأ بسبب مسألة الأقاليم التى تمنح لمحمد على . فقد كتب "سولت" إلى سفيره بانجلترا فى ٢٦ يوليه يقول : "إن محمد على لا بد أن يشعر بتحسين مركزه عقب انتصاره على السلطان الذى هاجمه من غير حق وله على ذلك أن يطمع فى أكثر مما كان يستحقه ، وإذا أغفلنا ذلك نكون قد أنكرنا الحقائق المؤكدة"(١) .

ثم استطلع "بالمرستون" أغراض حكومة فرنسا فعلم أنها تريد اعطاء محمد على حق الوراثة فى حكم الولايات التى يحكمها ما عدا "اطنة" و"كريد" و"بلاد العرب"(٢) .

غير أن "بالمرستون" كان يظن أنه إذا بقيت سوريا تحت حكم محمد على فانه لا يمكن أن يتم سلام بينه وبين السلطان ، وفوق ذلك فان استحواذ محمد على على سوريا يجعله سيد الطريقين إلى "الهند" طريق "السويس"

---

(١) أوراق برلمانية : من "سولت" الى "بوركنى" ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٩

(٢) مذكرات جيزو : جزء رابع ص ٣٤٣

وطريق "الفرات" ، وسيادة محمد على تنطوى على امتداد النفوذ الفرنسى فى الشرق وهـذا ما كان يريد "بالمرستون" إيقافه ، وعلى ذلك أعلن "بالمرستون" الحكومة الفرنسية باعتقاده أن الصحراء يجب أن تفصل بين ممتلكات محمد على والسلطان وأن الواجب يقضى بأن ينكمش محمد على فى مهده الأول "مصر"(١) .

فلما عارضت حكومة فرنسا زاد ارتياب "بالمرستون" فى نية الحكومة الفرنسية واستبعد اتفاقها معه فى سياسته فتحول إلى نقطة أخرى يختبر منها حقيقة شعور الحكومة الفرنسية نحو محمد على فطلب منها إبداء رأيها بشأن الوسائل القهرية التى ترى أنه يجب أن تستخدم ضـد محمد على فى حالة اصراره على مواصلة الحرب ضد السلطان أو فى حالة رفضه للشروط التى ستقدم اليه وامتناعه عن تسليم الأسطول العثمانى ، وكانت هذه المسألة من أدق النقط فى نظر الحكومة الفرنسية ولا تستطيع أن توضح رأيها فيها فلم ير "سولت" مندوحة عن أن يقول انه يجب الاتفاق على الشروط قبل كل شىء . غير أن "بالمرستون" علم الحقيقة من سفيره "بلور" وهى أن فرنسا لايمكنها أن توافق أبدا على استخدام وسائل قهرية ضد محمد على(٢) فزالت ثقة "بالمرستون" بفرنسا وأخذ يتهمها بأغراض ومطامع شخصية تعمل لها وتخشى التصريح بها وأنهـا لا تعير مصالح السلطان جانبا من الاهتمام هذا إلى عدم احترام عهودها وتصريحاتها(٣) .

*
* *

الروسيا تنتهز فرصة الخلاف :

أسرع سفير الروسيـا بباريس وأخبر حكومته برفض فرنسـا استخدام الوسائل القهرية ضد محمد على وأشار الى الخلاف الواقع بين فرنسا وانجلترا

(١) تاريخ حياة بالمرستون : من "بالمرستون" الى "بلور" أول سبتمبر سنة ١٨٣٩
(٢) من "بلور" الى "بالمرستون" ٢٦ أغسطس سنة ١٨٣٩
(٣) من "بالمرستون" الى "بلور" ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٣٩

فى هذه المسألة . وكانت خطة الروسيا فى ذلك الوقت تدعو الى الاعجاب فقد كتب وزير الروسيا الكونت "نسلرود" الى الدول ليوجهوا مساعيهم نحو الاسكندرية بدل توجيهها الى القسطنطينية حيث لايتوقع فيها خطر مطلقا ، وأن الروسيا وإن أظهرت فى هذه المذكرة غيرتها على القسطنطينية فقد كانت تحبذ مع هذا فكرة المفاوضة مباشرة مع محمد على . غير أن مترنخ و " بالمرستون " لم يرغبا فى الاعتراف بمركز محمد على المستقل فيفاوضاه مع أن الدول كانت على علم باتفاق محمد على مع السلطان عند "كوتاهية" وأن السلطان قد أرسل مندوبين من قبله للمفاوضة مع محمد على ، وعلى ذلك تغافلت الدول عن حقيقة الأحوال وولت وجهها نحو فرنسا تستفسر عن رغبات محمد على .

ولما وصلت رسالة السفير الى روسيا تنبه القيصر وأراد أن ينتهز فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا فيصلح علاقات الروسيا بانجلترا ، وكان كره القيصر لاتحاد حكومتى الغرب النيابيتين كرها لايفوقه الا كرهه الشخصى " للوى فيليب " ملك فرنسا ، ففطن " نسلرود " لرغائب " بالمرستون " وبادر بارسال مندوب خاص الى حكومة انجلترا خوفا من أن تحسن العلاقات ثانيا بين انجلترا وفرنسا وكتب سفير انجلترا فى بطرسبورج الى بالمرستون يقول : "إنه مادعا القيصر لارسال المندوب الخاص الا علمه بأن حكومة انجلترا قد حسنت ظنها بروسيا وأخذت تنظر الى سياسة القيصر ورغائبه بعين العدل والموافقة " [١] .

رسالة برنوف الى انجلترا :

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ وصل البارون "برنوف Brunnow" الى لندره وكان سياسيا قادرا وملما بسياسة الروسيا الخارجية وبآراء القيصر ففاتح الحكومة الانجليزية فى مهمته وأخبر بالمرستون أن الروسيا ترى أن يمنح محمد على حكومة مصر فقط وراثية فى أسرته وأن تخلى الأقاليم الأخرى ،

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "روسيا" الى "بالمرستون" فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٣٩

وأن الروسيا مستعدة للاتفاق مع باقى الدول فى استخدام أى وسائل قهرية تراها الدول . وعلى الروسيا أن تحمى القسطنطينية وأسيا الصغرى بصفة كونها منتدبة عن الدول لا بحق معاهدة " هنكار سكلسى " وقد أدهش البارون "برنوف" بالمرستون باعلانه استعداد حكومة الروسيا للنزول نهائيا عن هذه المعاهدة وأن يحل محلها معاهدة دولية أخرى تحتم احترام المبدأ القاضى باغلاق البسفور والدردنيل أمام جميع السفن الحربية. وزاد "برنوف" على ذلك أن أسر القول لبالمرستون بأن رفض فرنسا الدخول فى المعاهدة مما يزيد القيصر سرورا[1] بعد ذلك أعلم بالمرستون فرنسا و باقى زملائه فحوى الرسالة الروسية وجاء الرد من سولت يحى على بالمرستون باللائمة ويقول أن غرض الروسيا ظاهر وهو فصل فرنسا من انجلترا وتدخلها فى القسطنطينية بمفردها ، وقال فى الختام لسفيره ان فرنسا لايمكن أن تسمح أبدا بدخول أسطول أجنبى أمام القسطنطينية ما لم يظهر أسطول فرنسا أيضا[2] .

فاعتمدت الوزارة الانجليزية على اعتراض حكومة فرنسا واعتذرت عن قبول مقترحات " برنوف " ولكن على الرغم من عدم موافقة الوزارة أبدى بالمرستون ارتياحه الخاص لآراء روسيا ورحب بمقترحات برنوف وأفهمه أنه يريد العمل مع الروسيا وترك فرنسا اذا رفضت الاشتراك فى المشروع المعروض .

السعى فى كسب فرنسا ورفض تيير للشروط المقدمة :

ولكن انفصال فرنسا عن انجلترا كان عملا لا ترضاه الوزارة الانجليزية ولا الملك ولم يكن بالمرستون نفسه يريد الانفصال نهائيا لعلمه بأن فرنسا وحدها هى التى يمكنها التأثير فى محمد على ، وعلى ذلك اضطر الى ارضاء الوزارة فعدل شروطه الأولى ورضى أن يحيد عن مبدئه تفاديا من

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "بالمرستون" الى "سفير الروسيا" ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٣٩

(٢) من " سولت " الى " بوركنى " فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩

فرنسا أهم حجة تدافع بها عن خطتها أمام "بالمرستون" . ومع ذلك أبدى المارشال "سولت" ارتياحه العظيم من موافقة الروسيا غير المنتظرة ولكنه فى الوقت نفسه أبدى ارتيابه بشأن الأسباب التى دعت الحكومة الروسية الى تغيير أو تخطئة سياستها القديمة[١] فسئم بالمرستون من هذه الخطة التى اتبعتها فرنسا وصمم على العمل سواء انضمت فرنسا أو لم تنضم .

خطة المسيو تيير :

أما فى فرنسا فثار الرأى العام ضد تحالف الروسيا وانجلترا وقام "تيير Thiers " فى مجلس النواب ينادى بأن واجب فرنسا يقضى عليها بمساعدة مصر بكل جهدها صونا لمصالحها ولشرفها[٢] وكانت نتيجة هذه الحركة أن انقلبت الحكومة وأصبح "تيير" رئيسا لها وعين "جيزو Guizot " سفيرا لفرنسا أمام قصر "سنت جيمس" وكان "تيير" من أشد أنصار محمد على وما كان ينتظر منه أن يوافق على اجتماع مؤتمر دولى يقضى على صاحبه . أما خطته السياسية فهى التمسك طبعا بمبدأ مذكرة ٢٧ يوليه ولكن كان من رأيه انه اذا اتفق السلطان ومحمد على مباشرة فلا ينبغى أن تتدخل الدول وتلغى هذا الاتفاق ، ومع أن هذا كان مخالفا للمذكرة كانت هذه الطريقة فى نظره هى التى بها يتمكن الباشا من كسب شروط فى مصلحته من غير اشتباك مع الدول . ولأجل أن يساعد فى إتمام هذا الحل أرسل "تيير" رسلا من لدنه إلى القسطنطينية والاسكندرية لتسهيل سبيل الاتفاق بين الطرفين وكتب إلى سفيره فى لندره يحذره من الاشتراك فى مؤتمرات أو فى جلسات قد تعقد فى لندره حتى يتسنى لفرنسا الاحتجاج على ما يقرر ولا يكون انفصال فرنسا ظاهرا . وأكد عليه أن يماطل قليلا و يكسب الوقت[٣].

(١) أوراق برلمانية : من "سولت" الى "سبستيانى" فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٣٩

(٢) تاريخ أوربا السياسى "دبيدور" : جزء أول ص ٣٧٤

(٣) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٢٧ .

وصول مندوبى الدول :

وبعد ذلك سارت المسألة ببطء اذ طلب الحلفاء مندوبا عن تركيا ليشترك فى المؤتمر وكان قد حضر الى لندره أثناء ذلك "نيومن" عن النمسا و"بيلوف" عن بروسيا ووصلتهما الأوامر من حكومتيهما أن يبذلا جهدهما فى تفهيم جيزو ضرورة الاتفاق وتحذيره من نتائج الانفصال واستعملت النمسا نفوذها لدى "بالمرستون" ورغبت اليه أن يتساهل مع فرنسا مرة أخرى وكان من رأى مترنخ ألا يتم عمل من غير اشتراك فرنسا لأن أسطول انجلترا وحده لا يمكنه مساعدة الأتراك على طرد محمد على من الشام ولا بد من استعمال الجيوش البرية ، ولم تكن النمسا مستعدة لارسال جنودها الى الشام لأن الروسيا وانجلترا كانتا مشتغلتين بحروبهما ، الأولى فى القوقاز والأخرى فى الافغان والصين وكندا . لذلك اقترح مترنخ أن يعطى محمد على النصف الجنوبى من بلاد الشام زيادة على مصر "ولكن اذا رفض الباشا هذه الشروط فان النمسا لا تتردد فى اتخاذ الوسائل القهرية ضد محمد على ووضع أسطولها تحت تصرف بريطانيا والروسيا "[1] .

فلم يمانع "بالمرستون" وأبلغ الخبر الى "جيزو" وهذا أبلغه الى حكومته فى ٧ مايو سنة ١٨٤٠ ولكن جواب "تيير" لم يكن أسعد حظا من جوابه السابق . قال تيير : "إنه متأكد أن محمد على سيرفض الشروط ولا يقبل أبدا تقسيم سوريا ، وماذا تكون النتيجة لو طلب محمد على "أطنة" وهدد الدول بعبوره جبال طوروس وشبت نار الحرب ؟ "[2] .

فضاعت بذلك فرصة ثانية لحل المشكل بطريق السلم . ولو كانت هذه الشروط عرضت على محمد على نفسه مباشرة ومن غير تأثير فرنسا لقبلها حتما . وقد نشأ عن هذا الرفض حدوث أزمة سياسية شديدة بين الدول ، وما سبب ذلك إلا الفكرة المعكوسة التى كانت تشغل أفكار الفرنسيين من

---

(١) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٨٠ — ٨٦

(٢) أوراق برلمانية : من "تيير" الى "جيزو" فى ١١ مايو سنة ١٨٤٠ .

كبيرهم الى صغيرهم من جهة قوة مقاومة محمد على فى بلاد الشام ، وكان "تيير" يعتقد تماما أن غالبية الوزارة الانجليزية لاتوافق على مشروع بالمرستون، كذلك كان من فكره أن النمسا و بروسيا ستضطران الى التقهقر عاجلا أو آجلا . وعلى العموم كان " تيير" يعتقد أن الدول تتكلم ولا يمكنها أن تتفق على العمل سريعا ، وفى أثناء ذلك التردد يكون محمد على قد سوى شروط الصلح بينه و بين السلطان .

وفى غضون ذلك كانت الأحوال تجرى فى الشرق وفق رغبة "تيير" فقد سقطت حكومة خسرو باشا فى القسطنطينية ، وأصبح الصلح بين الجانبين قاب قوسين اذ أرسل محمد على فى ٢١ يونيه سامى بك مندوبا خاصا لتهنئة السلطان ومعه هدية قدرها ٢٠٠٠ كيس ورسالة الى السلطان يريد بها الاتفاق نهائيا اذ أن العقبة فى سبيل الاتفاق قد زالت بسقوط خسرو باشا . وقد ذكر سامى بك أن محمد على مستعد لتقديم الأسطول العثمانى ولاخلاء بلاد العرب وكريد اذا رغب السلطان وفى مقابل ذلك يلتمس محمد على منحه حكومتى سوريا ومصر ، وجعلهما وراثيتين فى نسله[١] .

وكان "تيير" قد أرسل رسلا من قبله لتسهيل طريق الاتفاق بين الطرفين فعلم "بالمرستون" بمساعى "تيير" وخشى أنه اذا لم يقم بعمل حاسم فان المسألة تفلت من يده وتدخل فى حيز العمل الواقع .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من " هودجس " الى "بالمرستون" ١٦ يونيه سنة ١٨٤٠ .

الفصل الثالث عشر

الأزمة السياسية ومعاهدة لندره سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة موقف الجمود الذى وقفه "تيير" أمام الدول أن دخلت المسألة المصرية فى دورها المملوء بالحوادث العنيفة . ففى هذا الدور وصلت الدول ، بعد بحث وتبادل آراء دام سنة ، الى أنه لأجل استتباب السلم فى أنحاء الدولة العلية يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب . وفى هذا الدور انفرط عقد الحلفاء وتهدم ما أبدته الدول مرارا من اتفاقها ، وفيه أيضا ظهرت قوة محمد على بمظهر لايتفق مع ماعرف عنه فى أوربا . وقد امتلأ هذا الدور بالمتناقضات الغريبة من تقرير وتغيير وعزل و إعادة مما زاد فى خبال الدول .

اسراع بالمرستون فى عقد المعاهدة :

تراكمت الحوادث التى اضطرت "بالمرستون" إلى العمل فقد جاء نورى بك مندوب تركيا وقدم للحلفاء مذكرة فى ١٨ مايو يشكو المحن التى حلت بتركيا من جراء تأخير الصلح فى الشرق ، ثم جاء شكيب المفوض العثمانى أمام مؤتمر الدول وقدم مذكرة للسفراء بلهجة شديدة قال فيها : " إنه مهما بلغ الايلام من جراء الاتفاق مع محمد على مباشرة فان إيلام تركيا من جراء عدم تنفيذ الأمانى الحسنة المدونة فى المذكرة المشتركة أكثر وأشد[١] .

كذلك تذمرت حكومة روسيا من تأخير وتردد "بالمرستون" وأرسل سفير سنت بطرسبورغ يذكر بالمرستون بأن روسيا تنتظر بنافذ

(١) أوراق برلمانية : من "شكيب" الى "بالمرستون" فى ٣١ مايو سنة ١٨٤٠

الصبر عزم حكومة جلالة الملك بشأن الخطة التى ستتبعها من غير اشتراك فرنسا [١] .

على أن "بالمرستون" لم يكن فى حاجة لمثل هذا التذكير فانه لم يتأخر عن العمل الا مراعاة لرأى الوزارة الانجليزية ولخاطر النمسا و بروسيا اللتين لم تريدا السير بدون فرنسا ، ولقد اجتهد مندو باهما فى اشتراك فرنسا فى الساعة الأخيرة فقدما مشروعا يعطى به محمد على مصر ووراثية والشام طول حياته ، ولكن "تيير" رفض مرة أخرى وأصر على الوقوف منفردا [٢] .

عند ذلك لم يبق أمام "بالمرستون" إلا طريقان : إما أن ترجع الدول عن وعدها الأول لتركيا وتترك المسألة تحل نفسها بنفسها وحينئذ تكون الدول قد أضرت بمصالحها ولم تبر بوعدها . وإما أن تتقدم الدول لمساعدة السلطان من غير اشتراك فرنسا مؤقتا . واختار بالمرستون ومندو بو الدول الطريقة الأخيرة . ذلك لأن الظروف جاءت وفق أغراضهم فقد أخفق سامى بك مندوب محمد على فى مهمته وأصبح رشيد باشا وزيرا . وكان هذا الوزير تركيا صميما تربى تربية غربية صحيحة فكان يعتقد أن الدولة يجب أن تبقى واحدة لا تتجزأ ولا ينبغى أن ينشئ محمد على أسرة مالكة فى قلب الدولة ، وأخذ بنسنبى يعضده و يرشده الى السياسة اللازمة فكتب يطلب من الدول تنفيذ مذكرة يوليه سنة ١٨٣٩ ، ولما مال السلطان الى الاتفاق مع محمد على بمساعى سامى بك هدد رشيد بالاستقالة .

انتهاز فرصة الثورة فى الشام :

ولكن أهم من هذا كله أنه حدثت حوادث لم تشجع على قطع تيار المفاوضة مع محمد على فحسب بل شجعت الجميع على ضرب محمد على ضربة مؤلمة ، ذلك هو قيام ثورة فى سوريا ضد الحكومة المصرية التى كانت

(١) سجلات وزارة الخارجية : من "روسيا" الى "بالمرستون" ١٤ فبراير سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢٠١

تريد أن تنهض بالبلاد حربيا وزراعيا وتجاريا فأدخلت نظام الجندية والاحتكار ، وأدخلت نظام المحاكم الحديثة التي يتساوى أمامها الجميع مهما اختلفت نحلهم ، كل هذا نظر اليه سكان الجبل نظر المستريب . غير أن الثورة لم تقم فعلا إلا بعاملين : (الأول) التشجيع من قبل حكومة تركيا والسفارة الانجليزية بالقسطنطينية ؛ (الثانى) قيام ابراهيم باشا بنزع السلاح من سكان لبنان ، واستفحل أمر الثورة فشغل ابراهيم باشا بقمعها واهتم محمد على فأرسل لابنه نجدة قوية على رأسها حفيده عباس باشا فلم يمض إلا قليل حتى أخلدت البلاد الى السكون وكتب المعتمد الانجليزى فى دمشق الى حكومته يقول إن الثورة قد انتهت[١] .

المعارضون لبالمرستون :

ولكن قبل وصول الخبر الى أوربا كان "بالمرستون" قد استخدم حادث الثورة فى إقناع زملائه فى الوزارة بضرورة العمل ضد محمد على وكانت الآراء فى الوزارة الانجليزية منقسمة انقساما بينا ، فكان رئيس الوزارة اللورد " ملبورن Melbourne يخشى حدوث أزمة وزارية تنتهى باستقالة الوزارة أو باستقالة بعض أعضائها فكان يعمل على التوفيق بين أعضاء الوزارة ، وكان "بالمرستون" مصرا على اتخاذ الخطوة النهائية وهى عقد المعاهدة من غير اشتراك فرنسا ، غير أن الشعور العام فى قصر المملكة وبين الأحرار المتطرفين كان لا يميل إلى التدخل ضد محمد على خوفا من انفصال فرنسا عن انجلترا . ولا يزال للآن عدد من الرسائل المقدمة لأعضاء البرلمان بطلب العطف على قضية مصر وعدم إهمال مصالحها وتضحية الأنظمة الراقية التى أدخلها محمد على فيها إرضاء لسياسة المحافظة على كيان الدولة[٢] وقد ظهر فى البرلمان نفسه عدد من الأعضاء يدافعون عن قضية محمد على.

---

(١) أوراق برلمانية : من "هدجس" الى "بالمرستون" ١٦ يوليه سنة ١٨٤٩

(٢) رسائل "توماس واجهورن" سنة ١٨٣٧ و ١٨٣٨

تهديد بالمرستون الوزارة بالاستقالة :

ولما رأى بالمرستون أن حزب المعارضين له قد قوى هدد الوزارة بالاستقالة إذا لم يعقد الاتفاق ، فقال فى جوابه لرئيس الوزارة : " أرانى إزاء الاختلاف فى الرأى بينى و بين أعضاء الوزارة بشأن موضوع المسألة الشرقية الهام مضطرا لترك منصبى تحت تصرف رئيس الوزارة ، وأن رأيى فى هذا الموضوع رأى صريح لا يقبل التحويل وهو أننا اذا تقهقرنا وأحجمنا عن عقد الاتفاق مع الروسيا والنمسا و بروسيا لأن فرنسا لا تريد الاشتراك معنا فاننا نضع حكومتنا فى مركز مهين غير لائق وتصبح انجلترا كأنها آلة تحركها فرنسا . أما من جهتى فانى ما اقتنعت بشىء فى حياتى اقتناعى بصحة رأيى هذا ، وانى إذا كنت غير محق فى هذه المسألة فانى لا أرى لرأيى قيمة فى أية مسألة أخرى[1] .

ثورة الأفكار فى فرنسا :

فكانت النتيجة أن خشيت الوزارة السقوط واضطرت الى موافقة "بالمرستون" ، فلم يبق أمامه الا إقناع النمسا و بروسيا بعدم انتظار فرنسا ولم يجد صعوبة ما فى التأثير فيهما لما كان جاريا فى فرنسا من الثورة فى الأفكار والمظاهرات والمقالات الحماسية وذكرى الحروب والانتصارات النابليونية وذلك بسبب انتظار رفات نابليون من جزيرة "سانت هيلانة" وعلى ذلك تم عقد الاتفاق فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ ، وفى يوم ١٧ يوليه طلب "جيزو" الى وزارة الخارجية وهناك قرأ له "بالمرستون" مذكرة تنبئ

---

(١) تاريخ حياة بالمرستون : الجزء الثانى من "بالمرستون" الى "بلور" يوليه سنة ١٨٤٠

بعقد اتفاق بين الدول الأربع من جهة وتركيامن جهة أخرى لتهدئة الحالة فى الشرق . وأبدى "بالمرستون" أسفه لانفصال الدول المؤقت عن فرنسا ورجا أن لا يدوم الانفصال طويلا وأن تستعمل فرنسا نفوذها فى الاسكندرية لدى الباشا لقبول الاتفاق[1] ، أما جيزو فأنصت طول الوقت ولم ينبس ببنت شفة ثم غادر مقر الوزارة و بلغ الخبر الى حكومته .

عقد معاهدة لندره يوليه سنة ١٨٤٠ :

تعهدت الدول بمقتضى الاتفاق بمساعدة السلطان فعلا فى اخضاع محمد على ، و بينوا فى لائحة خاصة أن يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته ، وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلى بقيود متينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح ألقاب الشرف وضرب النقود الخ ، وأن يمنح محمد على فضلا عن مصر ولاية عكا مدة حياته فاذا لم يقبل هذه الشروط فى عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل فللسلطان الحق فى اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه ، وفى وثيقة ثالثة وافقت الدول على أن الحالة فى سوريا والحالة السياسية الخطرة فى أوربا تحتم عليها الاسراع فى اتخاذ الوسائل الفعلية بلا تأخير ولا انتظار موافقة الحكومات على المعاهدة .

---

(١) مذكرة بالمرستون : فى ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

وهاك نص المعاهدة :

معاهدة لوندره (١٥ يوليه سنة ١٨٤٠)

لما طلب صاحب العظمة السلطان من أصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وامبراطور النمسا وملك بروسيا وقيصر الروسيا تقديم المساعدة له في المحنة التي وقع فيها على أثر سلوك محمد على العدائي نحوه، تلك المحنة التي عرضت سلامة الدولة العثمانية وعرش الخلافة للخطر رأى أصحاب الجلالة مراعاة للود الذي يربط بينهم وبين السلطان ورغبته في السلم وفي صيانة الدولة واتباعا لنص المذكرة المشتركة التي قدمت للباب العالي في ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ ومنعا لاهراق الدماء التي تسيل في سوريا بين موظفي الباشا ورعية السلطان .

اتفق أصحاب الجلالة وعظمة السلطان على عقد المعاهدة الآتية :

١ — أن تعمل الدول المتفقة بالتضامن على إرغام محمد على على قبول الشروط التي اتفق عليها .

٢ — اذا رفض محمد على قبول الشروط التي سيعرضها عليه السلطان فعلى الدول بالاتفاق مع السلطان أن تأخذ التدابير الفعالة لتنفيذ شروط الاتفاق بواسطة قطع طريق الاتصال بين مصر وسوريا ومنع ارسال الأدوات والمؤن الحربية من البلدين . وتنفيذا لذلك تصدر ملكة بريطانيا وامبراطور النمسا الأوامر اللازمة لأساطيلهما بالبحر الأبيض المتوسط بمساعدة رعايا السلطان الذين يظهرون ولاءهم وطاعتهم .

٣ — اذا حاول محمد على بعد اصراره على رفض الشروط المقـدمة ارسال قواته البرية أو البحرية نحو القسطنطينية فان الدول بواسطة سفرائها بالقسطنطينية تعمل بناء على طلب السلطان كل ما يصون البوغازات والاستانة وتعود القوات التي تستخدم لهذا الغرض الى بلادها عنـد ما يأمر السلطان .

٤ — يجب أن لا تعتبر هذه المساعدة المذكورة في المادة السابقة بمثابة خرق للقـاعدة القـديمة القائلة باغلاق البوغازات أمام جميع السفن الحربية الخاصة بأية دولة وتصرح الدول والسلطان باحترام القاعدة القديمة ».

بالمرستون نيومان بولوف برنوف شكيب



لوى فليب
ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨

قانون خاص

ملحق بمعاهدة لندره (١٥ مايو سنة ١٨١٥)

يعلن عظمة السلطان عزمه على منح محمد على الشروط الآتية :

١ — يعد السلطان بمنح محمد على وذريته من أولاده من بعده حكومة مصر .

وزيادة على ذلك يعد السلطان بمنح محمد على مدة حياته حكومة جنوب الشام حسب الحدود المبينة بعد مع اعطائه لقب والى عكا وحكومة الحصن . ويشترط السلطان لهذه المنح قبول محمد على لها فى مدى عشرة أيام بعد اعلانها اليه بواسطة مندوب عثمانى يرسله السلطان الى الاسكندرية وبشرط اصدار التعليمات اللازمة باخلاء شبه جزيرة العرب وجزيرة كريد واقليم اطنه .

٢ — اذا رفض محمد على الشروط المقدمة بعد عشرة أيام فيسحب السلطان منحه حكومة عكا لمدة حياته ويوافق على منحه الحق الوراثى فى حكومة مصر بشرط قبولها فى مدة عشرة أيام أخر بالشروط المذكورة فى المادة السابقة .

٣ — تعيين الجزية حسب الشروط التى سينتهى محمد على بقبولها .

٤ — وعلى كل حال يجب أن يرد محمد على الأسطول العثمانى بكل أدواته ويسلم للمندوب العثمانى الذى سيعرض عليه الشروط دون أن يكون لمحمد على حق فى أى طلب من الباب العالى بخصوص تكاليف الأسطول مدة وجوده بمصر .

٥ — جميع القوانين والمعاهدات النافذة فى الدولة تطبق على مصر وعكا كغيرها من أجزاء الدولة .

٦ — القوات البرية والبحرية التى تكون لباشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوات الدولة .

٧ — يعتبر هذا القانون كأنه متمم للمعاهدة وداخل فيها حرفا بحرف .

بالمرستون نيومان بولوف برنوف شكيب

قرار خاص تابع للمعاهدة

انجازا للهمة التى أخذ مندوبو الدول على عاتقهم القيام بها ونظرا لبعد المسافات التى تفصل العواصم عن بعضها وما يتطلبه ذلك من مرور الوقت الطويل قبل المصادقة النهائية على الاتفاق يرى المندوبون ضرورة التعجيل بالموافقة نظرا لحالة الواقعة فى سوريا وخدمة للانسانية ومراعاة للأزمة الواقعة فى السياسة الأوربية .

ويرون أيضا ضرورة تنفيذ المادة الثانية من المعاهدة دون انتظار للمصادقة النهائية فيقدم الباب العالى نص الشروط لمحمد على من غير تأخير ويشترك قناصل الدول فى مصر مع مندوب السلطان فى عرض الشروط واستخدام كل نفوذهم فى حض محمد على على قبول الشروط وسترسل التعليمات للا ساطيل الواقفة فى البحر الأبيض للاتصال مع القناصل ٦١

بالمرستون نيومان بولوف برنوف شكيب

*
* *

نقد المعاهدة :

ويرى الباحث فى شروط المعاهدة غمطا ظاهرا لحقوق محمد على وهو المنتصر فى ميدان الحرب الواقفة جنوده فى جميع البقاع التى يطلب بقاءها فى يده ، وهو وحده الذى كان يمكنه لو شاء إثارة حرب أوربية عامة بأن يأمر جنوده بالزحف على القسطنطينية . على أن المعاهدة لم تكن مبنية على قاعدة منطقية إذ لابد أن يكون محمد على أحد رجلين ، إما رجلا يستحق شيئا أو لا يستحق ، فاذا كانت الحالة الأولى فلأى سبب عزلت فرنسا ووضعت شروط صبيانية لا يمكن أن ترغم محمد على أو تؤثر فى رجل مثله وسواء أعطى محمد على مصر وحدها أو هى والشام فإن العبث بكيان الدولة حاصل على كل حال ، واذا كان محمد على لا يستحق شيئا فلم لم تشهر عليه الدول الحرب صراحة وتطرد جيوشه من الشام ومصر أيضا ؟

موقف فرنسا إزاء المعاهدة :

لذلك لم يكن للاتفاق أثر حاسم إلا سوء العلاقات بين انجلترا وفرنسا التى أصبحت منذ اعلان شروط الاتفاق من ملكها "لوى فيليب" ووزرائها الى أصغر رجل فى حالة هياج شديد ضد اجماع الدول على فرنسا التى ثار ثائرها من أجل تألب دول أوربا عليها كما فعلت فى سنة ١٨١٥ واتفاقها على عزلها خارج هيئة الدول والاتفاق على حل مسألة حيوية أو أوربية من غير استطلاع رأى فرنسا بل وعلى غير رغبتها . وقد عدّ الفرنسيون اتفاق ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ إهانة لحقت الشرف الفرنسى وضربة قاضية لا بد من الانتقام بسببها ، فقام " لوى فيليب " وهدد الدول بأنه سيتولى رياسة الشعب الثائر ويطلق "غول" الثورة من عقاله بعد أن عمل على كبح جماحه عشر سنوات (١) وكتب صديق الى " جيزو " يصف له الحالة فى فرنسا فقال : " إن الشعور الحربى بالغ أشده وكل يريد الحرب ، حتى الرءوس المعتدلة قد سرى فيها التيار وأصبحت تتوق للحرب وما من نائب كلمته إلا وصرح بضرورة اظهار قوة فرنسا " (٢).

بين تيير وجيزو :

أما "تيير" فنزل عليه الخبر كالصاعقة لأنه لم تصله من "جيزو" معلومات محدودة عن توقع عقد الاتفاق ، وكل الذى وصله عبارة عن الخلاف بين أعضاء الوزارة واحتمال استقالة "بالمرستون"، لذلك اتهم جيزو بقلة النشاط وقصر النظر ، ولكن الحقيقة هى أن جيزو قام بالواجب ولم يقصر فى شىء فكتب الى رئيسه فى ١١ يوليه يقول : " إن "بالمرستون" قد أوضح للوزراء آراءه بشدة واصرار وبين خطة العمل لعقد اتفاق مع الدول الأربع (٣) .

---

(١) تاريخ أوربا السياسى لديبدور : جزء أول ص ٣٨١

(٢) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢٥٠

(٣) مذكرات جيزو : الجزء الخامس ص ٢١٣ و ٢٥٠

أما الخلاف بين أعضاء الوزارة فقد صدق فيه حدس جيزو وانفرد لورد "هولند" ولورد " كلارندون " وهما عضوان من الوزارة وقدما اعتراضا للملكة ونصه : " تنصح الوزارة لجلالتك بالدخول فى اتفـاق الغرض منه اخراج محمد على من سوريا ، ويرى اللورد هولند واللورد كلارندون أن مثل هذا التدخل ليس من حسن السـياسة ولا هو ضرورى لصيانة شرف تاج جلالتك ولا مفيد لمصالح رعايا جلالتك " (١) .

فاذا كان قد قصر "جيزو" فى انذار حكومته باحتمال ابرام الاتفاق فانما السبب فى ذلك يرجع الى حذر بالمرستون وكتمانه كل شىء حتى يتم الاتفاق ولا يخشى من اذاعة الخبر ، فالغلطة نهائيا هى غلطة تيير وغلطة فرنسا التى رفضت مرارا كل المفاوضات التى عرضت على أعضاء الحكومة ولم يفكروا يوما فيما عسى أن يكون مركز فرنسا لو اتفقت الدول ضـدها ، لذلك لما فوجئت الحكومة الفرنسـية بالاتفاق خفى عليهم طريق العـمل وتخبطوا فى سياستهم وخاصة أن فرنسا كانت مضطرة الى التمسك بمـذكرة ١٨٣٩ التى وقعت عليها ، فما كان يمكنها الوقوف فى جانب محمـد على ومساعدته ضد الدول ، إذ لا بد أن يجر ذلك الى حرب أوربية عامة لم تكن الحكومة فى حالة تمكنها من الدخول فيها إلا بعد سنة على الأقل .

خطة الحكومة الفرنسية بعد المعاهدة :

من أجل ذلك دعا الملك "لوى فيليب" أكبر رجال حكومته الى قصره للبحث فى الحالة وقر رأيهم على ارسال رسل الى محمد على ليشجعوه و يتعهدوا حصونه واستعداده الحربى وليخففوا من حدته ، وفى أثناء ذلك يجب أن تستعد فرنسا للحرب ، وكتب "تيير" الى سفراء حكومته يشير عليهم بملازمة التحفظ وابداء التأثر فى معاملاتهم مع سـفراء الدول . أما رد " تيير" على "بالمرستون" فكان ردا قوى الحجة ، فقد كتب يقول : "إن فرنسا ترى أنه

---

(١) تاريخ حياة كلارندون لمكسويل : الجزء الثانى ص ١٩٦

ليس من مصلحة السلطان فى شىء أن تترك له أقاليم يعجز عن صيانتها وحكمها كذلك لا ترى أى فائدة للسلطان من إضعاف الباشا الذى قد يكون قوة منيعة للدولة ، وأن فرنسا تعتقد أنه ليس من الحكمة ولا من الاحتراس فى شىء أن تقر الدول على وسائل تعجز عن تنفيذها ، أو اذا نفذتها فبطرق ناقصة عظيمة الضرر"[1] وكتب الى جيزو يأمره بمعاملة "بالمرستون" كما عامله فيتلو عليه المذكرة و يوجه اليه الأسئلة بشجاعة مستفهما منه عما اذا كان لديه وسائل لمساعدة الثوار فى سوريا ؟ وماذا يكون شأن الدول لو رفض محمد على الشروط التى يقدمها له السلطان رفضا باتا ؟ [2] .

وكان "تيير" مصمما فى الحقيقة على الدخول فى حرب أوربية اذا لم تحل العصابة الأوربية ، ولم يكن غرضه تعضيد محمد على فقط بل تمزيق معاهدات سنة ١٨١٥ ، وأعد اعتمادا ماليا عظيما للاستعداد للحروب ، وزيد الجيش والأسطول وأخذ فى تحصين القلاع وانبعثت الحماسة فى داخل فرنسا وأخذ الناس يترنمون بالأناشيد الوطنية فى مجتمعاتهم .

وثوق بالمرستون بالنجاح :

غير أن هذه المظاهر لم تؤثر فى "بالمرستون" الذى كان واثقا أن الملك لوى فيليب لا يمكنه الدخول فى حرب تجر معها ثورة قد تودى بعرشه فكتب الى " هودجس " المعتمد البريطانى بمصر يقول له إن فرنسا لا يمكنها أن تدخل فى حرب ضد باقى دول أوربا من أجل محمد على ، وليس لدى فرنسا من القوة ما يمكنها من ذلك [3] .

وكانت فكرة بالمرستون تقضى باخضاع محمد على عاجلا حتى اذا هزم رأى الفرنسيون أن لا ضرورة لدخول الحرب فتنتهى الأزمة بسلام . لذلك رأى ضرورة السرعة والانجاز فى العمل فبينما كانت المفاوضات دائرة بين معتمدى الدول ومحمد على أرسل للأسطول البريطانى فى مياه البحر الأبيض

(١) أوراق برلمانية : مذكرة "جيزو" الى "الحكومة الانجليزية" فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جيزو : جزء خامس ص ٣٣٠ — ٣٣٥

(٣) أوراق برلمانية : "بالمرستون" الى "هدجس" فى ١٨ يوليه سنة ١٨٤٠

المتوسط أن يقطع المواصلات بين سوريا ومصر وكلف ممثلو الدول فى سوريا إذاعة نصوص الاتفاق للعموم، وأخذ "بنسنبي" ينظم حركة الثورة فى سوريا وشرع أعوانه يرسلون السلاح والذخيرة خفية الى الثورة (١) .

قيام الثورة فى سوريا :

نعم إن الثورة كانت قد خمدت فى يوليه ولكن كان هناك وميض تذمر لو تعهده خدام السوء بالمال والسلاح لشبت نار الثورة وشغلت ابراهيم عن الزحف على القسطنطينية وعرقلت مساعيه الحربية والحلفاء يحاصرونه من البحر، فكان مما لا بد منه لنجاح خطة الحلفاء إضرام نار الثورة فى الداخل . وفعلا نجح الحلفاء فى ذلك فكانت ثورة سوريا سبب اخفاق ابراهيم ومحمد على أمام الحلفاء . إلا أنه لم يكن من الشهامة فى شيء أن تتولى سفارة بريطانيا فى القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أى حكومة نظامية وخاصة بعد اعتراف ممثلى انجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية(٢) . ولقد كان حقا على "تيير" أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : " هل كان التحريض على الثورة من الأعمال التى تفيد الدولة العلية التى هى فى حاجة إلى الراحة والطمأنينة؟ وهل الثورة فى الشام تولد حب الطاعة والنظام فى قلوب رعايا السلطان؟ وهل ينجح السلطان فى حكم هؤلاء القوم بعد أن أثارهم الباب العالى فى وجه الباشا " ؟ (٣) .

*
* *

---

(١) من "بالمرستون" الى بنسنبي فى ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) ومما يؤيد اشتراك سفارة القسطنطينية فى إثارة الشعور ضد محمد على رسالة "بالمرستون" الى "بنسنبي" عقب انتهاء الحوادث وهذا نصها : "انى أنتهز هذه الفرصة لأذكرك أنه لما كان أهالى سوريا لم يشهروا السلاح فى وجه محمد على إلا بتحريض الموظفين الانجليز أصبح من واجب الحكومة أن لا تدخر وسعا فى نصح السلطان بعمل كل ما يضمن تخليص السوريين من الظلم (١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٠) .

وقد بلغت نفقات الذخائر الحربية الموزعة فى بلاد الشام بواسطة السفارة البريطانية ٤١٩٢٨ جنيها و١٣ شلنا وقد طلبت الحكومة الانجليزية تسديدها من الحكومة العثمانية (فبراير سنة ١٨٤٠) .

(٣) أوراق برلمانية : مذكرة جيزو فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٤٠

استعداد محمد على لاستقبال المعاهدة :

حين وصلت إلى مسامع محمد على أخبار اتفاق ١٥ يوليه أخذ يستعد فى مصر لدفاع عظيم خليق بهمته المعهودة فكوّن فرقا من الحرس الوطنى من جميع الصناع والفعلة وأخذ يدربهم على الحركات العسكرية ، وأقام القلاع على الشاطئ من رشيد إلى الاسكندرية وأمر بعودة جيش بلاد العرب ووحد الاسطولين العثمانى والمصرى تحت أمرة ضابط مصرى ، وأرسل الى سوريا لتقوية حصن عكا ثم أرسل ينذر الباب العالى بعاقبة تدخل الدول قائلا إنها لا تكلف نفسها مؤنة حرب لا تجنى من وراءها مصلحة ذاتية وأخذ محمد على يعامل معتمدى الدول بجفاء وصلف .

ولقد شكا الكولونيل "هدجس" المعتمد الانجليزى الجديد مما كان يلقاه من المعاملة الجافة. وكانت مهمة هدجس محفوفة بالشكوك إذ أرسله بالمرستون ليحل محل الكولونيل "كامبل" نصير محمد على ، وليدل الحكومة الانجليزية على بعض الارشادات الحربية فيما إذا اقتضت الحال إرسال حملة ضد محمد على (١) .

رد محمد على :

وفى ١١ أغسطس حضر المندوب العثمانى رفعت بك حاملا شروط الاتفاق لعرضها رسميا على محمد على فلما قدمت له بحضور معتمدى الدول قابلها بثبات تام وخاطبهم قائلا : " إن هذه الشروط لا يمكن قبولها وأنتم أعلم بأخلاق محمد على فهو لا يقضى على نفسه بالموت وهو على قيد الحياة وانى لا أستطيع قبول شروط مذلة لى" (٢) .

---

(١) كتب هودجس الى حكومته يقول : "ما كدت أطأ أرض هذه البلاد حتى حوطنى الباشا بالجواسيس ليراقبوا حركاتى ولذلك أصبح من الواجب استعمال الاحتراس الشديد لتجنب كل ما من شأنه إثارة شكوك الباشا وكل ما يشير الى الغرض الحقيقى الذى أرمى اليه". سجلات وزارة الخارجية : من "هودجس" الى "بالمرستون" ١٦ يناير سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية : من "هودجس" الى "بالمرستون" ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠

فكتب اليه المعتمدون يذكرونه بما للمعاهدات الدولية من القداسة وأنها لا تقبل التغيير والتبديل ، فلم يؤثر هذا فى عزيمة محمد على واعتمد على تعضيد حكومة فرنسا وما كان عليه الشعور العام فيها إذ أكد له المسيو "كوشايه" معتمد فرنسا فى مصر إن الحرب الأوربية لا محالة واقعة ، وقامت الجاليات الأجنبية واحتجت لدى حكوماتها على اتفاق الدول ضد محمد على . "وكانت الجالية الانجليزية أشد الجاليات احتجاجا وأكثرها سخطا على سياسة حكومتها وممثليها (١) .

فقوى هذا الشعور عزيمة محمد على ، وفى ٢٥ أغسطس حضر اليه المعتمدون والمندوب العثمانى فلم يزد عما قاله فى الجلسة السابقة وأخبرهم بأن لا فائدة من الحضور ثانية بعد عشرة أيام لأنه ليس لديه إلا جواب واحد ثم صارحهم القول فأخبرهم بأن يعدوا العدة للسفر لأنه إذا نشبت الحرب لا يمكن أن يثق فيهم ، "فالرحيل خير وأشرف لكم وآمن لى" (٢) .

غير أن رفعت بك والمعتمدين مثلوا أمام الباشا فى ٥ سبتمبر على حسب التعليمات الرسمية ليسمعوا كلمته الأخيرة على القبول أو الرفض فقابلهم محمدعلى بمفاجأة غريبة ذلك أنه قبل الشرط الثانى من شروط الاتفاق وهو حكومة مصر الوراثية ، وأما عن سوريا فقال انه مستعد أن يطلبها "احسانا" من السلطان ، وكان هذا الرأى نتيجة ما وصل اليه مجلس الحكومة الأعلى الذى اجتمع لهذا الغرض . فلم يكن من المعتمدين إلا أن وضعوا العقبات وظنوا أن هذه حيلة يكسب بها محمد على الوقت فرفضوا الطلب وأعلموه باتخاذ الوسائل القهرية من غير إبطاء ، فأجابهم محمد على بقوله : "ليكن ذلك ولكن أرسلوا طلباتى إلى لندره أو الى القسطنطينية" فطلب المعتمدون ضمانا لحسن نيته رد الأسطول العثمانى فانهال عليهم الباشا بصراخه وغضبه وانفض المجلس (٣) ولم يغادر المعتمدون الاسكندرية إلا فى ١٣ اكتوبر .

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من "هودجس" الى "بالمرستون" ٢٣ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من مقابلة "محمد على" ٢٥ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : مقابلة "محمد على" فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

قيام الحرب بين محمد على والدول :

والحقيقة أنه لا يفل محمد على إلا الحديد فقامت الحرب وتحملت انجلترا الجزء الأعظم منها ، إذ اقتصرت النمسا على ارسال قطعتين حربيتين من اسطولها . ثم ما لبثت الثورة أن قامت مرة ثانية فى سوريا بفضل مساعى "وود Wood" الموظف البريطانى الذى كتب الى بنسنبى يقول : "انه لم يدخر وسعا فى تنظيم حركة الثورة ، وأنه تكبد مشاق عظيمة ، وعرض نفسه لأخطار جسيمة من أجل قيامه بالواجب"(١) ثم فكر بنسنبى فى مشروع يسهل على "وود" نشر الثورة فنصح للباب العالى تحت مسئوليته باصدار الأمر بعزل محمد على قائلا انه من العبث أن يترك محمد على ممتعا بنفوذ السلطان مع أنه يستخدم نفس هذا النفوذ ضد وجود السلطان (٢) .

عند ذلك كانت الحرب قد دارت رحاها بين ابراهيم باشا فى سوريا والحلفاء الذين وقفوا بأسطولهم أمام السواحل بقيادة أمير البحر "استبفورد Stopford" ثم نزل الضابط البحرى "نابيير Napier" وأصدر منشوره للأهالى يحرضهم فيه على القيام فى وجه الحكومة ، واشتبك الطرفان فى منتصف شهر سبتمبر ولم يمض قليل حتى كان النصر فى جانب الحلفاء بمساعدة أساطيلهم فاحتل الحلفاء بيروت ثم نزلت قوة إلى البر مؤلفة من ٣,٥٠٠ تركى و ١,٥٠٠ بحار انجليزى و ١٠٠ نمسوى فسقطت حيفا وصيدا وفى ١٣ نوفمبر سقط حصن عكا المنيع عقب انفجار هائل من الداخل لم يعرف سببه . ولولا هذا الانفجار ماسقط الحصن فى ذلك الوقت ولدامت المقاومة طويلا (٣) .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) : من "وود" الى "بنسنبى" ٣ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) كان ذلك فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠

(٣) الحرب فى الشام : الجزء الأول ص ١٩٦ — ٢٢٥

تقدم الحلفاء على السواحل :

وبسقوط عكا انحطت قوى محمد على المعنوية ، غير أن جيوشه التى تبلغ ٦٠٠٠٠ بقيادة ابراهيم باشا كانت لا تزال متفوقة فى داخلية البلاد وكانت دمشق وحلب والقدس وغزه لا تزال فى أيديهم فلم يكن فى إمكان الحلفاء محاربة ابراهيم فى الداخل واقتصروا على مناوشة الجبليين لجيوشه ، واكتفوا هم بتضييق الحصر البحرى على الموانئ المصرية وقطع الصلات بين سوريا ومصر. ولم يدم تعضيد الجبليين لهم طويلا بدليل ماكتبه "نابيير" إلى بنسنبي يقول: "إنه إذا استمرت الحرب مدة فلا بد من أن يقوى حزب ابراهيم فى سوريا" (١) .

الأزمة السياسية فى أوربا :

وفى هذه الأثناء كانت الحوادث فى أوربا تنبئ بوقوع أزمة سياسية قد تؤدى إلى حرب عامة فى أى وقت ، فقد توترت العلائق بين فرنسا والباب العالى وبلغ ذلك درجة أزعجت الدول، وكانت الحكومتان الانجليزية والفرنسية تبذلان جهدهما لمنع مايمكن أن يزيد الحالة تعقيدا بينهما والفضل فى ذلك لوساطة الملك " ليوبولد " ملك بلچيكا وصهر لوى فيليب وخال الملكة ڤيكتوريا . ثم بدأ النزاع فى الوزارة الانجليزية من جديد وكاد الأمر يفضى الى الاستقالة لولا تدخل الملكة ڤيكتوريا نفسها ونصيحتها للوزارة بضرورة الظهور أمام العالم مظهرا يوافق سمعة انجلترا ومركزها لتدرأ بذلك ما يمكن أن ينجم من النتائج السيئة .

تعضيد فرنسا لمحمد على :

ثم جاء خبر عزل السلطان لمحمد على فقامت فرنسا قومة واحدة ، وفطن بالمرستون لما يمكن أن يؤدى إليه مثل هذا الحادث فبادر بابلاغ الحكومة

---

(١) الحرب فى الشام : الجزء الأول ص ٢٥٣

الفرنسية أن هذا العزل عمل مؤقت لجأ إليه الباب العالى ليرغم محمد على على قبول الاتفاق (١) .

ولكن الشعب الفرنسى لم يسكت وأراد انتهاز الفرصة فيتقدم لمساعدة حليفه محمد على ، و بلغت الحماسة حدا جعل "اللورد جرانفيل" سفير انجلترا فى باريس يكتب الى حكومته يقول : "إن حالة البلاد بالغة الغاية فى الارتباك بسبب ثورة الأفكار التى يخشى أن تهدد السلام فى أوربا وليس هناك حكومة يمكنها أن تمتنع عن مقاومة من يحاول قهر محمد على أو طرده من مصر " (٢) . وكتب تيير الى جيزو يخبره : " بأن حكومة فرنسا تعد وجود محمد على كقوة سياسية فى العالم أمرا ضروريا ولا بد منه حتى يكمل التوازن بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الأقاليم التى يحكمها والبحار التى يمتد عليها سلطانه " (٣) .

ولم يكن فى رسالة تيير شىء يشير الى العنف أو استعمال القوة فاطمأنت الوزارة البريطانية وهدأ روعها وكتب بالمرستون الى سفيره بالقسطنطينية ينبهه الى : " أنه بمقتضى شروط الاتفاق يجب أن يعمل الباب العالى كل ما يوافق مصالحه بشرط أن لا يحيد عن نصح حلفائه له . فالدول توصى السلطان باعادة محمد على رسميا الى حكومة مصر وجعلها وراثية اذا ما أعاد الأسطول وأخلى جميع الأقاليم عدا مصر وملحقاتها فى أفريقية" (٤) ولكن مترنخ اقترح أن يطلب محمد على العفو أولا من السلطان ، وهنا تترك بنسنبى يضع العراقيل فى سبيل الصلح مع محمد على على الرغم من أمر حكومته الصريح ليسهل عقد الصلح ما استطاع ولنعد الى فرنسا حيث الأنظار متجهة من كل أنحاء أوربا لمشاهدة ما تقوم به الحكومة من المفاجآت الغريبة .

(١) سجلات وزارة الخارجية (فرنسا) : من "بالمرستون" الى "جرانفل" ٢ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (فرنسا) : من "جرانفيل" الى "بالمرستون" فى ٥ و ٨ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات الخارجية (فرنسا) : من "تيير" فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٤٠

(٤) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) : من "بالمرستون" الى "بنسنبى" ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٠

فشل الحركة فى فرنسا :

فانه ماكاد العالم يستفيق من هول النظر الى حركات الجيوش والأساطيل حتى فتح عينيه فاذا هو يرى منظرا مضحكا مبكيا وهو سقوط وزارة "تيير" التى كانت تريد الحرب وقيام وزارة معتدلة برياسة "جيزو" ذلك لأن الملك لوى فليب لم يفكر فى الحرب بطريقة جدية بل كان يريد السلم بأى الوسائل ، نعم سبق أن تكلم عن الحرب ، ولكن كما أوضح لسفير انجلترا "الكلام عن الحرب شىء والدخول فيها شىء آخر" (١) ومما أضعف لوى فليب خوفه من قيام الثورة ، فقد تعدى عليه فوضوى يريد قتله فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٠ ، وفى نفس هذا الشهر أيضا حاول "لوى نابليون" الهرب من معتقله وتحريك الثورة ، زد على ذلك ما ظهر من ضعف محمد على فى سوريا وما كان يرسله بالمرستون من الكلمات المزرية ، فمن ذلك ما كتبه لسفيره : "قل للملك ان فرنسا اذا تحدتنا فان انجلترا لا تتردد فى منازلتها وانها اذا بدأت الحرب فانه من المؤكد أن تفقد أسطولها ومستعمراتها وتجارتها وأما محمد على فانا لا نفعل معه أكثر من قذفه فى النيل" (٢) .

كل هذا أثر فى نفس لوى فيليب الذى فضل أن يعارض "تيير" على أن يعارض أوربا ، وأخيرا جاء وقت افتتاح مجلس النواب فوضع تيير على لسان الملك خطبة عدائية حربية لم يقبلها الملك فسقطت الوزارة ، وتولاها من بعده المارشال سولت وجيزو فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٤٠

نيات تيير :

ولقد أوضح تيير خطته فى مجلس النواب عقب انتهاء الأزمة فصرح بأنه : "كان يرمى الى زيادة جيش فرنسا الى ٦٣٩,٠٠٠ وتكوين حرس وطنى يتألف من ٣٠٠,٠٠٠ ، ومتى تم له ذلك ، يوقف كل المفاوضات مع

(١) تاريخ حياة بالمرستون : الجزء الثانى ص ٣٥٢

(٢) تاريخ حياة بالمرستون : من "بالمرستون" فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠

الدول المتحالفة بشأن المسألة الشرقية حتى يستعد و ينصح محمد على أن يتجنب كل ما من شأنه أن يسبب تدخل فرنسا قبل الأوان ، و بعد أن تتم المعدات تلح حكومة فرنسا فى طلب إلغاء معاهدة ١٥ يوليه وتطلب أيضا اعادة النظر فى معاهدات سنة ١٨١٥ فتعدل بطريقة توافق مصالح فرنسا ومكانتها" (١) .

مهمة شارلس نابيير :

و كان سقوط وزارة تيير بمثابة عهد للناس بأن فرنسا لا تتحرك فى حرب من أجل محمد على ، وعلى ذلك قسا الباب العالى واللورد بنسبنى فى معاملتهما لمحمد على ، لولا ما بعثته العناية الإلهية فى قلب رجل حر شجاع هو "شارلس نابيير" من أكبر ضباط الأسطول الانجليزى . رأى هذا الضابط بعين بصيرته أنه من الصعب إخضاع محمد على بقوة الأسطول منفردة ، ورأى قوة ابراهيم فى الداخل ، وفساد الحكم التركى الجديد الذى يريد الحلفاء تثبيته بدلا من حكومة مصر ، رأى حقائق الحال وكان مرابطا أمام الاسكندرية ومعه خمس قطع حربيسة ففتح باب المفاوضات مع حكومة الباشا مباشرة .

اتفاقه مع محمد على :

و كان " نابيير " من حزب الأحرار المتطرفين وكانت تصله الأخبار من أصدقائه بلندره ، فعرف فحوى الخطاب الذى أرسله بالمرستون لبنسنبى فى أكتوبر ، و بنى من تلقاء نفسه على ما جاء فيه أساس اتفاق عقد بينه و بين بوغوص باشا وزير محمد على المفوض بمقتضاه وعد محمد على بتسليم الأسطول العثمانى و باخلاء ابراهيم لسوريا ، وفى مقابل ذلك تعهد " نابيير " بأن تضمن الدول لمحمد على حكومة مصر وراثية ، وبأن لا تمس سواحل مصر بسوء ، وأن تعود العلاقات بين مصر وسوريا ، فرحب محمد على

---

(١) جريدة المونيتير الفرنسية : فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠

بالاتفاق على الرغم من نصيحة فرنسا له بضد ذلك لأنه كان قد سئم من جمود فرنسا نحوه ، ووقع على الاتفاق فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وكتب " نابيير " الى حكومته يقول : " انه أخذ على عاتقه هذا العمل متحملا وحده تبعته ، وأنه عمل مارآه صوابا راجيا موافقة الحكومة . نعم إن التبعة خطيرة ولكن يجب أن لا يحجم الضابط عن العمل من غير أمر متى كان العمل فى صالح الوطن[١] .

موافقة بالمرستون على مشروع الاتفاق :

غير أنه من دواعى الأسف أن السلطان لم يعترف بنص هـذا الاتفاق إذ أنكره أمير البحر " استبفورد " واللورد بنسبنى والحكومة العثمانية ماعدا بالمرستون فانه وافق عليه . وأرسل " استبفورد " يكلفه بعمل ما قام به نابيير ، ويكون بذلك قـد اضطر بالمرستون فى نهـاية الأمر الى مفاوضة محمد على رأسا ، ولو فعل ذلك من أول الأمر لكانت المشكلة قد انتهت من زمن من غير اراقة دماء . وهناك أسباب دعت بالمرستون لأن يخفف من غلوائه ضد محمد على . فقد كتبت اليه الملكة مرة بتاريخ ١٧ أكتوبر وأخرى فى ١١ نوفمبر تطلب اليه بشدة أن يخفف من حدته[٢] ومن هذه الأسباب أيضا وجود وزارة معتدلة فى فرنسا فقد اضطرت الحكومة مجاراة للرأى العـام أن تستمر فى معدات الحرب ولكن أصبح من الواجب على الحلفاء مساعدة " جيزو " ومصالحة فرنسـا التى بدأت تهدأ ثائرتها عقب سقوط " عكا " وتدهور قوات محمد على .

---

(١) الحرب فى الشام : الجزء الأول من " نابيير " الى " بالمرستون " فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠

(٢) مذكرات جرفل : الجـزء الرابع ص ٣٥٠ ، وخطابات الملكة فكتوريا : جزء أول ص ١٤٨

الفصل الرابع عشر

خاتمة المرحلة الأولى

مفاوضة الدول رأسا مع محمد على :

فى صباح ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠ نزل الى الاسكندرية الضابط "فانشو" مندوبا من أمير البحر " استبفورد " قائد قوات الحلفاء ليبلغ محمد على رغبات الدول ، فقبل محمد على كل ما أشار به الضابط وكتب خطابا يستعطف به السلطان وأرسله الى الصدر الأعظم ، ولكن لعبت الأيدى المستترة فى القسطنطينية فشك الباب العالى فى اخلاص محمد على وأرسل بنسنبى الى قواده فى سوريا بأن يؤذوا جيش ابراهيم أثناء اخلائه سوريا بناء على أمر الباشا . وعلى العموم لم يدخر بنسنبى وسعا فى الاضرار بمحمد على حتى أن " نابيير " كتب يقول : " لو كان لبنسبنى القوة لما تردد فى تضحية الأسطول البريطانى حبا فى اهلاك محمد على "(١) .

معاكسة بنسنبى لمحمد على :

وآخر ضربة من بنسبنى أنه أغرى الباب العالى بأن يمنح محمد على حكومة مصر ويهمل ذكر حق الوراثة ، وكان الباب العالى قد تشجع بانكسار محمد على وأخذ يتبجح بطلباته اذ كتب رشيد باشا الى المندوب العثمانى بلندره يقول : " كيف توفق الدول الأربع بين مبدأ المحافظة على كيان الدولة ومنح محمد على حكومة وراثية "(٢) .

---

(١) الحرب فى الشام لنابيير : الجزء الثانى ص ١٩٥

(٢) أوراق برلمانية : من "رشيد باشا" الى " شكيب باشا "فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠

ارسال الفرمان :

ولكن لم تكن لهذه الألاعيب السياسية نتيجة سوى إيغار صدر النمسا و بروسيا وروسيا فاحتج السفراء لدى الباب العالى وكانت النتيجة أن أرسل السلطان فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، ولكن هذا الفرمان اشتمل على كثير من الشروط غير المعقولة كحق السلطان فى اختيار والى مصر من أسرة محمد على واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر وتضييقات أخرى تتعلق بمنح الألقاب العسكرية وغيرها مما أثار غضب محمد على فرفض قبول الفرمان ما لم تعدل على حسب طلباته وكتب بهذه الطلبات مذكرة وأرسل للسلطان يقول : "ان الله سبحانه وتعالى لم يثقل كاهل العبد بشروط ليست فى وسعه فكيف يطلب السلطان خليفة الله فى أرضه أن يضيف الى منته شروطا لا يمكن تنفيذها " [١] .

محمد على يطلب تعديله والدول تؤيده :

وكتبت حكومة النمسا للسلطان والى الحكومة الانجليزية تهدد بالانسحاب من المحالفة اذا لم يعدل الفرمان على حسب طلبات محمد على وفعلا أمرت قائدها بأن لا يعمل ضد ابراهيم أو ضد مصر [٢] وأرسلت حكومتا بروسيا والروسيا كتابة بهذا المعنى ، فلم يكن من بالمرستون الا أن أرسل خطابا الى سفيره بالقسطنطينية يلح عليه إلحاحا شديدا أن يبذل كل جهده لدى الديوان لارسال الفرمان بالتعديل المطلوب فى أقرب فرصة ، فتم الفرمان الجديد ، وكان الوزير رشيد باشا قد استقال وخلفه فى وزارة الخارجية " رفعت بك " فعدل الفرمان فى أهم شروطه . وهى :

أولا — أن تكون الوراثة لأكبر أفراد الأسرة على حسب القانون العثمانى.

ثانيا — أن تحدد الجزية بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠٠ جنيه)

---

(١) أوراق برلمانية : من "محمد على" الى "الصدر الأعظم" فى مارس سنة ١٨٤١

(٢) أوراق برلمانية : من "بوفيل" الى "بالمرستون" فى ٩ أبريل سنة ١٨٤١

ثالثا — أن يكون للباشا حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة "قائمقام"، وفى ٢٢ مايو وافق السفراء على نص الفرمان الجديد ، وفى ١٠ يونيه قرئ الفرمان الجديد رسميا فى قصر محمد على باحتفال لائق[1] ، وعلى ذلك يكون محمد على قد نجح فى تثبيت عرشه على أرض مصر بحسب الشروط التى أملاها .

بعد ذلك اهتمت الدول بمصالحة فرنسا فقبل جيزو ذلك بشرط أن تحل المحالفة وذلك بكتابة كلمة تنبئ بانتهاء الأزمة الشرقية ، فتم ذلك ووقع الدول الأربع على قرار الانتهاء . واشتركت الدول الخمس فى التوقيع على "معاهدة المضايق" وهى اعلان من الدول بقبول المبدأ القديم القاضى باقفال البوغازات أمام جميع السفن الحربية وفتحها للسفن التجارية .

وهاك نص فرمان يونيه سنة ١٨٤١ إلى محمد على :

فرمان حق الوراثة لمحمد على فى حكومة مصر

(يونيه سنة ١٨٤١)

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيد أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى . فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة فى ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فتقدرون فى الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى امتزتم بها فى أولادكم ولذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم ومنحنا كم فضلا عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها :

---

(١) وهذا نص اعتماد سفراء الدول فى القسطنطينية على الفرمان النهائى : " نحن الموقعين أدناه ممثلى الدول الأربع العظمى حلفاء الباب العالى نعلن حسب طلب الباب العالى بأنه قد وصلنا الفرمان الجديد المراد ارساله الى محمد على باشا حاكم مصر ولم نر فيه شيئا أيا كان يدعو الى معارضتنا . وعلى ذلك لم يبق علينا الا أن نطلب من الباب العالى ارسال الفرمان الى صاحبه بأسرع ما يمكن " اه

٢٢ مايو سنة ١٨٤١	استور (النمسا)	كونجز مارك (بروسيا)
	نسنبى (انجلترا)	بوتنف (روسيا)

” متى خلا منصب الولاية المصرية تنتقل الولاية بالارث منكم الى أولادكم فأولاد أولادكم من الذكور من ذريتكم ثم يصدر الأمر بالتعيين من لدنا . واذا انقرض نسل الذكور من أولادكم فيعين الباب العالى شخصا آخر فى الحكم ولا يكون لأولاد النساء من ذريتكم حقا أيا كان فى الوراثة .

على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبـة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معـاملة زملائه وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر فى كلخانة وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين الباب العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعا فى ولاية مصر أيضـا وكلما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصـيله باسمنا الملوكى ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من رعايا بابنا العالى معرضين للضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة حسب ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزائننا السلطانية المبلغ الذى سيقرر فى فرمان خاص مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب ايرادات البلاد [1] هذا فضلا عن ارسال الغلال والخضر المعتاد ارسالها الى المدن المقدسة .

ولمـا كان من المقرر أن يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود لمـا فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتنا السنية أن أصرح بسك النقود فى مصر ولكن النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى يجب أن تكون معادلة للنقود المضروبة فى الاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيـل هيئتها وطرزها .

ويكفى أن يكون لمصر ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدوا هذا العدد لأى سبب ما . ولكن حيث ان قوات مصر البرية والبحرية معدة لخدمة الباب العالى كسائر قوات المملكة العثمانية ، فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين . على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخـدمة العسكرية بعد أن يخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا فى مصر بشرط أن تستعمل فى ذلك جميع الجنود ما تقتضيه واجبات الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة ويرسل الى الاستانة سنويا أربعمائة جندى . ويجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى

---

(١) تقرر أن يكون هذا المبلغ ٨٠٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠٠ جنيه مجيدى) .



القلعة عند دخول الحملة الفرنسية



القلعة من ناحية المقطم

الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وضباط البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين وترقى الضباط البريين والبحريين حتى رتبة قائمقام أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية الا باذننا الخصوصى . وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه ففى عدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه . وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقــدروا أنتم وأولادكم وذريتكم قدر منحتنا الشاهانية فتعتنوا كل الاعتناء بإتمام الشروط المقررة فيه وتحموا أهالى مصر من كل ظلم وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع اخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها اليكم " اهـ .

فرمان ولايته على السودان

ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه :

" ان سدتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى الســابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط وحدود معينة . وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر .

فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين وترسلون فى كل سنة قائمة الى بابنا العالى حاوية بيانات الايرادات السنوية جميعها الخ" .

*
* *

تلخيص نهائى

وعلى ذلك انتهى المشكل الدولى الذى شغل بال الحكومات مدة سنتين أصبحت الحرب الأوربية فى أثنائهما قاب قوسين : ولو تركت الدول المسألة من غير تدخل ما بلغت الأزمة أشدها ولاتفق السلطان ومحمد على على حل كما اتفقا فى سنة ١٨٣٣ بمرأى من الدول ، ولكن خشيت الدول

تدخل الروسيا بمفردها وهذا الخوف جرهم الى التدخل فى شؤون الحكومة العثمانية تدخلا لم يسبق له نظير . ولما زالت الهواجس من جهة الروسيا بتوقيعها على المذكرة الدولية فى سنة ١٨٣٩ سنحت الفرصة لبالمرستون ليعمل على حل المشكل حسب مصالح السلطان التى كانت تتفق وقتئذ مع مصالح انجلترا .

ولأجل تنفيذ هذه الخطة وجد بالمرستون أن لا بد من الانفصال عن محالفة فرنسا التى كانت مصالحها تتفق مع مصالح محمد على ، فزاد الخلاف بين الحكومتين وأصبح الانشقاق مؤكدا ، فاجتهد بالمرستون فى كسب الدول الأوربية الى جانبه ، وتم له ذلك لخوف هذه الدول وغيرتها من فرنسا . بعد ذلك ظهر لبالمرستون أن محمد على قد يعارض الدول ويقاومها بالقوة واذا أريد قهره فلا بد من الحرب ، ولم يكن بالمرستون ولا حلفاؤه على استعداد تام للحرب وحينئذ عنّ له أن يكسب اتفاق فرنسا بنزوله لها عن بعض شروط لمحمد على ، ولكن فرنسا عاندت ورفضت مرارا واستعملت دعاوى عريضة أوغرت صدر بالمرستون .

وحدا بفرنسا على سلوك هذه السياسة اتكالها على استحالة اتفاق الدول من غير اشتراكها . واعتمادها على قوة محمد على العظيمة . ولكن خاب ظنها من الوجهتين فان مصالح انجلترا فى المسألة كانت حيوية ولذا قر بالمرستون على عقد الاتفاق وضرب فرنسا ضربة أدبية أعادت اليها رشدها . نعم كان من المظنون أن تدخل فرنسا الحرب من أجل هذه الاهانة لولا مساعى ملكها لوى فيليب الذى كان يفهمه بالمرستون حق الفهم .

ثم ما لبثت قوى محمد على فى سوريا أن تداعت تداعيا سريعا ونجحت بذلك سياسة بالمرستون نجاحا كاملا . وأراد الباب العالى أن ينتفع بالفرصة فقص من جناحى محمد على ، ولكن بالمرستون وحلفاؤه فطنوا الى سوء هذه السياسة فأوقفوا الباب العالى عند حده وفتحوا باب المفاوضة مع محمد على مباشرة وانتهى المشكل بانضمام فرنسا الى الدول .

وخرج محمد على من الأزمة مغلوبا فى الحرب لأنه اعتمد على تعضيد فرنسا له ، وحكومة فرنسا لم تزوده الا بالأقوال والدعاوى حتى اذا جاءت الساعة العصيبة أحجمت . لأن الملك رأى غير ما كان يراه الشعب . غير أن محمد على نال أقصى أمانيه ومطامعه اذ ثبت عرش أسرته فى أرض مصر بموافقة الدول وسوى العلاقات بين حكومته و بين الباب العالى بحسب الشروط التى اختارها لنفسه .

خاتمة محمد على :

و بوصول فرمان يونيه سنة ١٨٤١ انتهت حياة محمد على السياسية فانصرف الى تحسين داخلية البلاد بقدر ما سمحت به شيخوخته،وصارت علاقاته مع دول أوربا على أحسن ما تكون فلما سافر ابنه ابراهيم فى عام ١٨٤٥ الى أوربا للاستشفاء استقبلته فرنسا وانجلترا استقبالا فخما دل على عظم منزلة ابراهيم الحربية ومكانة والده فى نظر أوربا .ولكى يبرهن محمدعلى أمام الدول على حسن نياته نحو الباب العالى سافر فى يوليه سنة١٨٤٦ الى الاستانة وقدم فرض الاخلاص للسلطان الذى رحب به أيما ترحيب ثم عرج على بلدته "قوله" وترك فيها عدة أعمال خيريةثم عاد الى الاسكندرية وكانت صحته قد تضعضعت كثيرا فترك مقاليد الأمور لحفيده عباس بن طوسون ، اذ استمر ابراهيم يشكو من مرضه فسافر الى أوربا ثانية سنة ١٨٤٧ وفى أثناء هذه الزيارة قام محمد على برحلة بحرية الى نابلى وهناك سمع بثورة سنة ١٨٤٨ وخلع لوى فليب فتأثر محمد على كثيرا للصداقة التى

كانت بينهما فعاد الى مصر وحالته العقلية والجثمانيـة قد ضعفت ضعفا ظاهرا ، وعاد ابراهيم فتقلد الولاية بدلا من والده فى يوليـه سـنة ١٨٤٨ ولكن المنية عاجلته فى نوفمـبر ١٨٤٨ فجاء عباس باشا من مكة واستلم زمام الأحكام ، وكان محمد على اذ ذاك فى الاسكندرية فى قصره المحبوب برأس التين ومن حوله الأطبـاء والممرضون وهو يعانى أشـد الآلام لا سيما بعد وفاة ابنه الأكبر ، وأخيرا فى ٣ أغسطس سنة ١٨٤٩ مات الرجل العظيم فنقلت جثته الى القاهرة ودفن بمسجده الذى شيده ليشرف على القاهرة من أعلى المقطم .

ملحق (١)

منشور بونابرت الى المصريين

الذى طبعه فى الاسكندرية ووزعه فى جميع أنحاء البلاد عقب نزول الفرنسيين فى الاسكندرية فى ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣

"بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه : من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابرت أمير الجيوش الفرنساوية يعرف أهل مصر جميعهم أنه من زمن مديد السناجق الذين يتولون مصر يعاملون الملة الفرنساوية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة طويلة هؤلاء المماليك المجلوبون من بلاد الأباظة والجركس يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها ، ولكن رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم بانقضاء دولتهم فيا أيها المصريون قد قيل لكم انى ما نزلت هذه الجهة الا بقصد إزالة دينكم بذلك كذب صريح لا تصدقوه وقولوا للمفترين انى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين وانى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضا ان جميع الناس متساوون عند الله وان الذى يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم . وأى شىء فى المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها ؟ حيثما تكون أرض مخصبة فهى للماليك ومثل ذلك أحسن الجوارى وأكرم الخيل وأجمل المساكن . فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليظهروا لنا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحكيم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور وبذلك تصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا طمع المماليك وظلمهم . فيا أيها القضاة والمشايخ والأئمة ويا أيها الشربجية وأعيان البلاد قولوا لأمتكم ان الفرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون . واثبات ذلك أنهم نزلوا فى رومية الكبرى وأخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكفالرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنساويين فى كل وقت صاروا محبين مخلصين لحضرة سلطان العثمانيين وأعداء أعدائه أيد الله ملكه مع ذلك أن المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأوامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم فطوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون فى أماكنهم غير

مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم فى الحرب علينا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى لهم أثر :

المادة الأولى — جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية يجب أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها كما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا العلم الفرنساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر .

المادة الثانية — كل قرية تقوم على العساكر الفرنسوية تحرق بالنار .

المادة الثالثة — كل قرية تطيع العساكر الفرنسوية يجب أن تنصب أيضا سناجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه .

المادة الرابعة — المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها .

المادة الخامسة — يجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا كذلك تكون الصلاة فى الجوامع على العادة وعلى المصريين جميعاً أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال . (لعن الله المماليك) . وأصلح حال الأمة المصرية " .

تحريرا فى معسكر الاسكندرية فى ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣

ملحق (ب)

محمد على والخلافة(١)

اتخـذ سلاطين بنى عثمان لقب الخلافة فى القرن السادس عشر بعد الميلاد وأقرتهم أكثرية العالم الاسلامى على ذلك بسبب ما أحرزه الأتراك من الانتصارات الباهرة فى ميادين القتال شرقا وغربا وما فتحوه من الأقاليم الغنية الواسعة بما فى ذلك الأراضى المقدسة ، وما أحيوه من روح اسلامية حربية كانت قد ضعفت منذ انتهاء الحروب الصليبية . ولكن ما جاء النصف الأخير من القرن الثامن عشر حتى بدأت الدولة تتدهور لاضطراب داخليتها من جهة ، وظهور جارات لها طامعات فى ملكها من جهة أخرى . فما لبثت الدولة الحربية أن انهزمت فى ميادين القتال أمام أعدائها فضعف نفوذها الأدبى ولم تقو على كبح جماح الثائرين من رعاياها . وما جاء عام ١٨٣٢ حتى فقدت معظم بلاد البلقان وكريد والجزائر ومصر وسوريا و بلاد العرب . فلا غرابة اذن أن يحفظ التاريخ فى سجلات سنة ١٨٣٢ مشروعات عربية تنبئ بقرب زوال الخلافة العثمانية وانتقال أمرها الى يد من هو أقوى سلطانا وأشد بطشا ، وهو "محمد على" .

والحقيقة أنه لو أراد محمد على قلب حكومة الخلافة اذ ذاك لما تعذر عليه ذلك . ألم يكن له من سعة السلطان والقوة ما يرشحه لمنصب الخلافة فضلا عن مواهبه ومحبة الشعب له ؟ ألم يكن هو الذى خلص المدن المقدسة من أيدى الوهابيين وفتح طريق الحج الى بيت الله حتى لهجت بذكره ألسنة المؤمنين فى أنحاء العالم الاسلامى ؟ أولم يكن هو الحاكم المتصرف فى دولة عربية واسعة النطاق تمتد من كريد الى الخليج الفارسى ومن جبال الطوروس الى أعالى النيل الأبيض؟ ألم يكن صاحب الجيوش والأساطيل المنظمة الظافرة ؟ أولم تقمع جيوشه ثورة الاغريق ثم استولت على سوريا وهزمت جيوش السلطان فى أكثر من موقعة ؟ ثم زحفت كتائبه داخل الأناضول حتى وقفت عند "كوتاهية" ومنها هددت القسطنطينية مقر الخلافة نفسها .

---

(١) هذه المقالة نشرها المؤلف فى مجلة " المقتطف " عدد نوفمبر سنة ١٩٢٣

ولكننا على الرغم من كل هذا نخطئ كثيرا ونركب متن الشطط فى تصوير سياسة محمد على اذا عزونا اليه ارادة انتزاع الخلافة من العثمانيين . فمثل هـذا الأمل لم يدخل فى حدود منهجه السياسى العملى . لقد كان لمحمد على من النظر السياسى الصائب ما جعله يحافظ على علاقاته الرسمية بالدولة العثمانية ضمانا لصيانة أملاكه الواسعة التى فتحها والتى لم تكن فى الحقيقة الا جزءا من الدولة العثمانية التى ما فتئت الدول تعلن لزوم حفظ كيانها واستقلالها . لقد انتفع محمد على أيما انتفاع من مركزه داخل الدولة اذ أخذ يواصل سياسة الفتح والاستعمار لمصلحته الخاصة تحت ستار من الاخلاص والولاء للسلطان .

ان محمد على لم ينس قط منشأه وما هو مدين به للسلطان الذى منه استمد حقوقه وقوته . ولم يجهل قط مبلغ تمسك الأتراك بأسرة آل عثمان على عرش الخلافة اذ مهما يكن من شأن الأتراك فى منازعاتهم وخلع سلاطينهم وتنصيبهم فمن المحقق أنهم لم يحاولوا يوما تغيير الأسرة الحاكمة .

كل هذه الاعتبارات جعلت محمد على يضع حدا لمقاصده وتصميماته فلم يقذف بنفسه فى مشروع عالمى كالخلافة تحكمه التقاليد التاريخية قبل كل شىء . ولم يكن نصيبه من الارث التاريخى حينذاك شيئا مذكورا . واننا اذا تتبعنا خطواته واسترشدنا بخطته التى سار على منهاجها تبين لنا أن الغرض الذى كان يعمل له هو تثبيت أقدامه وأسرته من بعده فى حكم مصر وما يتبعها من الأراضى على أساس معاهدة دولية صريحة . وأنه كان كبير الأمل متى بلغ هذه الأمنية أن تجد الدولة العثمانية من قوته ونفوذه واستنارته خير نصير لها وللامم الشرقية الاسلامية بصفة عامة .

ان البحث الدقيق فيما كتب عن محمد على من مصادر أصلية لم يدلنا على أنه طمح يوما الى انشاء خلافة جديدة . ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تستوثق من نياته نحو الخلافة فطلبت الى معتمدها فى مصر الكولونيل كامبل سنة ١٨٣٢ — ١٨٣٩ أن ينقب فى سجلات القنصليـة رجاء العثور على ما يثبت إدانة محمد على فبحث ولكن على غير جدوى وكتب ينفى الخبر نفيا باتا .

(سجلات وزارة الخارجية الانجليزية من "كامبل" الى "بالمرستون"
أكتوبر سنة ١٨٣٨ "سرى")

وكل ما فى الأمر أنه فى أثناء أزمة سنة ١٨٣٢ — ١٨٣٣ لما نشبت الحرب الشامية الأولى بين محمد على والسلطان محمود الثانى تبادل الطرفان قرارات تدل على شدة التحامل والتسرع ولا يمكن أن يؤبه لها لأنها صدرت فى أحوال استثنائية مؤقتة . من ذلك أن السلطان أصدر قرارا بعزل محمد على وابنه ابراهيم وطردهما خارج القانون وهدر دمهما فأجاب محمد على على ذلك بأن أمر شريف مكة باصدار فتوى دينية ضد الخليفة الأعظم على نسق ما كان يجرى فى أوربا فى العصور الوسطى بين الملوك والبابوات . ولقـد بدا لمحمد على حينذاك أن يظهر فى مصر بمظهر المستقل وبلغ به السخط على الباب العالى أن صرح لبعض ممثلى الدول أنه يود خلع السلطان واجلاس ابنه الصغير (ابن السلطان) على عرش الخلافة فيكون هو صاحب الوصاية والقوة المحركة للخليفة

القاصر . وهذا منتهى ما وصل اليه تطرف محمد على الفكرى أثناء الأزمة العصبية التى هزت عرش الخلافة هزا .

ولوكان محمد على يطمع حقا فى الخلافة لانتهز فرصة انتصاراته الحاسمة ولأمر جيوشه بالزحف على القسطنطينية من غير تردد ، وما كان أصلحها فرصة له فان انجلترا وفرنسا كانتا تساعدانه بلا شك ضد أية حركة عدائية من جانب الروسيا أو النمسا أو هما معا .

ولكن محمد على لم يتحرك ضد القسطنطينية بل أرسل أوامره الى ابنه ابراهيم بالوقوف عند "كوتاهية" حتى تجاب مطالبه التى قصرها على حكم سوريا واطنه عدا الأقاليم التى كانت فى يده قبل الحرب . وان كل ما بدا من محمد على أثناء هذه الأزمة من الحذر وضبط النفس والاعتدال لبرهانا قويا على سلامة نياته نحو الخلافة العثمانية .

*
* *

وهناك عامل آخر لابد من حسبانه عند البحث فى هذا الموضوع وهو رأى دول أوربا فيما لو تمكن محمد على من انتزاع الخلافة من يد العثمانيين . وليس هذا من الفروض التاريخية التى لا يجوز البحث فيها ، فليس ثمة شك أن هذه المسألة طرحت فعلا على بساط البحث والمناقشة بين الدول عقب أزمة سنة ١٨٣٣ ، وكان الرأى الذى اتفقت عليه الدول اذ ذاك أنه يجب المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة فى أوربا ضمانا للسلام والصفاء بين الدول .

غير أنه كان لكل دولة تبع أهوائها ومراميها تفسير خاص لهذا المبدأ . فالروسيا مثلا كانت تريد أن تبقى الدولة كما كانت ضعيفة تحت رحمة القيصر ورهن ارادته . وما كانت الروسيا لتعضد عنصرا ناهضا كمحمد على الا اذا كانت مجهوداته مسلطة ضد الدولة خارج بحر مرمره . فقد كتب الكونت "نسلرود" رئيس حكومة روسيا فى ذلك الوقت الى المندوب الروسى فى القسطنطينية يقول : "يجب أن لا يصل محمد على الى القسطنطينية ويقلب نظام الحكم فيها . فمثل هذا العمل لا يتفق مع مصالح حكومة القيصر وأغراضها . فان محمد على اذا وطد ملكه فى الاستانة كان منه حصن منيع وقوة لا يستهان بها أمام روسيا بدلا من جار ضعيف منهزم". (البسفور والدردنيل : لغريانوف ص ٢٩) .

أما فرنسا فكانت سياستها ذات وجهين فبينا نراها منجذبة نحو محمد على عاملة على رفع شأنه اذ هى من جهة أخرى تؤكد للباب العالى صدق ولائها القديم وتصميمها على الوقوف فى وجه الروسيا ومنعها من تنفيذ أغراضها فى الدولة .

أما انجلترا فانها لم تكن تود أن ترى محمد على عقبة فى طريقها الى الهند أعنى طريق السويس وطريق الفرات . ولكنها اذا خيرت بينه وبين الروسيا فضلت محمد على فبعض الشر أهون من بعض . ولهذا السبب تضامنت مع فرنسا فى حمل السلطان على اجابة مطالب محمد على سنة ١٨٣٣

ولهـذا السبب أيضا أدلى بالمرستون وزير خارجية انجلترا لسفيره فى القسطنطينية بتصريح مهم قال فيه : " اذا اضطررنا يوما أن نختار أحد أمرين : إما استيلاء محمد على على القسطنطينية أو جعلها تحت نفوذ روسيا فلا يكون فى وسعنا الا أن نختار الأمر الأول .

(سجلات وزارة الخارجية : من بالمرستون"
الى "بنسبنى" ٦ ديسمبر سنة ١٨٣٣) .

هذا تصريح نزل نزول الصاعقة على الروسيا والنمسا تصريح لم يفـه الوزير الانجليزى بمثله فى جانب محمد على . وبلغ من خوف مترنخ الوزير النمسوى أنه كتب على أثر ذلك يرجو بالمرستون أن يحفظ تصريحه فى طى الكتمان مخافة أن يصل الى علم الباشا فيشجعه على تجديد العداء للسلطان . وأراد الوزير الانجليزى أن يوضح الأمر جليا للروسيـا فكتب الى سفيره ببطرسبورج يقول : " ولو أنه لا يوافق الحكومة الروسية أن ترى محمد على على رأس الدولة العلية لأنهـا تخشى همته ونشاطه فان انجلترا ترى أنه خير لأوربا ومصالحها أن يحكم الدولة حاكم قوى مسـتقل من أن يكون السلطان آلة فى يد الروسيا تحركها كيف شاءت " .

(من بالمرستون ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤) .

ولما نشبت الحرب الشامية الثانية بين محمد على والسلطان سنة ١٨٣٩ صرح بالمرستون لسفير فرنسا فى انجلترا : "بأنه كان يروم من صميم فؤاده أن يرى محمد على حتى فى منصب الخلافة لو أن له من الخصال وحوله من التقاليد ما يضمن بقاء الدولة وتماسكها فى المستقبل " .

(مذكرات جيزو الجزء الرابع) .

أما النمسـا فانها ارتبطت فى سياستها مع الروسيا واتفقتا على العمل معا ضد امتـداد سلطان محمد على فى أوربا .

هـذه خلاصة آراء الدولة العظمى بشأن محمد على والخـلافة ، وكلها تؤيد ما ذهبنا اليـه وهو فى حين أنه كان من المستطاع أن يقلب محمد على حكومة الخلافة العثمانيـة ويلق فى سبيل ذلك تعضيـد بعض الدول فانه كأمير مسلم عثمانى صميم طأطأ رأسه أمام سرير الخلافة العظمى فلم يمسسها بسوء وظل الى النهاية يقدس مقام الخلافة ويعمل فقط على تثبيت حكمه وأسرته فى مصر وما يتبعها من الأقاليم حتى تحقق جل أمانيه بمعاهدة لندره سنة ١٨٤٠ وهى أساس استقلالنا اليوم أمام الدول .

ملحق (ج)

مشروع لجمعية الأمم فى سنة ١٨٤٠[١]

كانت دول أوربا العظمى قد قررت سنة ١٨١٥ فى مدينة فينا أن يجتمع مندوبون من قبلها فى مؤتمر غايته الاتفاق على الطرق التى تكفل بقاء السلم العام فى أوربا ، وقد عقد المؤتمر ولكنه لم يأت بالغرض المرجو منه لأن الدول اقتصرت على تطبيق المبدأ من جهة واحدة ، ذلك أنها اهتمت فى المؤتمر الأوربى الأول الذى عقدته بشؤون غيرها من الأمم وغفلت عن نفسها وأغلاطها فتركتها من غير قيد ولا شرط زاعمة أن الثورات الداخلية وحدها هى التى يخشى منها على بقاء السلم ونسيت أو تناست أن المطامع الفردية اذا تسلطت على احدى الدول العظمى كانت مدعاة الى نشوب الحرب لا محالة .

وهنالك أمران ساعدا على فشل المؤتمر الأوربى : (الأول) قيام انجلترا ضد دول أوربا المستبدة ناصرة للممالك الصغيرة وقائلة بعدم التصدى لها فى شؤونها الداخلية ، (الثانى) سعى كل من الدول العظمى فى أغراضها الخاصة بها من غير اكتراث لقانون الحقوق الشرعية ولا مراعاة لتخوم الممالك التى قررها مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ فقد حدث أن تعرضت روسيا لشؤون الدولة العثمانية بين سنة ١٨٢٨ — ١٨٣٣ وكادت تقضى على استقلال تركيا فى أوربا ، وتعرضت النمسا لشؤون ايطاليا وتعرضت فرنسا وانجلترا لشؤون هولندا حتى باتت الحرب فى كل حادثة من الحوادث المذكورة على قاب قوسين وباتت فكرة السلام العام أملا مضيعا ونسيا منسيا .

كان من جراء هذه الحوادث وأمثالها أن علم سواس أوربا الذين كانوا يتوقون الى السلم أن الضمان الحقيقى للسلام العام انما هو وضع حد لمطامع أية دولة من الدول العظمى نفسها تظهر ميلا الى التعدى وذلك باتفاق باقى زميلاتها عليها لا فى مراقبة الدول الصغيرة وحراستها ، ولو وجد مؤتمر على هذه القاعدة لعمر طويلا فى أوربا .

وليس فى التاريخ ذكر لجمعية الأمم هذه وانما توجد مستندات تاريخية تؤيد محاولة بعض الساسة تأليف جمعية للأمم فى أوربا سنة ١٨٤٠ فقد تولدت هذه الفكرة فى فينا والفضل فى ابرازها يرجع الى رجلين : (الأول) "اللورد بوفيل" (السير فردريك لام) سفير بريطانيا العظمى فى فينا ، (الثانى) البرنس مترنخ رئيس حكومة النمسا وصاحب المبادئ الرجعية المعروفة . وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٨٤٠ أيام أن عكرت المسألة المصرية صفو أوربا وكادت فرنسا تشعل الحرب من أجل محمد على .

ويغلب على الظن أن الأوراق التاريخية التى نحن بصددها لم يسبق نشرها فان المستر "أليسن فيلبس" لم يشر فى كتابه الشهير "اتحاد أوروبا" بكلمة ما الى هذه الخطوة الهامة

---

(١) نشرها المؤلف فى مجلة "المقتطف" فى عدد أبريل سنة ١٩١٩

فى سبيل تكوين جمعيــة الأمم والأوراق المشار اليها تنبىء عن مشروع تكوين عصابة أوربيــة دفاعية من الأربع أو الخمس الدول العظمى التى أخذت على عاتقها اصلاح ذات البين بين الدول والوقوف أمام أية دولة سواء أكانت من أعضاء الجمعيــة أم خارجة عنها تهدد السلم العام إما بالمظاهرات أو بالحرب الفعليــة . ومقاومة الجمعية لهذه الدولة المعتدية إما أن تكون بواسطة الاحتجاج أو باستعمال القوة لو قضت الضرورة بذلك .

وتمتاز هذه الجمعية عن الجمعيات التى ألفت قبلها لتأييد السلم العام بثلاث نقط : (أولهـا) وأهمها أن المشروع يقضى صراحة بوجوب العمل ضد أية دولة من الدول العظمى تسعى فى تهديد السلم العام ، (ثانيا) أن المشروع لا يقضى بتكوين جمعية دائمة لمندوبى الدول ، انما يجتمع النواب بناء على دعوة ترسلها إحدى الدول أو فى حالة ما اذا أصبح السلم فى أوربا مهددا فى نظر الجميع . (ثالثـا) أن الدول فى هذه المرة كانت مدفوعة بعامل الاخلاص لأجل المحافظة على السلم العـام لا سعيا وراء مصلحة الملوك بل وراء مصلحة الشعوب أيضا ودوام سعادتها .

ويلاحظ أن عدد الممالك التى تتألف منها الجمعيــة لم يحدد فى المشروع وذلك لعــدم وثوق الدول بامكان انضمام فرنسـا اليهن . على أن المـادة السادســة من المشروع تقضى بقبول أية دولة أوربية فى الجمعية بشرط أن تحفظ الدول العظمى لنفسها حق دعوة من تريد أن تشركها من الحكومات فى جلساتها . كذلك يلاحظ مطابقــة روح المشروع لأفكار أكبر القائلين بتأييــد السلام العام . فقد قال المسيو "نوبل" صاحب الجائزة المعروفة : "اذا عاهدت الدول نفسها بأن تتحذ ضد أول معتد من الأمم استحال وقوع الحرب وتعذر على أشد الحكومات عنادا سلوك أى طريق سوى السكون أو التحكيم" . وذكر السير فردريك بلوك : "أن المنازعات على التفوق فى العالم لا يفصــل فيها بالبراهين والحجج المنطقية ، وليس هناك الا علاج واحد مفيــد وهو وجود عصبة تعمل على تنفيذ مبدأ السلام العام" .

وهاك نص المشروع الذى وضعه سفير بريطانيا فى ڤيينا بالاتفاق مع البرنس مترنخ وهو[1] :

المـادة الأولى

تتعهد الدول الأربع . . . كل على حدة وبالتضامن بأن لا تعمد الى استعمال القوة ضد أى حكومة أوربية من غير أخذ رأى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة أولا حتى يمكن أن تنظر الدول فى رفع ظلاماتها وانصافها بالطرق السلمية .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المـادة معتبرا أنها أساس المشروع كله .

---

(١) من سجلات وزارة الخارجية (النمسا) ، شؤون خارجية : من اللورد "بوفيل" الى اللورد "بالمرستون" وزير خارجية انجلترا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٣٠ "سرى" .

المادة الثانية

اذا قدم طلب مثل هذا تتعهد الدول بالاجتماع فى المدينة التى تعينها الدولة التى طلبت الاجتماع للاتفاق معا على الطرق التى تكفل منع الحروب ومتى درست الدول حقائق الموضوع تسرع الى ازالة بواعث الحرب باستخدام نفوذها الأدبى لحماية الدول المهددة أو لتعيين التعويضات اللازمة حسب ظروف القضية .

ملاحظـة — هنا اقترح البرنس مترنخ أن تعين المدينـة التى يجتمع فيها ، فكان جواب اللورد بوفيل أنه قد تمضى سـنة فى مفاوضات عديمة الجـدوى بشأن ذلك وأن اللازم أن تعين المكان الدولة الطالبة للاجتماع فهى أعرف بالمكان الذى يوافقها ، وأخيرا اقترح البرنس مترنخ أن يكون الاجتماع فى عاصمة الحكومة التى طلبته . ومع ذلك فيترك للمؤتمر حرية الانتقال الى المكان الذى يعتبره أكثر موافقة .

المادة الثالثة

اذا أصرت دولة مهاجمـة على العدوان بالرغم من مساعى الدول الأخرى وفضلت اسـتعمال القوة فللدول حينئذ فى هـذه الحالة فقط دون غيرها أن تأخذ التدابير اللازمة للدفاع المشـترك وفى هذه الحالة يعتبر الهجوم ضد أى دولة كأنه هجوم ضد الجميع .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المـادة .

المادة الرابعة

لكى لا يكون هناك أدنى ريب فى نيات الدول الحقيقية ازاء مشروع السلام العام تعلن الدول أنه إذا هددت السلام إحدى الدول الموقعة على هذا فان الدول الأخرى تقوم بما فرض عليها كما هو مبين فى المواد السابقة وتعمل كما لو كانت هذه الدولة لا علاقة لها بالدول الأخرى ولا بهذه المعاهدة .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المـادة .

المادة الخامسة

اذا لم يقدم للدول أى طلب ولكن اشتهر لدى الجميع أن السلام العام فى خطر فالدول الموقعـة على هذا تحفظ لنفسها حق الاجتماع فى عاصمة أى حكومة من بينها لاتخاذ التدابير والطرق اللازمة للمحافظة على السلام العام .

ملاحظة — وافق البرنس مترنخ على هذه المـادة .

المادة السادسة

لما كانت رغبة الدول العظمى الأربع . . . أن تتمتع أوربا بمثل هذه الضمانات التي أخذتها الدول على نفسها فقد اتفقت الدول على ارسال هذه المعاهدة الى الحكومات الأخرى داعية اياها الى الانضمام اليها بشرط أن يبقى حق المذاكرة والفصل حسب نص هذه المعاهدة في أيدي الدول الواضعة للمعاهدة .

ملاحظة — صادق البرنس على هذه المادة ولكنه ذكر أنه يفضل الاشارة الى معاهدة "اكس لاشابل" التي تقضى بأن يشترك في المذاكرة الحكومات صاحبات المصالح في المسألة المعروضة ، ولكن من رأى اللورد بوفيل أن الأوفق عدم السماح بذلك لأنه لابد أن يكون هناك دولة من الدول العظمى لها مصالح في كل مسألة معروضة فهل يسمح لها بأن تكون حكما في قضية تخصها ، هذه مسألة معضلة ، وهناك معضلة أخرى وهي كيف يوفق بين فكرة دعوة حكومات أوربا للانضمام الى هذه المعاهدة وفي الوقت نفسه لا يسمح لها بالاشتراك فيما يقرره المؤتمر بشأن مصالحها الخاصة ، ومع ذلك فالمشروع يكون عديم الفائدة من غير اعطاء هذا الحق للحكومات .

* * *

لم يقبل اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا وقتئذ المداولة بشأن هذا المشروع لأن الأزمة السياسية التي هددت السلم العام في أوربا كانت قد زالت بسقوط حكومة تير في فرنسا في أكتوبر سنة ١٨٤٠ .

ملحق (د)

أهم مصادر الكتاب

مصادر أصلية

١ — سجلات وزارة الخارجية بلندره .
٢ — مكتبة المتحف البريطاني (المخطوطات) .
٣ — الأوراق البرلمانية .
٤ — عجائب الآثار : فى أربعة أجزاء تأليف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .
٥ — سوريا ومصر : تأليف حنا باركر معتمد انجلترا فى مصر سنة ١٨٢٦ — ١٨٣٢ (انجليزى) .
٦ — نظرة عامة فى أحوال مصر : فى جزئين لكلوت بك (فرنسى) .
٧ — تاريخ محمد على : تأليف موريه فى أربعة أجزاء (فرنسى) .
٨ — مصر ومحمد على : تأليف "سنت جون" فى جزئين (انجليزى) .
٩ — مذكرات نابليون : تأليف "الكونت لاكاس" (فرنسى) .
١٠ — مصر فى سنة ١٨٣٧ و ١٨٣٨ : تأليف" توماس واجهورن " (انجليزى) .
١١ — مذكرات جيزو : تأليف"جيزو" وزير فرنسا (فرنسى) .
١٢ — تاريخ حياة مترنخ : بنفسه (انجليزى) .
١٣ — الحرب فى الشام : تأليف"شارلس نابير" فى جزئين (انجليزى) .
١٤ — تاريخ حياة بالمرستون : تأليف"هنرى بلور" فى ثلاثة أجزاء (انجليزى) .
١٥ — مجموعة هانسارد : للخطابات البرلمانية (انجليزى) .
١٦ — مذكرات جرفل : تأليف "هنرى جرفل" (انجليزى) .
١٧ — خطابات الملكة فكتوريا : سنة ١٨٣٧ — ١٨٦١ (انجليزى) .
١٨ — الثورة الفرنسية : تأليف " تيير " (فرنسى) .
١٩ — نابليون بونابرت فى مصر : تأليف "لاكروا" (فرنسى) .

مصادر ثانوية

٢٠ — تاريخ أوربا السياسى : تأليف "دبيدور" جزئين (فرنسى) .
٢١ — المسألة الشرقية : تأليف "دريولت" (فرنسى) .
٢٢ — مسألة مصر : تأليف "ده فرسنيه" (فرنسى) .

٢٣ — البسفور والدردنيل : تأليف ''غريانوف'' (فرنسى) .
٢٤ — حقائق الأخبار عن دول البحار : تأليف ''اسماعيل باشا سرهنك'' .
٢٥ — الكافى : تأليف ''شاروبيم بك'' .
٢٦ — تاريخ مصر الحديث : تأليف ''جورجى زيدان'' .
٢٧ — المماليك : تأليف ''السير وليم ميور'' .
٢٨ — تاريخ أوربا منذ سنة ١٨١٥ : تأليف ''هازن'' (انجليزى) .
٢٩ — انجلترا وأسرة الأورليان : تأليف ''هول'' (انجلترا) .
٣٠ — التاريخ العام : تأليف ''لافيس'' (فرنسى) .
٣١ — جورج كاننج : تأليف ''تاميرلى'' (انجليزى) .
٣٢ — مذكرات عن محمد على : تأليف ''السير شارلس مرى'' (انجليزى) .
٣٣ — مجموعه القوانين : تأليف ''جلاد'' (فرنسى) .
٣٤ — تاريخ حياة اللورد كلارندون : تأليف ''السير هربارت مكسويل''(انجليزى) .
٣٥ — أوربا فى القرن التاسع عشر : تأليف ''أليسن فيلبس'' .
٣٦ — تقدم دول أوربا : تأليف '' أليس فيلبس '' .
٣٧ — تاريخ مصر فى حكم محمد على : تأليف ''مجن'' (فرنسى) .
٣٨ — مصر من سنة ١٧٩٨ — ١٩٠٠ : تأليف ''لويس برهييه'' (فرنسى) .
٣٩ — انجلترا والحملة الفرنسية على مصر : فى مجلدين تأليف '' شارل رو '' .

ملاحظة — هذه أهم ما نذكره من مراجع الكتاب الأصلية وقد ظهر أخيرا كتب قيمة باللغات العربية والانجليزية والفرنسية فى هذا الموضوع .

ملحق (ه)

أسماء أهم الأعلام الأوربية الواردة فى الكتاب

الفرنسيون

بليار ... ... Belliard بليار أحد قواد الحملة الفرنسية بمصر .

بوالكت ... Bois-le-Comte مندوب فرنسى بالقاهرة سنة ١٨٣٢

بروى ... ... Brueys قائد أسطول الحملة الفرنسية .

كلوت بك ... ... Clot Bey دكتور فى خدمة محمد على ومنشئ مدرسة الطب .

كشليه... ... ... Cochlet معتمد فرنسا بالقاهرة .

سريزى ... ... Cerisy من منشئ الأسطول المصرى فى عهد محمد على .

ديزيه ... ... Désaix أحد قواد الحملة .

جيزو ... ... Guizot سفير فرنسا بلندره مارس سنة ١٨٤٠ ثم وزير خارجية فرنسا أكتوبر سنة ١٨٤٠

كليبر ... ... Kléber القائد العام للحملة بعد عودة نابليون .

لالند ... ... Lalande قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط سنة ١٨٣٩

ليبنتز ... ... Leibnitz فيلسوف ألمانى .

لوى فيليب ... Louis Philippe ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨

مجالون... ... ...Magallon ممثل الحكومة الفرنسية باسكندرية قبل الحملة .

ميزون ... ... Maison قائد الحملة الفرنسية بالمورة سنة ١٨٢٧

مينو ... ... Menou القائد العام للحملة بعد قتل كليبر .

منج ... ... Monge رئيس البعثة الفرنسية العلمية .

ريى ... ...Rigny أمير البحر فى واقعة نوارين .

روسين... ... ... Roussin سفير فرنسا بالقسطنطينية .

سبستيانى ... ... Sebastiani سفير فرنسا بلندره لغاية فبراير سنة ١٨٤٠

سيف (سليمان باشا) ... ...Sèves منشئ الجيش المصرى فى عهد محمد على .

سولت ... ...Soult رئيس وزراء فرنسا لغاية فبراير سنة ١٨٤٠

تاليرند ... ... Talleyrand أحد أعضاء حكومة الادارة بفرنسا .

تيير ... ... Thiers رئيس الوزارة من فبراير سنة ١٨٤٠ الى أكتوبر سنة ١٨٤٠

ڤارن ... ... Varennes معتمد بالقسطنطينية

البريطانيون

بوڤيل ... ... Beauvale سفير بڤيينا .

بورنج ... ... Bowring عضو فى البرلمان ومندوب لمصر سنة ١٧٣٧

بلور ... ... Bulwer سكرتير السفارة بالقسطنطينية ثم فى باريس .

كانج ... ... Canning وزير الخارجية ورئيس الوزارة سنة ١٨٢٧

كامبل ... ... Campbell معتمد بالقاهرة .

كدرنجتن ... ... Codrington أمير البحر فى موقعة نوارين .

فانشو ... ... Fanshaw مندوب ليفاوض محمد على سنة ١٨٤٠

فريزر ... ... Fraser قائد الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧

جرانڤيل ... ... Granville سفير بباريس .

هولند ... ... Holland أحد أعضاء الوزارة .

هدجس ... ... Hodges معتمد انجلترا بالقاهرة بعد كامبل .

كيث ... ... Keith قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط سنة ١٨٠١

مندڤيل ... ...Mandeville معتمد بالقسطنطينية .

ملبورن ... ...Melbourne رئيس الوزارة .

نابيير ... ... Napier ضابط فى الأسطول .

بالمرستون ... Palmerston وزير الخارجية .

بنسنبي ... ... Ponsonby سفير بالقسطنطينية من سنة ١٨٣٣

استيفورد ... ... Stopford القائد العام لحملة الحلفاء سنة ١٨٤٠
سدنى سمث ... Sidney Smith قائد بحرى أمام عكا سنة ١٨٩٩
واجهورن ... ... Waghorn مندوب شركة الهند الشرقية الانجليزية .
واكر ... ... Walker ضابط بالأسطول العثمانى .
وود ... ... Wood موظف بريطانى .

الروسيون

بوتنف ... ... Boutenieff سفير بالقسطنطينية .
برونوف ... ... Brunnow مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
ديبتش ... ... Diebitch... القائد فى الحرب الروسية التركية سنة ١٨٢٩
هيدن ... ... Heyden أمير البحر فى واقعة نوارين .
مدم ... ... Medem ممثل الحكومة بالقاهرة .
موراڤيف ... ... Muravieff مندوب خاص لتركيا ومصر سنة ١٨٣٢
نسلرود ... ... Nesselrode رئيس الحكومة .
ارلوف ... ... Orloff مفوض بالقسطنطينية سنة ١٩٢٣

النمسويون

لورين ... ... Laurin ممثل الحكومة النمسوية بمصر .
نيومن ... ... Nieumann مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
مترنخ ... ... Metternich رئيس الحكومة .
پروكش... ... ... Prokesch مندوب بمصر سنة ١٨٣٣
استورمر ... ...Stürmer سفير بالقسطنطينية .

البروسيون

بيلوف ... ... Bülow مفوض بلندرة سنة ١٨٤٠
كونجزمرك ... Kœnigsmark سفير بالقسطنطينية .
ملتكه ... ... Moltke قائد بالجيش العثمانى .

اليونانيون

كابودستر ياس Capo distrias وزير خارجية قيصر الروسيا ورئيس حكومة اليونان سنة ١٨٣٠

هتر يا فليكى Hetairia Philike جمعية الاخوان الاغريقية .

ابسلنتى ... ... Ipsilanti } زعماء الثورة ،
مافروكرداتوس Maurocordatos
كلكتروفنس ... Colcotronis

كناريس ... ... Canaris } قواد فى البحر .
ميوليس ... ... Miaoulis

الكلفت ... ... Klephtes عصابات الجبليين .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٥ من رجب سنة ١٣٥٣
(٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٤) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ٥٧٤٢ س ١٩٣٤ — ٢٠٠٠